المكتبة
التاريخية

العالم العربي الحديث

المشرق العربى فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين

تأليف
الدكتور جلال يحيى

١٩٦٥

دار المعارف بمصر

العالم العربى الحديث

المشرق العربى فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين

تأليف

الدكتور جلال يحيى

دار المعارف بمصر

مقدمة

كان عرب المشرق قد تأثروا بحكم موقع أقاليمهم بالآراء الأوربية ، واحتكوا بحضارة الغرب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فشعروا بشخصيتهم مستقلة عن شخصية الدولة العثمانية التى حكمت هذه الأقاليم ، واعتزوا بقوميتهم التى وجدوها مرة جديدة بعد أن كانت عصور التأخر والجهل قد صرفتهم عن التفكير فيها والشعور بها .

وكافح من أجل هذه القومية شبان من العرب ، درسوا فى المشرق وأكملوا تعليمهم فى الغرب . وحاولوا أن يصلوا إلى استقلال بلادهم عن الدولة العثمانية وأن يقيموا إدارات حكومية عصرية بعد أن شعروا بفساد الحكم التركى وقاسوا من قلة نصيبهم فى تصريف شئون بلادهم . فكانت الحركة من أولها حركة إنفصالية تعتمد على المتعلمين من أبناء الطبقة الوسطى الذين أسهموا فى الدعاية لها وضحوا من أجلها بالنفس والنفيس .

وحاولت الدولة العثمانية أن تستخدم حركة الجامعة الاسلامية لتكتيل شعوب المنطقة والوقوف بها صفاً واحداً ضد الاستعمار . ولكن زعماء العرب عارضوا هذا التيار ، بل وحاولوا إخضاع الاسلام للعروبة وفكروا فى ضرورة عودة الخلافة إلى العرب وإلى أبناء قريش .

وبعد إعلان الحرب العالمية الأولى عمل عرب المشرق على الحصول على استقلالهم من الدولة العثمانية ، فقسموا المعسكر الاقليمى فى الوقت الذي وقف فيه العدو المستعمر على الأبواب ، واختاروا الشريف حسين بن على لقيادة حركتهم وهو يختلف عنهم فى الطبقة الاجتماعية والثقافية والتكوين ،

وأنفقوا قوتهم فى الجهاد ضد دولة الخلافة الاسلامية ، مسهلين على دول الاستعمار الطريق ، وتحالفوا مع دول الوفاق وتناسوا أن هذه الدول نفسها تحتل مصر والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب ، وهى بلاد شقيقة لاتقل فى عروبتها عن بلاد المشرق العربى .

وأفادت الدول الاستعمارية الغربية من هذه الثورة العربية ، ونكثت بعهودها ووعودها ، وقسمت بلاد المشرق العربى إلى مناطق نفوذ وزعتها فيما بينها . (فلم يبق إقليم عربى واحد مستقل إلا فى وسط الجزيرة العربية . فانتهت صفحة من صفحات القومية العربية ، وبدأت بعدها صفحة جديدة ، يجاهد فيها كل إقليم عربى ضد مستعمرية ، وإن كانت مشاعر جميع العرب متحدة فى جميع الأقاليم ، متفقة على ضرورة الاستقلال والتحرر ، ثم الاتحاد فى إطار واحد يضم الجميع) . [١] واستمرت هذه الصفحة طوال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين .

تغيرت طبيعة المعركة العربية نتيجة لانقسامها ، وانفصال الوحدات المجاهدة عن بعضها وتعدد الجبهات فوق أرض المعركة .

وكان هذا هو ما تنشده الدول الاستعمارية والتسلطية التى وضعت أسس سياسة اقتسام البلاد العربية وتقسيمها ، تفريقا للقوي الوطنية ، واضعافاً لأبناء البلاد ، فسهل عليها أن تقابل هذه القوي المشتتة بقوة ضاربة أقوي منها ، خاصة وأن وثبات القوى الوطنية كانت غير منسقة من حيث التكتيل والتوقيت .

كانت الدول الاستعمارية الأوربية قد لبست مسوح الرهبان الأوائل

---

١) تاريخ القومية العربية : للمؤلف . الجزء الأول : الثورة العربية . القاهرة . دار المعرفة ١٩٥٩ . ص ٢٥٢ .

وأعطت نفسها صفة الحضارة والانسانية فى الوقت الذى إقتسمت فيه أشلاء البلاد العربية ، فتحاشت ذكر كلمة (الاستعمار) أو (الاستغلال) وأبدلتها بكلمة جديدة فى قاموس الدبلوماسية وهى كلمة (الانتداب) . وأدعت هذه الدول أنها ستعمل على رفع مستوى أهالى المناطق الخاضعة للانتداب حتى تصل به إلى الدرجة التى تسمح لهم بحكم أنفسهم وتسيير شئونهم . وأخفت مصالحها الواضحة فى هذه المناطق ، كما حولت الأنظار بعيداً عن أغراضها الاقتصادية والاستراتيجية ، ونجحت أمام مؤتمر الصلح وعصبة الأمم فى طلاء أطماعها الاستعمارية الواضحة بلون مخالب ، وسترت مساوءها بهذا الثوب ، وهو كثوب الرياء ، يشف عما تحته .

وعمدت الدول الاستعمارية الأوروبية إلى بث بذور التفرقة بين أبناء العرب فى المدارس والكليات حتى تعمل على تنشئة أجيال جديدة تؤمن بقوميتها المحلية الأقليمية ، فعلى العراقيين أن يهتموا قبل كل شىء بدراسة تاريخ أجدادهم البابليين والآشوريين وليفخر اللبنانيون بأنهم أحفاد الفينيقيين أما الفلسطينيون فهم أبناء الكلدانيين وكذلك السوريون فان دماءهم سريانية خالصة ، وأما المصريون فهم نسل الفراعنة الأمجاد . هذا فيما بين العربى والعربى . أما بالنسبة للجزائرى مثلا فكانت كتب التاريخ الفرنسية فى المدارس الابتدائية تتحدث عن آبائنا الجولوا .

وبالإضافة إلى تقسيم الوطن العربى إلى مناطق احتلال ، والعودة بأهل كل منطقة إلى قوميات قديمة مندثرة ، عمد المستعمر إلى تقسيم سكان المنطقة الواحدة والأقليم الخاضع لحكمة حتى يسهل عليه أمر السيطرة والتحكم . واستخدم الدين والعنصر أساساً لهذا التقسيم الجديد . فقسم بين المسلم والمسيحى ، ثم بين السنة والشيعة والخوارج ، وبين الكاثوليكى والأرثوذكسى

والبروتستانتي . ومن ناحية العنصر ، لعب المستعمر على كلمتي العرب والبربر والساميين والحاميين ، وهلم جرا .

كان هذا هو تكتيك الاستعمار لكي يحتفظ بالأقاليم التي يحكمها في حالة من الضعف والهزال تسمح له بالتالي بالاحتفاظ بمصالحه وباستغلال هذه الأقاليم من الناحية الاقتصادية والاستراتيجية والبشرية .

ولكن علينا أن نتساءل عن موقف العرب إزاء هذه الخطة . خاصة وأن العرب كانوا قد بلغوا المرحلة التي حملوا فيها السلاح واستخدموه لانتزاع استقلالهم من الدولة العثمانية .

لقد واصل العرب معاركهم منفصلين هذه المرة ، وساروا في ذلك داخل الاطارات والحدود التي وضعتها لهم الدول الاستعمارية . أكان هذا نتيجة لضعف القوي العربية أمام قوي الاستعمار ؟ أم كان السبب هو ضحالة الايمان بقضية القومية العربية ؟ أم رجع ذلك إلى القيادة ؟ .

كان العرب قد صرخوا عاليا منادين (بالوحدة) (والاستقلال) ، فلم تكن هناك أي ضحالة في الايمان بالقومية العربية التي يشعرون بها تجرى في عروقهم . وإذا سلمنا بضعف الامكانيات العربية على الجهاد أمام قوى الاستعمار نجد أن المناطق العربية الأكثر فقراً تواصل حمل السلاح وتجاهد من أجل انتزاع الاستقلال . ونري ذلك واضحاً في إقليم نجد في قلب الجزيرة العربية ، وفي ليبيا وفي شمال المغرب في الوقت الذي تقتصر فيه بلاد الهلال الخصيب ووادي النيل على المفاوضة أي الكفاح السياسي . وان علينا أن نشير هنا إلى عامل هام هو أن بلاد المجموعة الأولى كانت لاتفرق بين

العروبة والاسلام ، أما بلاد المجموعة الثانيـة فكانت تسير وراء مذهب « الدين لله والوطن للجميع » .

ولكن أيكفي هذا التفسير لفهم الفوارق بين عمليات الكفاح في كل منها ؟ خاصة وأن الاختلاف واضح بين عمليـات الكفـاح المسلح وبعضها وبين تكوين القائمين عليها وموقفهم من أعوان الاستعمار . وواضح كذلك بين أهداف كل عملية وعملية أخرى .

ان الكفاح العربي الذي نشأ في أقليم نجد بقيادة عبد العزيز آل سعود بدأ بمهاجمة من يعتبر (عميـل الاستعمار) ولكنه تراجع حينما إصطـدم بالقوى الاستعمارية نفسها وإنتهى به الأمر إلى قبول الوضع القائم ، أي الوضع الذي فرضه المستعمر بتقسيمه للبـلاد العربيـة . ثم ختم مجهوده بتقليل مغـالاة (الاخوان) الوهابيين والحد من نشاط جمعيـة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . أما كفاح السنوسيين الذي قاده الشهيد عمر المختـار فقد عمل على تكتيل قوة الأقاليم للكفاح المسلح وحتى النهاية وحتى آخر رجل . وقام بذلك بعد أن فشلت المفاوضات ، وفشلت سياسة اللين مع المستعمر الايطالي فانصهرت ليبيا في بوتقة واحدة وسجلت لنفسها هذا الموقف الوطني الشعبي الاسلامي الخالد في سجل الجهاد . وأما كفاح الريف فقد عمل على محاربة الاستعمار بأسلوب حديث وبنفس وسائله وطرقه فلقد سار حسب تكتيك واضح وهدفه هو الاستعمار نفسه . ولكنه قضى على أعوان الاستعمار الذين حاولوا الوقوف في طريقة في أثناء المعركة ذاتها وكل في وقته . ولقد حاول الافادة من موقف الأحزاب اليسارية ، في بلاد المستعمر نفسها وهدف إلى بناء دولة حديثة وعلى أسس جديدة .

علينا هنا أن نكرر أن عمليات الكفاح المسلح أو الجهد كانت متأثرة بالقيادة وتكوينها وقوة الخصم المستعمر وإمكانياته وسياسته وطبيعة الظروف الداخلية والخارجية التى سارت فيها كل معركة . ولكنها كانت متشابهة فى مظاهر كثيرة . فكانت تسعى إلى توسيع أقليمها ، أي أنها كانت تسعى إلى تحقيق وحدة إقليمية أو جزء من هذه الوحدة . ولم تتراجع فى سبيل ذلك إلا أمام قوات تفوقها عدداً وعدة . كما أنها كانت عمليات تزيد فى اخلاصها لمبادئها وبلادها عن غيرها من العمليات (السياسية) وحظيت بشعبية كبيرة فى كل العالم العربى والاسلامى ، بل وفى جميع أنحاء العالم وسجلت أسسها فى سجل تاريخ الجهاد . ولا يمكن لأى منا إلا أن يعترف باحترامه العميق لها ولرجالها وبدرجة تفوق أي حركة للكفاح السياسى . ويتفق معنا فى هذا الشعور رجال الاستعمار أنفسهم حتى وإن عمدوا إلى النفاق .

وظاهرة أخرى تستحق الالتفات هى أن حركات الكفاح المسلح فى العالم العربى قد قضى عليها بالفشل أو أضطرت إلى الوقوف أو إلى تغيير موقفها فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميين وذلك فى الوقت الذي تطورت فيه حركات الكفاح السياسى وسارت مع الحوادث أو سايرتها . وهى ظاهرة تحتاج إلى الدراسة والتعمق والتحليل

رفضت إذن حركات الكفاح المسلح أن تقصر عملياتها داخل الحدود التى فرضها المستعمر . واختلفت فى ذلك عن عمليات الكفاح السياسى . فاذا كانت طبيعة المعركة واحدة فى كل أقليم وهى التخلص من الاحتلال والاستعمار وإذا كانت القوة الوطنية واحدة فى كل الأقاليم وهى العرب أنفسهم وإذا كان الاستعمار واحداً فى أساسه فى كل المناطق فلا يبقى لنا

إلا عناصر قليلة تعتمد عليها فى محاولة معرفة سبب هـــذا الاختلاف بين الاتجاهين ، والأساس الذى دفع بأبناء بعض الأقاليم إلى طريق الكفاح ، وأجبر الآخرين أو وجههم صوب الاقتصار على الكفاح السياسى ، وفى داخل الإطار الذي وضعه المستعمر:هناك القيادة ، وهناك طبيعة إعداد القوة التى تكافح ضد الاستعمار . والعامل الثانى يخضع للأول ، إذ أن القيادة هى المسؤولة عن إعداد الجند فى كل معركة . ونجـــد أن القيادة التى تزعمت الحركات الوطنية فى أقاليم منطقة الهلال الخصيب وإقليم وادي النيل تختلف فعلا ، فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين، عن القيادة التى سارت علىرأس قوات «الاخوان» من نجد ، وقوات السنوسيين فى برقة ، ومجاهدى الريف فى المغرب .

كانت قيادات المجاهدين قد عملت فى مناطق جبليـــة أو صحراوية ، يعشق أبناؤها الحرية ويدينون بالمساواة ، ويقدمون عليهم من يكبرهم سنا ويحترمون بذلك الآباء ، ويكبرون ما قاموا به من كفاح وجهاد من أجل العروبة والإسلام . فاعتزت هذه القيادات ، باستنادها إلى قاعدة شعبية ينصهر كل أبناء الإقليم داخلها فى شكل ديموقراطى ، وتمتاز بإيمانها وإخلاصها . وكانت حركاتهم أصيلة فى شعورها بعروبتها ومصدر هذه العروبة ، حين ربطت بينها وبين الإســلام . ودل هذا على وعيها بالدعامة الكبرى التى بنيت عليها أسس القومية العربية : «إنا أنزلناه قرآناً عربياً» ، ومرت فترة أربعة وعشرون قرن ونحن عرب، والفضل فى ذلك للقرآن. فقامت هذه الحركات المسلحة تجاهد من أجل العروبه والإســـلام ، حينما ظهرت أطماع الدول الاستعمارية ، وبرزت رؤوس بعض أعوان الاستعمار فوق أرض الوطن .

أما القيادات التى ظهرت فى منطقة الهلال الخصيب ووادى النيل فكانت

من بين من احتك بالثقافة الغربية ، وعرف أفرادها تراث أجدادهم فى المشرق عن طريق تعلمهم على أيدي رجال التبشير والمستشرقين . وكان التعليم غير ميسر إلا لأبناء الطبقة التى تقدر عليه ، وهى الطبقة الوسطى . فجاء الوضع الاجتماعى لكى يفرق بينهم وبين أبناء الجبال وأهل البادية .

تولت الطبقة الوسطى إذن قيادة حركات الكفاح السياسى فى البلاد العربية الواقعة فى منطقة الهلال الخصيب وفى منطقة وادى النيل . وكانت هذه الطبقة قد واصلت نموها فى هاتين المنطقتين منذ القرن التاسع عشر ، نتيجة للتغيرات الاقتصادية التى وقعت بعد الاحتكاك بالغرب ، والتوسع فى التجارة . وكانت الثورة الصناعية وتحسن وسائل الانتاج تدفع دول الغرب إلى البحث عن أسواق تجارية لتصدير المنتجات الصناعية التى تتزايد فى اضطراد مع الايام . ومع تكدس رؤوس الأموال فى أوربا ، وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ظهرت حركة لاستغلال رؤوس الأموال فيما وراء البحار ، وبدأ الأوربيون بالمناطق القريبة منهم ، فى شمال إفريقية وفى بلاد الشرق الأدنى ، أو فى المناطق العربية . ونعرف أن هذه العمليات الرأسمالية قد انتهت باعلان إفلاس تونس ثم مصر ، وبوضع الحجر الاقتصادى على الدولة العثمانية ولكن ما يهمنا هنا هو أن حركة تصدير رؤوس الأموال الأوربية إلى البلاد العربية قد صحبها التوسع فى فتح المدارس ، وازدياد النفوذ الأدبى ثم السياسى للبلاد الأوربية فى المناطق العربية ، ونشأت جماعات من العرب تعمل فى التجارة فى المنتجات الأوربية ، كما نشأت أجيال من أبناء العرب الذين تلقوا العلم فى المدارس الأجنبية . فازدادت الأموال فى أيدي بعض العرب الذين أصبحوا من الطبقة الوسطى ، وساعد تحسن أحوالهم على أن يدفعوا بأبنائهم إلى مواصلة التعليم فى الغرب ، وأصبحوا فى نهاية القرن التاسع عشر يكونون

طبقة اجتماعية قائمة بذاتها ، لها مقوماتها الاقتصادية ، ولونها الاجتماعى ، ومستوى معيشتها ، وخطوط تفكيرها المعروفة . ونمت مصالح هذه الطبقة ، وباستمرار ، وكان من الطبيعى أن يفكر أبناؤها فى تصريف شئون أقاليمهم أو المشاركة فيها ، وكان هذا «النمو» هو السبب الأساسى فى الاصطدام مع الادارة العثمانية. وجاءت النزعة التحررية لبناء إدارات حديثة على نسق أوربى فى البلاد العربية لكن تصل بنا إلى انقسام منطقة الشرق الأدنى العربى ، فى الحرب العالمية الأولى ، على نفسها .

وكان رجال الطبقة الوسطى من العرب هم الذين يسيطرون على مستقبل المنطقة وهم الذين يمولون الحركة العربية الاستقلالية بأموالهم . وشعروا بفشل مجهوداتهم ما دامت الحكومة مركزة فى عاصمة الدولة العثمانية. فعمدوا إلى إنشاء وحدات سياسية جديدة ، واختاروا لذلك أحد الأشراف ولكن من العرب ، وهو الشريف الحسين بن على ، لكى يقود حركتهم ويقف موقف الند للند من خليفة المسلمين . أما صغار الطبقة الوسطى فكانوا لا يملكون إلا اتباع هذا التيار الناتج عن التطورات الاجتماعية والاقتصادية فى بلادهم خاصة وأن هذا التيار كان يسمح لهم بالارتقاء على السلم الاجتماعى.

كانوا يطالبون «بالوحدة» و «الاستقلال» فى أثناء نضالهم ضد الدولة العثمانية . ولكن ما أن انتهت الحرب حتى أخذوا يطالبون بالاستقلال فقط، كل فى إقليمه . وخفتت الأصوات المنادية بالوحدة ، وكأنهم يرضون بوضع الحدود التى تقسم جسد الأمة العربية .

وأخذوا يطالبون كذلك بالدستور ، أى بالمشاركة فى إدارة شئون أقاليمهم ، ومع من ؟ مع من يحتل البلاد ، أو من يتعاون معهم. فظهرت ضحالة

خطتهم التى صرفوا سنوات طويلة فى تطبيقها ، طالبين من الاستعمار أن يزيد من إختصاصاتهم فى تصريف شئون بلادهم .

كانوا يفاوضون المستعمر ويتحدثون معه بلغته ، فأرسلوا الوفود وكأنها تستجدي ، وحينما تنمروا وغضبوا وحافظوا على كرامتهم ، إتخذوا موقف المحامى المدافع عن الحق ، وكأن الحق يحتاج إلى دفاع ونقاش وجدال فتضاربت مصالح هذه الطبقة مع أطماع الاستعمار إذ أن كل كان يهدف إلى السيطرة على الإدارة . وكان الاستعمار يستند إلى قوات الاحتلال فى الوقت الذى تسلح فيه الساسة العرب بايمانهم «بعدالة قضيتهم» ، وأظهر لهم الاستعمار قوته الحربية بل والاقتصادية ، فاضطروا إلى الالتجاء إلى الشعوب كى تؤيدهم فى خدمة القضايا . وعمدوا إلى تنظيم المظاهرات والاحتجاجات ، واتخذوا المواقف السلبية باقفال الحوانيت ورفض التعاون مع المستعمر . وذهب غضبهم إلى أبعد من ذلك ، فقطعوا الخطوط الحديدية وخربوا وسائل المواصلات والادارة العامة ، وكأنهم لا يعرفون أنهم يهدمون ممتلكاتهم . وكان المستعمر يعرف تماما مدي هذه الحركات السياسية ، كما كان قد أعد لها عدته ، فقامت الحكومات الوطنية الخاضعة له بمعارضتها ، وكلفت قوات الأمن الوطنية بتفريق المظاهرات وحراسة المنشات العامة ، وضربت القوي الوطنية الواحدة بالأخرى ، دون أن يبذل المستعمر أى جهد . أما إذا تطلب الموقف تدخل قوات الاحتلال فهى على تمام الأهبة ، برشاشاتها ومصفحاتها ومدافعها وطائراتها، وتحتل الشوارع فى لحظات ، وبكل ماتعرفه عن وسائل «الحضارة» الاستعمارية من قوة فتاكة .

وأخيراً وليس آخراً ، فيمكن للمستعمر أن يتنازل بعض الشىء لكى يحول الاحتلال أو الانتداب إلى نوع خاص من الاستقلال ، ويشرك بذلك

بعض العناصر الوطنية النامية منه فى إدارة البــلاد . وكثيراً ما كان المستعمر يضطر إلى ذلك ، نتيجــة لوقوع تغييرات هامة فى الموقف الدولى ، ونتيجة شعوره بتهديد موقفه فى هذه المستعمرات أو فى أوربا نفسها . فنرى القــادة السياسيين أو محترفى السياسة ، يصفقون لهذا النجاح ، ويدعون أنهم انتزعوا من بين براثن الأسد الاستعماري إنتزاعا، ويتولون إدارة حكوماتهم «المستقلة» ويحل الوئام بينهم وبين المستعمر ، ولا يرفضون له طلبا ، وكأنهم يعترفون له بالجميل ، على المناصب والمراكز التى يحتلونها . وتخمد أنفاس الحركة الوطنية إلى زمن ، ويصبح المستعمر حليفا من جديد وتقوم الحكومة الوطنية بكبت كل حركة تحررية شعبية ، وتحتفظ للمستعمر بمصـــالحه الاستراتيجية والاقتصادية فى الاقليم .

ولقد مرت بلاد الشرق العربى فى هذه المرحلة الأخيرة منذ سنة ١٩٣٦ ، ولكن الصدمات التى أصابت العالم العربى بعــد الحرب العالمية الثانية أجبرت العرب على التفكير من جــديد ، وعلى التعمق والتمعن ، وعرفوا بمفردهم أن بلادهم لا زالت تخضع للاستعمار ، وإن كان قد أخفى مساوءه ، واتخذ لنفسه لونا جديدا . ولم يتغير الاستعمار ، ولكنه أصبح مقنعا ، حتى يكسب الوقت ويواصل استغلال القوي الاقتصادية والامــكانيات الاستراتيجية والبشرية للبلاد العربية .

لا يمكننا أن نخلط بعد ذلك بين حركات الجهاد أو الكفاح المسلح التى ظهرت فى بعض البلاد العربية وحركات الكفاح السياسى التى تزعمت البعض الآخر . وأثرت طبيعة الوضع الاجتماعى فى منطقتى الهلال الخصيب ووادى النيل فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين فى تكتيك السياسة ، فكانت أقل المكاسب السياسية تضطــرهم إلى وقف المعركة ، والتخلص من الحركات

العميقة أو الشعبية حتى يستردوا أنفاسهم ويركزوا أنفسهم ثم يستعدوا لأخذ وثبة جديدة ، قد يحتاجون فيها مرة أخرى إلى الشعب .

ونعود مرة ثانية لكي نصر على أن حركات الكفاح السياسي للعرب فى هذه الفترة قد صرفت جل جهدها فى معركة الاستقلال أو الدستور ، وقدمتها على معركة الوحدة . وكأنها قد وافقت ، بطريق غير مباشر ، على تأييد «الوضع القائم» Status Quo أى الوضع الناتج عن التقسيم الاستعماري للأمة العربية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . ولكنها ستضطر نتيجة لتغير ظروفها وشعورها باتحاد أعدائها الاستعماريين فى تكتلات كبرى بعد الحرب العالمية الثانية إلى التفكير جديا فى العودة إلى معركة الوحدة التى كانت على كل لسان فى عام ١٩١٤ .

وكان هذا التباين الكبير بين الحركات العربية فى الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين هو الذي أملى على تقسيم الكتاب فخصصت الباب الأول لشبه الجزيرة العربية من نجد والحجاز فالمملكة العربية السعودية فاليمن، والعامل الأساسى فيها هو قوة الإخوان فى نجد بقيادة عبد العزيز بن سعود .

وخصصت الباب الثانى لبلاد الهلال الخصيب بما تشتمل عليه من العراق وسوريا ولبنان . ونجد هنا كل من الملكيات الهاشمية والحركات الجمهورية وكل من بريطانيا وفرنسا . وخصصت الباب الثالث لفلسطين التى تكالبت عليها بريطانيا والصهيونية العالمية .

أما الباب الرابع فيتناول الأوضاع فى وادي النيل بشقيه مصر والسودان، منذ نهاية الحرب العالمية الأولى حتى الحرب العالمية الثانية ، وهى الفترة التى ساعدنا فيها ، بأخطائنا، على إضاعة الوقت دون أن نمس العدو وصميم فؤاده .

أما الباب الخامس والأخير فقد خصصته لبلاد المغرب العربي الذى امتحنه الله بقوى الدول الاستعمارية اللاتينية وبتكالب كل من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا على أرض العروبة والإسلام . وسنري فيه الوثبات الوطنية المجاهدة وبداية ظهور الحركات التحررية الحديثة .

ولقد اضطررت للعودة قليلا إلى ماقبل الحرب العالمية الأولى حتى أتمكن من إكمال الموضوع وإعطاء صورة واضحة منه ، بما فى ذلك الأطماع الاستعمارية التى كانت موجودة فيه .

ولقد سرت فى دارسى على طريقة التبسيط مما يسهل على القارىء العادى قراءته ، دون أن أحرم دارسى التاريخ من مادة يستطيعون الوثوق بها ، والاعتماد عليها ، دون خوف أو ملل .

ولا زلت آمل أن يقوم كتابى هذا بسد نقص واضح فى المكتبه العربية وفى أن يساعد فى الإفادة من دروس الماضى فى المراحل القادمة من كفاحنا القومى العربى من أجل الحرية والاشتراكية والوحدة .

فالى القارىء والدارس والباحث أقدم هذا الكتاب، وما توفيقى إلا بالله.

الاسكندرية فى ٨ أكتوبر سنة ١٩٦٤ — دكتور
جلال يحيى

الباب الأول

شبه الجزيرة العربية

رغم تربع الأمير فيصل على عرش العراق وتولى الأمير عبـد الله أمارة شرقى الأردن فان مركز والدهما الملك حسين قد أصبح مهددا فى الحجاز نفسه ، وأصبح مهـدداً من قلب الجزيرة ، ومن عرب إقليم نجـد . فهل هو وعى عربى بالأخطاء المتكررة ؟ أو هى حركة إسلامية خالصة ضد الحركة العربية المتحررة ؟ أم هى غير ذلك أو مزيج من كل ذلك ؟.

الفصل الأول

نجـــد

إقليم نجد هو تلك المنطقة التى نشأت فيها الحركة الوهـابية السلفية فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، داعية إلى الرجوع بالعرب المسلمين إلى حياة السلف الصالح فى عصر الرسول (صلعم) والخلفـاء الراشدين . ولقد اصطدمت هـذه الحركة بالدولة العثمانية ثم بالقوة المصرية نتيجة لمحاولاتها تغيير الوضع القائم . واستند فقهـــاء السنة الرسميين إلى أن الوهابيين يعلنون الجهاد فى ديار الإسلام، فأحلوا قتالهم.ورغم إنكسار شوكة الوهابيين عسكريا إلا أن نفوذ آل سعود ظل يمتد فى منطقة نجد حول الرياض وظلت المبادىء الوهابية السلفية تلقى قبولا فى عقول المسلمين وقلوبهم. ولكن الإمارة السعودية تحولت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر عن هدفها الأساسى ودخلت فى ميدان المنافسات القبلية أمام غـيرها من قوي الشياخات العربية فى ذلك الوقت . تمكن آل الرشيد من احتلال الرياض نفسها ، وطردوا منها آل سعود ، الذين توجهوا شرقا حتى الكويت ، وبقوا مبعدين عن ديارهم عدة سنوات إلى أن تمكن الشاب عبد العزيز بن عبد الرحمن من استرجاع إمارة أجداده فى مطلع القرن العشرين .

١ ـ عبد العزيز ال سعود

ولد عبد العزيز آل سعود فى عام ١٨٨٠ وقاسى فى صغـــره من تشريد أسرته من إمارتهـا . وعرف أن السبب الرئيسى فى القضـاء على إمارتهم هى الدولة العثمانية التى دفعت آل الرشيد فى شمـر إلى الهجوم على الرياض . ولم ينس عبد العزيز ذلك للأتراك .

ولقد كانت حياة عبد العزيز قريبـــا من الشيخ مبارك آل الصباح فى الـكويت أكبر مساعد له على تفهم معنى السياسة وألاعيبها وخدعها وتضارب المصالح بين القوي والزعامات الوطنية من ناحية، وبينها وبين القوى الاستعمارية من ناحية أخري . فرأي محـاولات الشيخ مبارك آل الصباح للتحرر من النفوذ العثمانى وعقده معاهدة مع السلطات البريطانية فى الهند يضع بها مشيخته تحت الحماية الأجنبية . وكان الشيخ مبارك قـد بدأ حياته السياسية باغتصاب المشيخة من أخويه بعد أن قتلهما ، وحينما حاولت السلطات العثمانية التدخل فى الأمر وضع الشيخ مبارك نفسه ومشيخته تحت الحماية البريطانية . وكانت كل من ألمانيا والروسيا تحاول جاهدة وضع أقدامهـا فى منطقة الخليج العربى . ولكن الشيخ مبارك استعان ببريطانيا عليهما. ونشأت بهذه الطريقة قوة جديدة تعارض الدولة العثمانية ، وتحت الحماية البريطانية ، على الخليج العربى . وتلقى عبد العزيز آل سعود أول دروس له فى السياسة على أيدى رجالها .

وكان عبد العزيز آل سعود يرغب فى الانتقام من آل الرشيد الذين استولوا على إمارة أجداده . وكان ابن الرشيد يمثل السياسة العثمانية فى وسط الجزيرة العربية أصدق تمثيل . فكان هذا عاملا أساسيا فى تطابق المصالح بين آل الصباح وآل السعود . وما أن بلغ الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن سن العشرين حتى ساعده الشيخ مبارك ببعض الأموال والرجال ليتمكن من مناوءة آل الرشيد وإبعادهم. ولكن عبد العزيز آل سعود تمكن بهذه المجموعة البسيطة وبتلك الحفنة من الرجال الذين التفوا حوله من الاستيلاء على الرياض فى سنة ١٩٠١ . وعادت عاصمة نجد إلى ولائها لآل سعود .

وحاولت الدولة العثمانية التدخل فى الأمر ، خاصة وأن بعض أفراد

أسرة آل صباح كانوا قد التجئوا إليها ضد الشيخ مبارك ـ ولكن هـــذه المحاولة فشلت . وذهب هؤلاء الأفراد إلى آل الرشيـد الذى بدأ فى إعداد قواته للهجوم بها على منطقة الكويت معتقدا أنهـا المركز الذي يمون السعود فى نجد . وتمكن ابن الرشيد من هزيمة قوات الشيخ مبارك ولكنه عجز عن احتلال المنطقة نظرا لوقوف إحدى البوارج الحربيةالبريطانية أمام الساحل. فاضطر ابن الرشيد إلى التقهقر وانتهز ابن السعود هذه الفرصة لاحتلالعنيزة وتوسيع حدود إمارته . واضطرتالدولة العثمانية إلى إرسال المدد العسكري إلى ابن الرشيد لكى يقضى على هـؤلاء المشايخ المتمردين عليها ، فأرسلت القوات والأسلحة والمدافع والذخائر . ولـكن رجال عبد العزيز آل سعود تمكنوا بسيوفهم وحرابهم وقوة إيمانهم من هزيمة هذه القوات وأخذوا منها غنائم حربية هامة فى موقعـة البكيرية . وكانت هذه نقطة فاصـلة فى تاريخ شبه الجزيرة التى تقلص منها النفوذ العثمانى وسلطة الموالين له شمـالا فى إقليم شمر بعد قتل الأمير ابن متعب فى ١٢ أبريل سنة ١٩٠٦ . وأصبح مركـز عبد العزيز آل سعود قويا فى منطقة نجد .

وجاءت ثورة تركيا الفتاة عام ١٩٠٨ وحاول الشيخ مبارك آل الصباح الاستيلاء على العراق وفصله عن جسد الدولة العثمانية وإقامة إدارة عربية فيه وكانت هذه الخطة تتمشى مع الأطماع الاستعمارية للسلطات البريطانية فى الهند تلك السلطات التى عملت على مد نفوذها فى منطقة الخليج العربى هادفة البصرة ومنها شمالا حتى بغداد . ولكن الشيخ مبارك فشل فى هذه المحاولة إذا لم يكن له من الوسائل المادية والمعنوية ما يسمح له بتنفيذها .

ورغم أن رجال تركيا الفتاة قد أعدوا برامجا للاصلاح ، إلا أن العرب

تأكدوا من أنهم لن يتمكنوا من الحصول على استقلالهم فى عهد جمعية الاصلاح والترقى ، خاصة وأنها عملت على التوحيد بين العناصر والشعوب التى تسكن الدولة فى الوقت الذى حاول فيه العرب الانفصال بأقاليمهم خارج محيط هذه الدولة . ونظر عبد العزيز إلى تصرفات الثورة التركية نظرة الشك خاصة وأنها عينت الشريف الحسين بن على الهاشمى فى الحجاز . وكان السعوديون يضمرون العداء للأشراف منذ عهد العمليات الحربية التى وقعت فى الحجاز فى أوائل القرن التاسع عشر . ورأي عبد العزيز فى هذا التعيين تدعيما لنفوذ الأتراك فى البلاد العربية وربط بينه وبين تقوية الحاميات العثمانية فى أطراف شبه الجزيرة .

وكانت بريطانيا تواصل من ناحية أخري عملية تطويقها للبلاد العربية ناشرة بذلك نفوذها من الخليج العربى ومن عدن ، بل ومن مصر أيضا . فوجد عبد العزيز آل سعود أن هناك دائرتين تعملان على تطويقه والحد من خططه ، الأولى عثمانية والثانية بريطانية . وكان عبد العزيز فى حاجة إلى مخرج له على البحر ، وكان أقرب ساحل هو الخليج العربى الذى تفوق فيه النفوذ البريطانى نظرا لوجود الأسطول ووجود أعوان البريطانيين مثل الشيخ مبارك . ولم يكن فى قدرة الأتراك أن يمنحوا عبد العزيز مثل هذا المخرج ويؤمنوه له أمام عداء البريطانيين ولكن كان فى استطاعة السلطات البريطانية أن تترك لعبد العزيز نافذة تطل على الخارج فى هذه المنطقة رغم معارضة العثمانيين .

فاتصل عبد العزيز بالشيخ مبارك وطلب منه سنة ١٩١١ أن يحاول معرفة نيات حلفائه البريطانيين تجاهه . ولم تكن السلطات البريطانية تعارض فى

امتداد النفوذ السعودى ، ما دام هذا النفوذ يبعد السلطة العثمانية من سواحل الخليج ، وما دامت مصالح ابن السعود لا تتعارض مع مصالحهم ومصالح حلفائهم ، وخاصة فى منطقة الكويت . فأخذ عبد العزيز آل سعود فى الاستعداد واتجهت أنظاره إلى منطقة الاحساء ، وجاءت الحرب الايطالية التركية سنة ١٩١١ثم الحرب البلقانية سنة١٩١٢لكى تسهل له خطة العمل.

اضطرت الدولة العثمانية إلى سحب جزء من حامياتها المتفرقة شرقا وغربا لكى تواجه بها هجوم البلغار على القسطنطينية ، وعلم عبد العزيز أن عدد حامية الهفوف (عاصمة الاحساء) قد انخفض إلى النصف . ولما كان الأهالى لا يقبلون حكم الأتراك لمنطقتهم إلا مكرهين، وكان بعض الوهابيين يعيشون فيما بينهم ، فكان من السهل انتزاع الأحساء من أيدي المتصرف العثمانى .

فأعد عبد العزيز قواته وسار بها مسرعا ودون توقف ، متجها صوب الهفوف . فبلغها بعد ثلاثة أيام . وتسلق بعض رجاله أسواق المدينة وفتحوا الأبواب فدخلتها المقدمة التى تمكنت من الاستيلاء على الأبراج والقلعة . وفى الصباح دخلت بقية قوات السعوديين إلى المدينة ، وحاصرت رجال الحامية الذين اعتصموا بالمسجد . وبعد مفاوضات مع المتصرف ، قبل عبد العزيز أن يخرج الجنود العثمانيون بأسلحتهم وأسرهم وأمتعتهم عائدين إلى البصرة . ثم احتل السعوديون مينائى القطيف وعقير تخضع لهم كل الإقليم . وبطبيعة الحال لم تتحرك بريطانيا أمام توسع السعوديين على الخليج العربى. أماالحكومة العثمانية فقد شعرت بعجزها عن إعادة إقليم الإحساء إلى إدارتها المباشرة ، وحاولت أن تكسب ود عبد العزيز بن سعود ، فاعترفت له بالأمر الواقع وعقدت معه اتفاقية اعترفت فيها به أميراً على نجد وملحقاتها ، ومنحته الوسام العثمانى .

وكان ضم الاحساء إلى نجد فى عام ١٩١٣ سببا فى ازدياد نفوذ عبدالعزيز آل سعود من الناحية الأدبية فى بقية العالم العربى ، وانتهت حالة العزلة التى عاشها وسط الجزيرة بحصوله على منفذ بحري هام . ولم يدر ابن سعود ولا بريطانيا فى هذا الوقت ما تشتمل على أرض الأحساء من كنوز ستغير تاريخ الشرق العربى بعد سنوات .

٢ ـ انشاء الاخوان :

أعلنت الحرب العالمية الأولى واشتركت فيها الدولة العثمانية وكل أقاليمها العربية فى وقت لم يكن فيه عبد العزيز بن سعود فى وضع يسمح له بالمشاركة مشاركة إيجابية فى مجهوداتها . كانت مبادىء الاستقلال العربى عن الدولة العثمانية قد انتشرت فى كل مكان . نتيجة لنشاط الجمعيات الوطنية وخاصة جمعيتى الفتاة والعهد . وكان تحرير الأقاليم السورية وبلاد العراق وإرجاعها إلى الحكم العربى أمنيةتداعب قادة العرب وزعمائهم. ولكن عبد العزيز فكر فى الأمر ووجد أن خروجه على رأس رجاله من وسط الجزيرة إلى سوريا أو العراق قد يساعد على إنشاء حكم عربى فى هذه الأقاليم ، ولكنه لن يحمل فائدة أساسية للجزيرة العربية نفسها . ستتجدد دماء هذه الأقاليم وستقوى على تغيير وضعها السياسى وربما الاقتصادي ، ولكن نجدا ستظل موطنا لقبائل منقسمة غير ثابتة وفى وضع اجتماعى متأخر . فصمم على البدء باقليمه وعمل على بنائه بشكل يسمح له فيما بعد بمشاركة بقية البلاد العربية حياتها وكفاحها .

كان رعايا عبد العزيز آل سعود ينقسمون إلى قسمين : الأول هم سكان القرى والمدن ، والثانى هم سكان البادية . وإذا كان فى استطاعته أن يثق فى

ولاء أبناء القسم الأول ، فان تطبيق النظام على البادية كان أمرا صعبا ، ما داموا يعيشون على طريقة العصور البائدة . كان رجال القبائل فى حركة دائمة ويؤمنون بأن حياة البدو المتنقلين هى أشرف حياة وأنبلها وكانوا يعتزون بأنسابهم التى يرجعون بها إلى آدم ، ويعتزون بحريتهم وبسيوفهم وكانوا فى حقيقة الأمر يقنعون بخيامهم وخيولهم ونسائهم ، وحريتهم ، ولا يعترفون بكثير من الالتزامات التى تفرضها المجتمعات على الأفراد ،وكثيرا ما أثرت فيهم الفصاحة والخطابة حينما تمس عواطفهم فيتخذون من المواقف ما قد يدفع بهم إلى الحرب ، ولكنهم عجزوا ، نتيجة لتحكيمهم العواطف عن القيام بمجهودات متواصلة فى طريق بعينه . وقد قاسى عبد العزيز نفسه منهم كمحاربين وكرعايا ، إذ كانوا لايتورعون فى حالات خاصة عن الانضمام إلى العدو أو الاقتصار من المعركة على أخذ الأسلاب. وكم من مرة اضطر فيها إلى عقابهم . ولكن هذا العقاب لم يعط إلا نتائج مؤقتة ، ولم يغير شيئا من عاداتهم أو أخلاقهم .

ولقد وجد عبد العزيز أنه من الواجب عليه أن يعمل على تغيير ظروف حياتهم تغييراً أساسيا ، وفكر فى تغيير حالة البداوة والتنقل بتثبيتهم حول عيون المياه ، وإغرائهم على العمل فى الفلاحة ، أى تغييرهم من مجتمع الرعى إلى مجتمع الزراعة ، شيئا فشيئا . فاختار لذلك بعض عيون الماء الثانوية أو التى تبعد عن طرق القوافل الرئيسية ، وعمل على تحسين وسائل الرى وزيادة مساحة الأرض المزروعة فيها ، إغراء للقبائل المحيطة على التوطن والعمل المثمر . وستصبح هذه (المستعمرات) مع مضى الوقت مراكز لتجنيد قوات تدين بالولاء لابن سعود ، وتعود بعد المعارك لكى تواصل عملها فى أراضيها

فيمكن لسيد الجزيرة أن يصل بالتالى إلى تغيير نوع القـوات المحـاربة التى يعتمد عليها فى بناء دولته العربية .

ولكن الحالة الفكرية ، أو المستوي الحضاري الذي كانت تعيشه نجد فى هذا الوقت لم تكن لتسمح لعبد العزيز بالقيام بهذا المشروع إلا إذا ما استند إلى الاسلام كدعامة أساسية . فلتكن هـذه المستعمرات إذن زوايا سعودية يرتبط فيها الأهالى بوحدة فى التكوين ووحدة فى الهدف . سيتعلمون أنهم يجـاهدون فى سبيل الله وتحت قيـادة موحدة يعترفون بهـا ويحترمونها ، ويتركون جانبا عصبياتهم القبلية وولاءهم للنسب . فيتمكن ابن سعود إذن من توجيـه حب العرب للحرب إلى صـالح المجموع ويبث فى العرب حب وطن محدد ، مبتدئا بهذه البقع الخضراء التى ستنتشر فى الصحراء طـولا وعرضا .

وكان الطريق مليئا بالعقبات ، خاصة وأن ابن سعود كان يهدف إلى مهاجمة الوضع الاجتماعى فى أسسه الاقتصادية وفى طبيعة تكوينه . وجاءت العقبات من اعتزاز العرب بطريقة معيشتهم ، وجاءت العقبة الأساسية من الزعامات والقيادات التى خشيت من ضياع امتيازاتها . وترأس المعارضة آل سعود أنفسهم .

كان أفراد هذه الأسرة هم المشرفون على الدعوة الوهابية التى نظمت نفسها فى شكل هرمى . فاحتفظـوا لأنفسهم بالزعـامة أو القيـادة ، وكانت الأوامر والارشادات ـ تتفرع منهم عن طريق القيادات الثانوية إلى أن تصل إلى القبائل . وكانت امتيازاتهم تعتمد من ناحية على المذهب الوهابى ومن ناحية أخرى على السيف أداة الجهاد. فرأو فى إقامة هذه (المستعمرات) أداة

لاقامة قوة حديثة لا تدين بالولاء إلا لعبد العزيز ، رغم سيرها على الطريقة الوهابية . وخشوا من أن يؤدى هذا المشروع إلى أن يفقدوا كل ما لهم من كلمة . ولكن عبد العزيز أفهمهم أنها معسكرات دائمة ثابتة تعمل من أجل الاسلام . ونجح فى الحصول على تأييد والده الامام عبد العزيز أمام التجربة التى قد تثبت له الأيام فشلها .

فبدأ عبد العزيز بواحة الأرتاوية الواقعة بين نجد والاحساء ، وجهزها برجاله المخلصين وجعلها مركزاً لإقامة (الاخوان) ، الذين حصلوا على ملكية أراضيهم وأصبحوا يكونون مجتمعاً صغيراً يلتف حول المسجد ويقوم بالزراعة ، ويحتفظ كل فرد منهم فى منزلة الصغير بسلاحه وبطلقات الرصاص ويعتبر نفسه مجاهداً فى سبيل العروبة والاسلام ولكن تحت قيادة عبد العزيز بن الرحمن ولا يعمل إلا بأوامر صريحة منه .

وأخذ عبد العزيز فى الاهتمام بهذا المجتمع الجديد . وكثيراً ما قام بزيارته وشجع الاخوان على العمل . ثم عهد بقيادة هذه المنطقة إلى الشيخ الدويش وهو من الرجال المعروفين بغيرتهم على الاسلام وبحميتهم فى الدفاع عن العروبة . وأثبت بذلك أن الضغائن والانقسامات القبلية قد انتهت وحلت محلها سلطة مركزية تعتمد على نظام الدولة الحديثة وشعور المواطن بخضوعه لسلطة مركزية تعطيه حقوقه وتتطلب منه أن يقدم الإلتزامات .

ووجد عبد العزيز أن علماء نجد يعارضون المشروع ويحاولون القضاء عليه إذ أن هذا النظام الجديد يجعل منهم مجرد موظفى دولة ، دون حول ولا طول على الرعية التى تدخل فى هذا البناء ، ويتزايد عددها باستمرار . وكان هذا الصراع منطقى بين سلطة الدولة أو سلطة الملكية الناشئة وبين

من يعيشون على بقايا مجتمع إقطاعي ويرتزقون منه . فعمل ابن سعود على توجيه مجهوداتهم وانظارهم صوب خطر آخر لا يمكنهم أن يتقاعسوا عنه أو يقدمون غيره عليه ، ألا وهو خطر نمو سلطة الأشراف الهاشميين مرة جديدة في بلاد الحجاز وتحكمهم في الحرمين الشريفين . فلم يتمكنوا من التراجع مادام هناك منفس لنشاطهم ، وميدان لعملهم .

وواصل عبد العزيز مراعاته وموالاته للاخوان وللنظام الجديد الذي أنشأه لهم حتى بلغ عددهم في ظرف أربع سنوات خمسين ألفا . وأصبح له من الاخوان مايسمح له بالسيطرة على كل الجزيرة العربية ، معتمداً على قوات منظمة تعرف معنى الطاعة ولا تحارب لمجرد الحصول على الغنائم . وكانت ظروف الحرب قد غيرت من القوي الموجودة في شبه الجزيرة العربية ومن موقف هذه القوي الواحدة من الأخرى ، وعلاقات كل منها بالدول العظمى ذات المصالح في المنطقة .

٣ ـ الحرب والحياد :ـ

نشبت الحرب العالمية الأولى واضطر عبد العزيز ال سعود إلى اختيار موقف له منها ومن القوى المتصارعة في الميدان . كان عليه أن يختار بين الحياد وبين الاشتباك . أما الحياد فكان موقفاً يسمح له بالاحتفاظ بقواته النامية ولكنه سيدفع بالقوي المتحاربة إلى محاولة السيطرة على أقليمه وضمه اليها بالقوة ، ولن يجد عبد العزيز في هذه الحالة من يدافع عنه أو يعينه في الحرب المجوعية عليه . وأما الاشتباك فكان يضطره إلى بذل المجهودات واضعاف قوته الناشئة . ولم يكن الاشتراك في الحرب أمر مضمون العاقبة ، كما كان من الصعب معرفة الجانب الذي ستكلل مجهوداته بالنصر .

رأي عبد العزيز أن الدولة العثمانية هى دولة الخلافة الاسلامية ، ولكنها كانت خلافة تركية غير عربية ، وكان لايوافق على الحالة التى وصلت اليها حياة المسلمين فى ذلك العصر . وكانت الدولة العثمانية تعتمد إعتماداً كلياً على ال الرشيد فى شمر ، وهم اعداؤه الألداء . ورأى فى بقاء الشريف حسين بن على فى الحجاز خطراً ثانيا يهدد دولته فى الرياض ويهدد طريقته فى الحياة الاسلامية .

وشعر بضرورة القضاء على نفوذ الهاشميين من الأراضى المقدسة حتى يتمكن من تطهير الحياة الإسلامية والعودة بها إلى حياة السلف الصالح . فكان هذا عاملا ثانيا يدفع بعبد العزيز ال سعود ضد الدولة العثمانية ، وان كانت دولة الخلافة الاسلامية .

ووجد أمير نجد خطورة البقاء وحيداً فى ميدان المعركة ، فعزم على الميل إلى جانب بريطانيا التى إزداد نفوذها فى الخليج العربى وأرسلت إحدى حملاتها العسكرية إلى البصرة وجنوب العراق . وأراد أن يتخذ من هذا التحالف عامة لبناء سياسة وطنية خاصة به ، وإسلامية فى نفس الوقت ، سياسة تهدف إلى تقليم أظافر النفوذ التركى فى شبه الجزيرة العربية بالقضاء على ال الرشيد ، وتهدف من ناحية أخرى على القضاء على الاستقراطية الإسلامية ، أرستقراطية الهاشميين التى تعتمد على نسبها ودمائها فى حكم المسلمين ، خاصة وأن السعوديين كانوا لايعترفون لعربى بفضل على عجمى الا بالتقوي ، وهو ما يتعارض تمام المعارضة مع الاستناد إلى الحسب والنسب .

وسعت بريطانيا إلى الاتصال بعبد العزيز ال سعود فى نفس الوقت الذي نشط فيه رجالها لجذب العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا ودولتى الوسط .

فأرسلت شكسبير ، قنصلها فى الخليج العربى إلى الرياض ، وبذل هذا القنصل مجهوده لكى يدفع بسيد نجد إلى إعلان الحرب على تركيا . ولقد اقترح عليه عبد العزيز أن تقوم قوات نجد باحتلال الحجاز وطرد الاشراف منها ، خاصة وأنه لم يعلم بالمحادثات التى كانت قد بدأت بين الشريف حسين وبين السير هنري مكماهون . ولكن شكسبير حذره من الهجوم على الحجاز . فرأي عبد العزيز خطورة إعلانه الحرب على دولة الخلافة الاسلامية ، وهو المسلم الأصيـل .

وفى أثناء هذه المفاوضات قام ابن الرشيد بارسال حملة ضد نجد واعتمد فيها على مساعدات من الدولة العثمانية ووقعت معركة بين الطرفين فى جراب، خسر فيها كل من الطرفين خسارة فادحة ، خاصة وان الحملة كانت مزودة بالمدفعية . ولقد قتل شكسبير نفسه فى هذه المعركة . فتأكد ابن سعود من استحالة الانضمام إلى جانب تركيا ، ومن صعوبة البقاء منعزلا مادام ابن الرشيد ومعه النفوذ العثمانى ، يسعيان إلى القضاء عليه .

لما أن اتصل به كوكس ، الذي حل محل شكسبير فى تمثيل بريطانيا فى الخليج العربى حتى وافق على مقابلته . وجرت بينهما مباحثات فى عقير إنتهت بعقد اتفاقية اعترفت فيها بريطانيا باستقلال نجد وملحقاتها ، وتعهد فيها ابن سعود بالبقاء على الحياد المشرب بالود تجاه بريطانيا ، إذ أنه تعاهد بمصادقة من يصادقها ومعاداه من يعاديها . ولكنه لم يتعهد بمحاربة الدولة العثمانية فى الوقت الذي تعهدت فيه بريطانيا بالدفاع عنه وإمداده بالأسلحـة والذخائر فى حالة الهجوم على أراضيه . وتبرعت بريطانيا باعطائه خمسة آلاف جنيـــه سنويا ، وتعهد عبد العزيز عن نفسه وورثته من بعده ألا يتنازل بالبيع أو الرهن أو الهبة بأي جزء من أراضيه لدولة أخري ، إلا بموافقة الحكومة البريطانيـة .

ويظهر من هذه الاتفاقية جهل عبد العزيز بن سعود بالقانون الدولى وعدم إستناده إلى مستشارين مخلصين ، إذ أن هذه المادة كانت بمثابة وضع بلادة تحت الحماية البريطانية .

وعلى أي حال فقد أمن عبد العزيز بهذه الاتفاقية على ممتلكاته ضد أى خطر خارجى واعتقد أنها تسمح له بمهاجمة الحجاز وانتزاعه من سلطة الشريف حسين ، ولكنه جهل بقية خطوط الدسائس البريطانية فى البلاد العربية . فسرعان ما يعلن الحسين الثورة العربية ضد الدولة العثمانية ويتعاون تعاونا وثيقا مع قوات الحلفاء فى الشرق الأدنى . وحينئذ يعلم ابن سعود أن خصمه قد أصبح حليف بريطانيا الأول فى المنطقة ، وأنه قد قيد نفسه بمصادقته مادام الحسين صديقا لبريطانيا . ولكن هذه الصداقة كانت على غير أساس ، إذ أنها كانت تتعارض مع طبيعة القوى الموجودة فى المنطقة .

٤ — النزاع مع الحسين :

كان إعلان الشريف حسين للثورة على الاتراك من الأراضى المقدسة ، ثم إعلانه نفسه ملكا على البلاد العربية أكبر تهديد لإستقلال نجد . ورأى عبد العزيز بن سعود ألا حق للحسين للتحدث باسم العرب جميعا ، فما بالك باعلان نفسه ملكا عليهم ، ودون أن يحصل منهم على البيعة . وكان هذا بداية للشقاق السياسى بين القوتين الناشئتين فى شبه الجزيرة العربية فى ذلك الوقت: قوة السعوديين ، وقوة الأشراف الهاشميين ، وزاد الطين بله أن الحسين بن على طلب من عبد العزيز أن يمده بالرجال لمقاتلة الأتراك ، ثم زادت مخاوف عبد العزيز حين استلم مبلغ الخمسة آلاف جنيه ، التى وعدته بريطانيا بها من (ملك الحجاز) ، مما وضعه فى مركز التابع من الحسين ، وهو مركز لا يرضى عنه .

ورأي عبد العزيز أنه يعتمد على «مذهب» وعلى «اخوان» يحاربون عن عقيدة في الوقت الذى يعتمد فيه الحسين على مجندين من المرتزقة يعملون فى خدمة الامبراطورية البريطانية ، لقاء رواتب ، فكان من الطبيعى أن تصطدم هاتين القوتين ، رغم تحالف كل منهما مع بريطانيا ، نتيجة لاختلاف تكوين واتجاه كل منهما عن الأخرى . وتطلب الأمر تغيير الموقف السياسى ، أو نشوء الادعاءات لكى تتخذ ذريعة لاعلان التصادم .

وسرعان ما أظهر السعوديون نزعتهم الاستقلالية أمام القوة الجديدة التى عمل الحسين جاهدا على بنائها ، ووقع النزاع فى منطقة التخوم أو الحدود بينها وعلى واحة الخرمة .

عمل الحسين على إخضاع هذه الواحة لسلطة الحجاز رغم دخولها فى نطاق الأراضى التابعة للسعوديين ، ووجود كثير من الوهابيين فيها وكانت هذه الواحة سوقا لبيع منتجات إقليم نجد ومواشيها إلى أهالى الحجاز . فما أن أرسل الحسين قواته لاحتلالها حتى صمم عبد العزيز بن سعود على إعادتها إلى نجد وجعلها حدا يوقف عنده (توسع الدولة الحجازية) فى ممتلكاته .

واحتاج عبد العزيز آل سعود إلى منفس تخرج منه نزعة أهل نجد لنشر المذهب الوهابى فى الاقاليم العربية المجاورة . كما شعر بضرورة إظهار قوته للسياسة البريطانية ووضعها أمام الأمر الواقع وإقناعها بأن له من المقومات التى تسمح له بالسيطرة على البلاد العربية ما لايتوفر لدى الهاشميين . فصمم على محاربة القوات الحجازية وأعد قواته وسار بها متجها صوب الغرب ، صوب أراضى الحسين .

ولقد حاول فيلبى ، ممثل السلطات البريطانية فى الهند لدي ابن سعود أن

يثنيه عن عزمه ، ويذكره باتفاقية العقير والتزاماتها . ولكن عبد العزيز أصر على حقوقه فى منطقة الخـــرمة وعلى التزام بريطانيا بمساعدته إذا ما هاجمته قوات أجنبية .

ووقعت الموقعة الفاصلة فى تربة بين قوات الملك حسين وبين رجال الأخوان وسقط على أرض المعركة خمسة آلاف قتيل وكان النصر فى جانب مقاتلى نجد الذين استولوا على غنائم حربية من بنادق ومدافع ورشاشات كثيرة . ونجحوا بذلك فى كسر قوة الحسين الرئيسية فى الحجاز ، فى الوقت الذي تشتتت فيه بقية قواته فى الشمال وأصبحت القوة الرئيسية فى شبه الجزيرة العربية هى قوة نجد التى انفتح الطريق أمامها ، دون مقاومة إلى مكة والمدينة .

وقعت هذه الموقعة سنة ١٩١٩ وفى الوقت الذي دارت فيه المفاوضات بين الحلفاء وبين الهاشميين لتسوية مشاكل ما بعد الحرب . وحاولت بريطانيا أن تجد فى إتفاقها مع الأمير فيصل ما يخرجها من تضارب وعودها ، بين استقلال العرب الذى تعهدا به للشريف حسين ، وإتفاقية سايكس بيكو التى إتفقوا فيها مع حلفائهم الاستعماريين على تقسيم البلاد العـــربية ، وبين هذه الوعود نفسها وتصريح بلفور الذى هدف إلى إدخال مشردي اليهود ، أو من يدعون التشرد ، أرض فلسطين العربية وإقطاعهم إياها . احتاجت بريطانيا إذن إلى معاونة الهاشميين السياسية لإخــــراجها من ورطتها والموافقة ، ولو بشكل مقنع ، على مصالحها الاستعمارية فى البـلاد العربية . فلم يكن من السهل إذن على بريطانيا أن تتخلى عن الهاشميين ، وخاصة أمام قوة نجد الناشئة التى تستند إلى حد السيف لتغيير الوضع القائم ، ولبناء دولة تعتمد على الإسلام .

اضطرت بريطانيا إذن إلى الوقوف إلى جانب الحجاز فى هـذا الوقت متذرعة فى ذلك بوفائها بتعهداتها الدولية !! وطلبت إلى عبد العزيز آل سعود أن يترك تربة والخرمة أرضاً خلاء ، حتى تتم تسوية مشكلات ما بعد الحرب والحدود ، وأن يعـــود فى الحال برحاله إلى نجد . وهددته بأن الاتفاقية البريطانية السعودية (اتفاقية العقير) ستصبح لاغية فى حالة رفضه تنفيذ هذا الطلب ، بل وبأنها ستتخذ التدابير اللازمة ضد هذه الحركة المعتدية على الحجاز . أما فى حالة انسحاب أهل نجد فان بريطانيـا ستقدر لعبد العزيز بن سعود عمله ، وتعتبره دليلا على الود والولاء (لأنها تعد الجميع أصدقاء لهـا وتأسف أشد الأسف لمـا وقع بين أصدقائها ، سواء أكان النصر فى جانبكم أو فى جانب الحسين) .

فوضح الأمر أمام عبد العزيز آل سعود : بريطانيا تتدخل وتطلب منه أن ينفذ ويثبت وده وولاءه ، وإلا فان بريطانيا لن تتعهد بمساعدته على الاحتفاظ باستقلاله أمام غزو أجنبى!! إن اتفاقية العقير قد وضعته فى موضع التابع لبريطانيا ، ولهذه الدولة أن تؤيد من تشاء ، وتقدم من تختار من بين العرب ، خاصة وأن دخول السعوديين الحجاز كان عملية هجومية لادفاعية . وكانت وحدات الأسطول البريطانى راسية فى جدة وينبع والعقبة ، والفرق الهندية والاسترالية قريبة فى مصر وفلسطين ، ووحدات سلاح الطيران البريطانى تحلق فى السماء .

فاضطر عبد العزيز آل سعود إلى الانسحاب بقواته من تربة صوب نجد ولكن العداء أصبح معلنا بينه وبين الملك حسين . وعمل عبد العزيز على تدعيم مركزه فى وسط الجزيرة نفسها . واتخذ موقف المدافع عن بلاده حتى تضمن

مساعدة بريطانيا أو حيادها فى العمليات . ووجه مجهوده ضد حكومة آل الرشيد فى حائل (إقليم شمر) فى الشمال . وساعدته الغنائم التى استولى عليها فى تربة ، وتخلى الدولة العثمانية عن آل الرشيد ، على الانتصار ، وعلى ضم هذه المنطقة إلى ممتلكاته ، وأعلن نفسه سلطاناً على نجـــد وملحقاتها . وارتفعت أسهمه فى أعين العرب وأهميته فى نظر بريطانيا نفسها ، ووصل نجد إلى أوج عظمته، ولكن عبد العزيز اضطر إلى الانتظار اضطراراً ، حتى تحين الفرصة ، ويتغير موقف القوى الموجودة فى الميدان الواحدة من الأخرى، وظلت أنظاره متجهة إلى الحجاز .

الفصل الثانى

الحجاز

فى الوقت الذى زادت فيه قوة آل سعود فى الحجاز ، نتيجة للمكاسب المادية والمعنوية التى حصل عليها ، مستندا إلى تكوين قواته وتدعيم إمكانياته، قلت فيه قوة الملك حسين فى الحجاز وفى كل العالم العربى والاسلامى ، بل وانخفضت أسهمه لدى حلفائه البريطانيين . وكانت هذه هى الفرصة التى انتظرها عبد العزيز بن عبد الرحمن للقيام بدوره فى تاريخ الشرق العربى ، ولكى يحرر نفسه من الارتباطات التى حددت من حرية عمله أمام الامبراطورية البريطانية

١ ـ انعزال الحسين بن على :

كان الحسين بن على قد استند من الناحية السياسية إلى الوعود التى أعطتها له بريطانيا فى أثناء الحرب العالمية ، ومن الناحية العسكرية إلى المعونة المادية التى زودته بها بريطانيا وبلغت ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه فى كل عام ، وكذلك إلى الخبرة الفنية البريطانية والفرنسية لتنظيم قواته ، واستند من الناحية المعنوية إلى شرف نسبه وسمو مركز أسرته بين العرب. فاتخذ موقف المتحدث الرسمى باسم العرب ، والممثل الفعلى لآمال القومية العربية وأمانيها . ولكن هذه الدعامات التى استند إليها الحسين بن على كانت تحمل فى نفس الوقت عوامل هدمه وإخراجه من ميدان المعركة .

فنجد من الناحية السياسية أن بريطانيا قد أعطت وعودا تضاربت مع الوعود التى قطعتها على نفسها حياله. فاضطر الحسين إلى المطالبة بتنفيذ التعهدات

البريطانية ولكنه لم يجـد من حكومة لندن إلا المراوغة ومحـاولة التملص بل وجر القضية العربية فى الجزئيات حتى يضيع هيكلها العام . واتخـــذ موقف المحامى المدافع عن القضية العربية وأخذ فى اتهام البريطانيين علانية بنكث العهود والوعود ، فتغير جو الود والصفاء الذي ساد بينه وبين حكومة لندن فى أثنـاء الحرب ، ورءوا أنه لا يسهل عليهم أمر الخروج من المـأزق الذي تورطوا فيه ، أو بعبارة أخرى تضاربت مصالح الحسين بن على فى بناء دولة عربية موحدة فى الشرق الأدنى مع الأطماع الاستعمارية البريطانية ـ الفرنسية فى هذه المنطقة التى تمتاز بأهميتها الاقتصادية ، وتظهر خطورتها الاستراتيجية واضحة على خريطة العالم . ولما كانت الدول الاستعمارية الغربية قد صممت على التحكم فى البـلاد العربية وكانت تشعر بضعف العرب المادى عن انتزاع حقوقهم فان الاستعماريين لم يفكروا فى مقابلة طلباته حتى فى منتصف الطريق، وذهبت مجهودات الكولونيل لورنس لإنشاء كتلة عربية أو اتحاد عربى برئاسة كل من الملك فيصل فى العراق والأمير عبد الله فى عمـــان والكل تحت رئاسة والدهما فى الحجـاز ، والمجموع يدار ويحرك بأوامر وتوجيهات من لندن ، ذهبت كلها أدراج الرياح . ونجـد أن ونستون تشرشل لم يحجم عن إظهار غيرته من الكولونيل لورنس صديق الحسين ، أما لويد جورج فذهب به الأمر إلى نقد تصرفات هذا الكولونيل ومواقفه .

وفى نفس الوقت نجد أن العالم العربى كان قد بدأ يشعر بانفصال قيادته الهاشمية عن قاعدة الوطنيين المكافحين . وكانت طلبات السوريين لفيصل باعلان الحرب على فرنسا حين شرعت فى احتـلال بلادهم تدل على هذا الانشقاق ، الذي تبلور فى معركة ميسلون ، حين رفض يوسف العظمة أوامر فيصـــل بعدم التعرض للفرنسيين ، ووقع مدافعا مجاهدا ، بل شهيدا من شهداء القومية العربية فى الميدان . فكان من الطبيعى أن يأخذ الوطنيون العرب على القيادة

الهاشمية إقتصارها على المدافعة والمرافعة عن قضية الوحدة والحرية التي لا تحتاج إلا للدماء لكسبها . ففشل الحسين اذن فى ارضاء القاعدة الوطنية فى الوقت الذي أغضب فيه أصدقاءه البريطانيين .

أما من الناحية العسكرية فان بريطانيا لم تكن مستعدة لمواصلة دفع المعونة للحسين ولأبنائه ، فى الوقت الذى كان يهددهم فيه فى الشام وفى العراق ، ويهدد حلفاءهم الفرنسيين فى سوريا . لقد وصلت بريطانيا إلى أغراضها واستغلت العرب فى طرد الأتراك وفتح الطريق أمام قواتها ، فليس هناك ما يضطرها إلى مواصلة الاتفاق مع هذه « المعارضة الوطنية » ، خاصة وأنها قد صممت على تطبيق سياستها الإستعمارية . وأوقفت بريطانيا معونتها للحسين فى عام ١٩٢٠ فى الوقت الذى دخلت فيه فرنسا أرض سوريا وشبت ثورة العراق ، وبعد عام من انهزام قوات الحسين بقيادة ابنه عبد الله فى موقعة تربة أمام قوات ابن سعود . ألا يحمل هذا القرار البريطانى معنى إضعاف قوة الحسين العسكرية أمام السعوديين ؟ بل ألم يكن تشجيعها غير مباشر للسعوديين على مهاجمة الحجاز ؟ .

لا شك أن بريطانيا قد أرادت بذلك أن تضع حسينا فى موضع لا يحسد عليه، وأن تجبره على الإلتجاء إليها بشكل يفرض عليه عدم معارضتها سياسيا فى الشرق العربى . فنجد أن بريطانيا تواصل هذه السياسة وترسل الكولونيل لورنس إلى الحجاز فى سنة ١٩٢١ لكى يشرح للحسين ضرورة عقد معاهدة تحالف مع بريطانيا حتى يتمكن من الاحتفاظ بعرشه أمام أى هجوم من الخارج . وكان معنى التحالف هو الوصول بهذا الشيخ إلى موقف عميل الإستعمار ، واستغلاله فى الاحتفاظ بالوضعية الاستعمارية المفروضة على كل المنطقة . وقد يكون من الخطأ الدبلوماسى أن يرفض الحسين ه

خاصة أمام تهديد قوات نجد له ، ولكنه يدل على إخلاص هذا الشيخ لمبادئه ولعروبته، وان كان قد أثبت عدم صلاحيته لقيادة المعركة العربية في مثل هذا الميدان وأمام هؤلاء الأعداء . وعلى أى حال فقد ساعد ذلك على زيادة عزلة الحسين .

ولقد واصل الحسين موقفه فى الدفاع عن القضية العربية . وإن كان الوطنيون قد أخذوا عليه قصر مجهوده على الميدان السياسى بعد أن حمل السلاح ضد الأتراك . ومن الدفاع سار الحسين إلى تقديم المطالب والإصرار عليها ، وانتهى به الأمر إلى الاتهام . وفى خلال هذه المعركة تناسى الحسين تلك الدقائق الدبلوماسية التى تسمح له بالاحتفاظ بملكه ، أو أهملها ، لخيبة أمله فى أصدقائه البريطانيين وأبناء عمومتهم الأوربيين. وكانت ظروفه تجبره على ذلك . فلم يصدق على معاهدة فرساى ، ولم يصبح بالتالى عضوا فى عصبة الأمم ، وفقد ميزة نظام الضمان الجماعى ودفاع عصبة الأمم عنه فى حالة الهجوم عليه . ولكن تصديقه على معاهدة فرساى كان هو الاعتراف باقامة نظام الانتداب فى كل من سوريا وفلسطين . لقد كان الحسين إذن مكرها على عدم التصديق على المعاهدة حتى يدافع عن القضية العربية . ونفس هذا الموقف جرده من السلاح أمام السعوديين . واضطر الحسين كذلك إلى الامتناع عن حضور مؤتمر لوزان فى سنة ١٩٢٣ حتى لا يعترف للدول الأوربية بالتصرف فى حقوق العرب واعلان الحجر على بلادهم بعد تقسيمها . فازدادت عزلة الحسين ظهورا فى الميدان الدولى .

ولا شك أن حسينا قد شعر بضعفه فى الناحيتين العسكرية والسياسية فحاول تعويضها بمغالاته فى الناحية المعنوية التى استند فيها إلى شرف نسبه

وسمو مركزه بين العرب. فعمل على فرض نفسه على العرب والمسلمين فرضاً.

وكانت أول خطوة للحسين فى هذا الطريق هو اعلانه نفسه ملكا على البلاد العربية سنه ١٩١٦ مما جعل القيادات العربية الأخري تعمل على التخلص من سيطرته عليها، مستندة فى ذلك إلى أنه لم يحصل على البيعة. ووصل به الأمر فى ٧ مارس سنة ١٩٢٤ إلى اعلان نفسه خليفة للمسلمين بعد أن تخلص الأتراك الكماليين، من آخر خلفاء آل عثمان. وكان الحسين بن على قد أغضب جزء هاما من الرأي العام الاسلامى حينما أعلن الثورة على الدولة العثمانية، دولة الخلافة الاسلامية. وظهر الغضب واضحا فى البلاد العربية والاسلامية التى كانت تجاهد من أجل حصولها على استقلالها من الدول الاستعمارية الغربية وفى توافق مع حركة الجامعة الاسلامية المركزة فى الدولة العثمانية. ظهر هذا الغضب من « الثورة العربية » فى مصر والسودان وشمال افريقية، وظهر كذلك فى الهند التى زاد عدد المسلمين فيها على ثمانين مليونا. فهل كان للحسين أن يصل به الأمر إلى اعلان نفسه خليفة على المسلمين بعد قضائه على دار الخلافة الاسلامية فى الحرب؟ لقد جاءت المعارضة الرئيسية من الهند ومن مصر. وإذا كان الملك أحمد فؤاد يحاول فى ذلك الوقت الحصول على الخلافة لنفسه، فان عدد المسلمين فى الهند كان يعطيهم كلمة مسموعة فى أمر الخلافة. ولكن وجه الغرابة هى أن هذه المعارضة فى خلافة الحسين للمسلمين جاءت من بلدين: عربى واسلامى، وكلاهما خاضع للاستعمار البريطانى. فهل كان النفوذ البريطانى هو سبب هذه المعارضة؟ أم ساءت العلاقات بينهم نتيجة لشعور الحسين بوجود النفوذ البريطانى فى كل منها؟

يشهد التاريخ وجود شقاق بين الحسين ولجنة الخلافة الإسلامية فى الهند

يعود إلى سنة ١٩١٧ ، ولم يحاول الحسين انهاء هذا الخلاف . ويشهد كذلك سوء العلاقات مع مصر وخاصة فى مسألة المحمل ومسألة الحجر الصحى .

والمهم هو أن الحسين قد وصل به الأمر إلى الضعف المادى والسياسى والمغالاة فى الناحية المعنوية بشكل ساعد على عزلته وسهل على عبد العزيز بن سعود أمر القضاء عليه .

٢ - التوازن بين القوى العربية :

تجابهت قوات نجد وقوات الحجاز بمجرد أن أعلن الحسين نفسه خليفة على المسلمين وزاد ظهور عزلته وضوحا . وكانت فرصة نادرة لكى يحقق عبد العزيز بن سعود خطته ويلعب دوره فى تاريخ العالم العربى .

وليس معنى هـــذا أن عبد العزيز بن عبد الرحمن قد استند إلى تأييد بريطانيا فى الهجوم على الحجاز ، أو أن بريطانيا قد رضيت عن توسيع سيد نجد وعن مده لحدود سلطتـه من سواحل الخليج العربى إلى سواحل البحر الأحمر ، بل أن عبد العزيز آل سعود قد أفاد من « حيـــاد » بريطانيا فى شأن الأراضى المقدسة لكى يضرب ضربته .

وكانت مصلحة بريطانيا الفعلية فى هـذا الوقت هى الاحتفاظ بالوضع القائم الذي شيدته ورسمت خطوطه ،مقطعة بها أوصال العالم العربى . كانت مصلحتها الفعلية هى الاحتفاظ بالتوازن بين القوي الموجودة فى المنطقة ، حتى لاتزيد إمكانيات احداها ويصل بها الأمر إلى التحكم يوما فى طرق المواصلات الإمبراطورية .

وكانت بريطانيا تخشى من توسع نجد صوب العراق وصوب شـــرقى الأردن، وحسبت للأمر كل حساب ، خاصة وأن احتلال أهل نجد لإقليم

شط العرب أو توغلهم فى الممر الصحراوي الشمالى الذى يصل شرقى الأردن بالعراق،وينفصل نجد عن سوريا،كان يعمل على قطع خطوط المواصلات الامبراطورية البريطانية البرية بين حيفا والخليج العربى . وكانت المناوشات مستمرة بين الإخوان والسلطات المحلية فى كل من هاتين الجبهتين .

فسعت بريطانيا إلى عقد مؤتمر يضم ممثلى السعوديين مع ممثلى كل من العراق وشرقى الأردن والحجاز فى الكويت لتصفية المسائل المعلقة ، أى لإقرار الوضع القائم والاحتفاظ بالتوازن بين القوى العربية المختلفة ، وفى صالح الإمبراطورية البريطانية . واستندت بريطانيا فى ذلك إلى النزاع القائم بين نجد والحجاز حول السماح لأبناء وسط الجزيرة بالمشاركة فى الحج من ناحية ، وإلى إغارة بعض الإخوان على حدود العراق وشرقى الأردن من ناحية أخري .

وكان الحسين بن على قد اشترط فى عام ١٩٢٣ م على حكومة نجد أن تبلغه رسميا عدد الحجاج ، وأن يكون وصولهم إلى الحجاز عن طريق البحر كبقية المسلمين . والتجأ عبد العزيز بن سعود إلى المندوب السامى البريطانى فى العراق ، وطلب منه التدخل ، نظرا لما يعرفه من ازدياد النفوذ البريطانى حول ملك الحجاز . فلم يكن من الملك حسين إلا أن تصلب فى موقفه ، خاصة وأن علاقاته كانت قد ساءت مع بريطانيا ، وأتهم حكومة لندن بمحاباة ابن سعود وأعلن أن توغل الإخوان فى منطقة الحدود النجدية الحجازية يفرض عليه إقفال هذه الجبهة وانتظار وصول الحجاج بالسفن عن طريق البحر الأحمر .

ووجد البريطانيون أن كلا من حكومات العراق وشرقى الأردن والحجاز

ونجد تلتجىء اليهم للتدخل ، وكل للدفاع عن مصالحه ، فقرروا جمع ممثلى هذه الدول العربية لتصفية الخلافات ، والاحتفاظ بمصالح الإمبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس .

وانعقد المؤتمر فى الكويت فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٣ وتخلف عنه مندوبى الحجاز . واستمرت المباحثات خمسة جلسات إتفق فيهـــا مندوبى نجد مع مندوبى العراق على بعض مواد لتسوية مشاكل الحدود بين الاقليمين ولكن العراقيين اشترطوا أن تصل حكومة نجد إلى تسوية خلافاتها وعقـد اتفاق مع الحجاز حتى يصبح اتفاقهم مع السعوديين نافذا . فأصبح الاتفـاق العراقي — النجدي معلقا ، إنتظارا للمباحثات السعودية الحجازية .

أما مندوبى شرق الأردن فقد طلبوا اخلاء الجوف وسكاكه ووادى السرحان من الإخوان والحـاقهـا بامارتهم مستنـدين إلى أنهـا « حيوية » للاحتفاظ بمواصلاتهم مع العراق . وطلبوا كذلك اخلاء المناطق التى يحتلها أبناء نجد فى اقليم الحجاز ، وهى تربه والخرمة وخيبر ، وجعل الصحراء هى الحدود مع نجد . ورفض السعوديون بطبيعة الحال هـذه المطالب . فانفض المؤتمر لكى يتشـاور المندوبون مـع حكوماتهم ، ويعودوا للاجتماع من جديد فى يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٤ .

ولكن الحجاز لم يشترك أيضا فى هذه الدورة الثانية ، بل أن منـدوب العراق نفسه قد تخلف، ولم يحضر إلا وفد نجد ووفد شرقى الأردن. وأصر مندوبوا شرقى الأردن على طلباتهم السابقة بشأن الممر الصحراوى مع العراق وكذلك فى أمر الحدود النجـــدية ـ الحجازية ، ففشل المؤتمر . وفشلت سيـــاسة بريطانيا فى الحصول على اعتراف يدعم من الأمر الواقع . وانتهز

عبد العزيز هـذه الفرصة ، التى اصطحبتها زيادة عزلة الملك حسين وتوترت العلاقات بينه وبين البريطانيين ، لكى يهاجم الحجاز ويضمه لنجد .

٣ ـ هجوم الاخوان وتنازل الحسين :

كان فشل مؤتمر الكويت يخدم أغراض عبد العزيز آل سعود بطريقة غير مباشرة ، إذ أنه يطلق يداه فى العمل على إرضاء مصالحه ، خاصة وأن قواته كانت مستعدة فى الوقت الذى ظهر فيه ضعف الحكومة الحجازية .

ولكن عبد العزيز بن عبد الرحمن وجد أنه من الخطورة بمكان أن يقوم بحركة لها لون سياسى ظاهر ، أو يغلب عليها اللون العسكرى . فعمـد إلى إخفاء أهدافه وراء لون آخر ، هو الدين وفرائضه ، حتى يحرم بريطانيا من إمكانية التدخل فى نزاع إسلامى ، وحول الأراضى المقدسة .

فما أن علم سلطان نجد بفشل مؤتمر الكويت حتى جمع مؤتمراً آخر فى الرياض للتشاور فى مسألة الحج ، وتألبت فى هذا المؤتمر كل العداوة القديمة بين الأشراف وبين السعوديين منذ اعلان المذهب الوهابى . واتهم أهل نجـد الملك حسين بأنه تركى ، ثم اتهموه بأنه عميـل البريطانيين وانتهوا إلى أن ليس له حق فى منع المسلمين من الحج إلى بيت الله الحرام . فهو يمنع اذن قيام المسلمين بفرائض دينهم ، وعليهم كمسلمين مخلصين أن يسيروا إلى مكة ، وإذا منعهم مانع فهناك السيوف لاعلاء كلمة الله والاسلام .

كان هذا القرار يعنى الزحف العام على الحجاز ، ويقوم به أهل نجـد . وعمد عبد العزيز آل سعود الى تأييدهم بقوة عسكرية بلغت ستة عشر لواء ، اجتمعت فى تربه بقيادة خالد بن لؤي . وكانت هذه القوة كبيرة نسبياً أمام

قوات الملك حسين بأكلها ، وزاد من أهميتها هذا الزحف العام الذى يقوم به أهل نجد للدخول إلى مكة بحد السيف إن تطلب الأمر . وساروا جميعاً تحت لواء الاسلام وزادت حماستهم لاعلان الأراضى المقدسة ملكا مشاعاً لكل المسلمين .

ولم تعلم حكومة الحجاز بهذه التعبئة حتى توغل الاخوان صوب الطائف. فحاولت أن توقف هذا الزحف ، وتحتفظ بسلطة الدولة على المدن الهامة . فأصدر الملك حسين أوامره إلى حامية الطائف بالوقوف والدفاع . وخرج بعض رجال حامية هذه المدينة الى المرتفعات القريبة ونصبوا عليها المدافع لانتظار مجىء أهل نجد . بضع مئات من قوات الحجاز يساعدها بضع مئات من المتطوعى القبائل ، ولكن القوات الزاحفة كانت حشوداً ، وكتلا متراصة . وفى نفس الوقت أصدر الحسين أوامره لقواته فى مكة بالتقدم فى طريقين ، شمالى وجنوبى ، صوب الطائف، للعمل على انجاد هذه المدينة ، وتطويق قوات نجد وقطع خط الرجعة عليهم . ولكن القوات الزاحفة من مكة تأخرت فى سيرها ، كما أن مقدمة جيش الحجاز ، وكانت من متطوعى القبائل ، لم تصمد كثيراً أمام هجوم الاخوان ، بل قام بعضهم بالانضمام الى قوات نجد نفسها فى أثناء المعركة . فاضطرت قوات الطائف الى التقهقر قليلا قليلا أمام الاخوان . واحتل أبناء نجد كل موقع ينسحب منه جنود الحسين حتى بلغوا مدينة الطائف نفسها . ولقد استبسل جنود الحجاز فى الدفاع عن الطائف ، ولكن شجاعتهم لم تغنهم شيئا أمام الحشود الزاحفة ، فاضطروا الى اخلاء المدينة التى تدفقت اليها جموع الاخوان .

ووقعت فى الطائف مذبحة عامة راح ضحيتها الآلاف من السكان ، ونهبت

الممتلكات والديار ، واستخدمت فيها القسوة وساد عليها روح الانتقـــام . وأمر قائد الاخوان باخراج سكان المدينة رجالا ونساء وأطفالا إلى خارج المدينة . « وكان النساء سافرات لأول مرة فى هذه البلاد ، وكن مع الرجال، ومكثوا أياما ثلاثة » .[1] ويقال أن ابن سعود نفسه قد بكى حين بلغتـه الأخبار وعرف الثمن الذى دفعه لاحتلال الطائف ، وأمر قواده بالكف عن القتـال .

ولقدحاول الأمير على بن الحسين أن يقف فى الهدي لمنع قوات الاخوان الزاحفة من الوصول إلى مكه . ولكن قوانه لم تزد على مائتى جندي ، وستمائة من رجال القبائل . فلم يتمكن من المقاومة طويلا أمام قوات الاخوان وأسرابهم الزاحفة ، وبأعداد كبيرة . فاضطر إلى الانسحاب الى مكة ، ثم ذهب منها إلى جدة ، وبقى والده فى مكه للدفاع عنها . وفىهذا الوقت ظهرت فكرة تنازل الملك حسين عن الملك لابنه على ، وعمل من أجلها بعض أهالى الحجاز أنفسهم .

خدمت هذه الفكرة خطة عبد العزيز آل سعود دون أن تقـدم مكسبا واضحا للعرب عامة ولإقليم الحجاز بشكل خاص . وأظهرها أبناء الطبقة الوسطى الذين يعملون فى التجارة ويهمهم سيادة السلم . وأعلنتها هذه الحفنة من المتعلمين فى الحجاز والذين حاولوا الوصول إلى حكم دستورى ، أى إلى زيادة إشراكهم فى تصريف أمور اقليمهم .

اعتقد أعضاء « الحزب الوطنىالحجازى » أن العداوة لاتستحكم إلا بين الحسين وبين عبد العزيز آل سعود ، فتدخلوا لفرض خطتهم على الموقف

---

(١) أحمد عبد الغفور عطار : صقر الجزيرة . الجزء الثانى . ص ٢٩٠ .

دون أن يستندوا إلى قوة معنوية أو مادية يمكنها أن تؤثر على سير المعركة. وتلخصت خطتهم فى تنازل الملك حسين عن التاج لإبنه على ، وفى أن يعلنوا علياً بن الحسين ملكا دستوريا ، أي أن يكسبوا من الأزمة النجدية ـ الحجازية إشراكهم فى إدارة شئون الحجاز . وكتبوا رسميا إلى الملك فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ طالبين منه التنازل عن ملك الحجاز لإبنه « على أن يكون مقيداً بدستور ومجلسين نيابيين » . فوضح الانقسام فى المعسكر الحجازى ، وعلى طريقة الحكم ، والقوات النجدية تواصل تقدمها صوب مكة .

ولقد رفض الملك حسين أن يتنازل عن الملك لابنه على بالذات ، ولكن معارضته انتهت كذلك بالتنازل ، تاركا لأهل الحجاز أمر اختيار ملك عليهم. وكان هناك كثير من الأشراف فى الحجاز ، وكان عباس حلمى ، خديو مصر السابق ، يصلح لمثل هذا « المركز » . ولكن رجال الحزب الوطنى الحجازى بايعوا علياً ملكا على الحجاز ، واشترطوا عليه أن يكون للبلاد مجلس نيابى وطنى وقانون أساسى تضعه جمعية تأسيسية « كما هو جار فى الأمم المتمدنة ». ولما كانت الظروف لا تسمح باجراء انتخابات فى ذلك الوقت، فقد ألف رجال هذا الحزب هيئة مؤقتة لمراقبة أعمال الحكومة .

وأدى تنازل الحسين وتولى إبنه إلى اضطراب عام فى مكة وغيرها من مدن الحجاز ، خاصة وأن الابن كان يفتقر إلى الهيبة التى يتمتع بها والده ، كما كان يفتقر إلى الخبرة وإلى الاتصالات الخارجية . وكان على يتصف بالزهد والورع وتنقصه صفات الحاكم ، وخاصة فى حالة الحرب .

وأثر تنازل الحسين على معنوية الجند ، وأكد من انتصار عبد العزيز آل سعود ، دون أن يتحرك من الرياض ، وجاء اعترافا صريحا من أهل

الحجاز بضرورة تغيير الحال فى إقليمهم . وظهر ابن سعود كارد أمام هـذا الملك الصغير المتواضع المسالم .

واعتقد أبناء الحزب الوطنى الحجازى أن إبعاد الحسين سيقضى على النزاع مع أهل نجد ، ورغبوا فى إنشاء حكومة حديثة فى إقليمهم ، ولكنهم فشلوا فى فهم عمق الهوة التى تفصل بين عقيدة الإخوان وبين حكومة الأشراف . كما أن خطتهم لإنشاء حكومة حديثة فى الحجاز كانت تتعـارض كذلك ، وفى شكلها الخارجى على الأقل ، مع الطريقة البدائية التى يسير عليها أهل نجد ، رغم اشتمالها على نوع من أنواع الديموقراطيات . وتناسوا نمو قوة «الأسرة» السعودية واستنادها إلى القرآن وحده دستورا للمسلمين ، وإلى حد السيف قوة تنفيذية لتطبيق شريعة الله .

وأخيراً فقد فقد الحجاز بهذا التغيير كل المزايا الدولية التى حصل عليها من بقاء الحسين ملكا عليه ، خاصة وأن الدول الأوروبية كانت قد اعترفت به ملكا على الحجاز . ولم تعقد أي معاهدات دوليـة للاعتراف بحدود مملكة الحجاز . فكانت الملكية مرتبطة بشخصيته فى هذه المنطقة ، واحتاج ابنه على إلى اعتراف جديد به . وكان فى استطاعة الحسين أن يستنجد بالبريطانيين إن تطلب الأمر ، ولكن ابنه فقد هذا السلاح .

وتوجه الحسين إلى جـده ثم أبحر منها إلى العقبة بعد أن رفضت مصر إقامته فيها ، ابتعادا عن المشاكل . ووقع على كاهل على أمر الاشـتباك فى معركة خاسرة .

ويعتبر قضاء عبد العزيز آل سـعود على الملك الحسين قضاء على تلك القيادة العربية التى استندت إلى دول الغرب الاستعمارية وسمحت لهم بطريق

غير مباشر بالدخول إلى البلاد العربية . ولكن عبد العزيز بن عبد الرحمن كان هو الآخر مرتبطا باتفاقية العقير مع بريطانيا منذ سنة ١٩١٥ ، يصادق من يصادقها ويعادي من يعاديها . وكان قد تراجع عن الصدام مع بريطانيا فى الوقت الذي لم يتراجع فيه عن الصدام مع الحسين . وأنهى بذلك هذه المعارضة التى قام بها الحسين ضد بريطانيا ، وعزل هذا « العامل » وأدار هذه الصفحة التى أخذ العرب فيها يطالبون بريطانيا بتحقيق وعودها التى قطعتها على نفسها لهم فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، اذ لم تكن بريطانيا قد قطعت من العهود للعرب الا للحسين بن على .

وقام عبد العزيز آل سعود بذلك . مقدما عامل تطبيق الحد فى الأراضى المقدسة ، ومخفيا العوامل السياسية والاستراتيجية ، بل والوطنية . وسنري أن عبدالعزيز بن عبدالرحمن لن يتقدم بمطالب جديدة الى بريطانيا ، بل سيفرض النظام الذى بناه لإقامة دولته عليها فرضا ، وذلك داخل الحدود التى رسمها لهذه الدولة . ولكنه سيحترم الوضع القائم فى الشمال والجنوب ، أي الوضع الذى أقامته الدول الاستعمارية ، لتقسيم العالم العربى .

٤ — وصول عبد العزيز ال سعود

عاد الملك على من جده الى مكة لكى يدافع عنها . ولكنه لم يمكث بها الا أسبوعا ثم اضطر فى ١٤ أكتوبر إلى الانسحاب منها عائدا إلى جدة مرة جديدة بعد أن وجد قوته تنحصر فى خمسمائة جندي . ودخل الاخوان مكة دون حرب ، بل محرمين مطوفين ببيت الله ، بعد أن أصدر عبد العزيز أمره بمعاقبة كل من يقاتل فى هذه المدينة . ورغم ذلك فقد وقعت بعض عمليات السلب والنهب . ثم صمم عبد العزيز بن عبد الرحمن على الحضور الى

أم القري . وقبل قيام سلطان نجد من الرياض أرسل بقوات الى كل من حدود العراق وحدود شرق الأردن ليمنع أخوي على ، فى الشرق والشمال ، من الهجوم على نجد أو من ارسال المعونة لأخيهما فى جـدة . وكان دخول عبد العزيز بن عبدالرحمن الى مكة مع حشود الاخوان يوما مشهوداً ، ارتفعت فيه صرخاتهم تتجاوبها الجبال : لبيك اللهم لبيك .

وكان الملك على قد أرسل بخطـابات الى ملوك العرب ورؤساء المسلمين طالبا منهم التدخل للتوسط فى الصلح مع سلطان نجد ، وحاول الحاج أمـين الحسيني أن يتوسط ، ولكن عبد العزيز عدد له مساويء حـكم الأشراف فى الحجاز وأكد عزيمته على اقامة ادارة فيه « تكفل حقوق جميع المسلمين بوجه المسـاواة » . أما شوكت على ، رئيس جمعية الخلافة فى الهند ، فانه أجاب حكومة جدة بأنه لا يعترف لهم بحق تولية ملك على الحجاز بمفردهم ، وأن الحكم فى ذلك يجب أن يكون لكافة المسلمين فى المؤتمر العام ، وأن مسلمى الهند لا يقبلون بأي وجه من وجوه تولية الحسين أو أحد أولاده ولا يرضون الا بتأسيس حكومة ديموقراطية يشترك فيها جميع المسلمين .

فوضح انعزال الملك على وضعفه وعدم تأييد العالم الاسلامى له فى الوقت الذي دخل فيه عبد العزيز مكة . وسادت نظرية لا تعترف لعربى بفضل على عجمى الا بالتقوى ، وتنادى باشتراك جميع المسلمين فى تقرير وضـع جديد للأراضى المقدسة ، أي ملكية المسلمين المشتركة لبـلاد الحجاز . ولم يبق لفصل الأمر الا القوة المادية ، وكانت فى أيدي أبناء نجـــد دون منازع . وحينما طلب الملك على من عبد العزيز حقن الدماء والوصول الى سلم ، اشترط عليه سلطان نجد أن يقوم باخــلاء الحجاز وينتظر حكم العالم الاسلامى فى الأمر .

واجتمع عبد العزيز آل سعود بأهل مكة ، ورفض أن يسمح لهم بتقبيل يده وحينما أظهروا دهشتهم شرح لهم أن من عادة العرب المصافحة ، وكذلك فعل الصحابة مع الرسول (صلعم) ، ومع بعضهم بعضا ، وأن عادة تقبيل الأيادي قد نزحت الى البلاد العربية مع الأجانب .

ثم وافق على اجتماع كل من علماء مكة مع علماء نجد لكي يتشاوروا فى أمور الدين والشرع ، ولكى يصلوا الى اتفاق حول المسائل المذهبية ، وبالتالى الى اقرار قانون أساسى ، أو دستور ، يرضاه الجميع . وفى هذا الاجتماع شرح الشيخ حافظ وهبه أهمية مكة والحجاز من الناحية الاسلامية ، ثم رسم الخطوط العامة لسياسة السعوديين فى هذه المنطقة ، فربط بين انتشار البدع فى البلاد الاسلامية وبين اتجاه « الترقى المدنى » وذكر أن السعوديين يهدفون الى « الارتقاء الدينى » وذلك برجوع المسلمين الى السنن التى سنها الله لهم فى كتابه وعلى لسان نبيه . ثم شرح أن السعوديين يهدفون الى الرجوع بالاسلام الى عهد الشورى ، وأوضح أن عبد العزيز بن عبد الرحمن لا يريد أن يكون هذا البيت ملكا لأحد بل مشاعا بين المسلمين ، ولكل شعب من الشعوب الاسلامية ولكل فرد من أفراد العالم الاسلامى حق فيه ، وختم بأن التجربة قد أثبتت فشل حكم آل الحسين للحجاز ، وأن الواجب يحتم على كل العرب أن يعملوا على التخلص منهم .

أما عبد العزيز آل سعود فقد شرح أن الرسول (صلعم) قد قاتل من كان بمكة حينما عصيت قريش أوامر الله وأعرضت عن الحق ، وأنه قد شرف بلال الحبشى وسلمان الفارسى بعد اسلامهما ، والأول عبد حبشى والآخر رجل فارسي ، وأن الله قد أذل أبو لهب بالكفر وهو عم الرسول

(صلعم) فالشرف ليس بالحسب ولا بالنسب وانما هو بالعمل الصالح. فأكد بذلك الديموقراطية الاسلامية دون نظر الى نسب أو الى عنصر، بل على أساس المساواة وتقديم العمل الصالح .

ولكن ...(من كان يرجو لقاء ربه فيعمل عملا صالحا ولا يشرك بعباده ربه أحدا) . اذن فالعمل الصالح وحده لا يكفى ، بل من الواجب أن يقترن بالاخلاص فى العبادة . وما دام الاسلام هو أساس حياة المسلمين ودستورهم فمن الضروري تطبيق شرع الله .

ولم يكن فى استطاعة أي من علماء مكة أن يجادل فى هذه المبادىء . فأصبح الشرع هو دستور الحجاز يستمدونه من الكتاب والسنة .

ونشر عبد العزيز بن سعود بيانا تعهد فيه بجعل الأمر فى الحجاز شورى بين المسلمين ، وبقصر مصادر التشريع والأحكام على كتاب الله وسنة رسوله ، أو ما أقره علماء الاسلام عن طريق القياس أو ما أجمعوا عليه . وأبرق الى كافة المسلمين فى سائر الدول طالباً منهم أن يرسلوا وفودهم لعقد مؤتمر الإسلامى عام يقرر شكل الحكومة الذى يرونه صالحا ومطابقاً لأحكام الله فى الأراضى المقدسة .

ولكن الخلاف لم يكن فى وضع أسس الدستور أو الرجوع اليها ، بل كان فى استخراج القوانين وفى طريقة تطبيقها ، أي فى علاقة الفرد بالمجموع فى تفاصيلها ، وسلطة المجتمع ، وتمثله الحكومة ، فى تطبيق هذه القوانين على الأفراد ، وخاصة فى مسائل الدين . فنجد أن الاخوان لا يدخنون ولا يسمحون للمسلم بالتدخين، ويعارضون فى استخدام مظاهر الحضارة الحديثة من برق وهاتف فى حياتهم اليومية . فهل يتمشى هذا

الموقف مع الدستور الذى اتفق عليه ، أى مع الشريعة الاسلامية ؟

وقعت بعض المشكلات بين الاخوان وبين أهالى مكة نتيجة لضربهم من يقوم بالتدخين ، ودفعهم الأهالى دفعاً الى إغلاق الحوانيت حينما يؤذن المؤذن للصلاة ، واجبارهم اياهم على القيام بالفرائض وفى أوقاتها . وشعرت « جمعية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » أن من واجبها استخدام كل الوسائل فى اجبار أهل الحجاز على تطبيق ما ارتضته لنجد مذهبا . ولكن هذه المشكلات كانت تهدد عبد العزيز آل سعود بقيام حركة معارضة له فى بقية البلاد الاسلامية ، خاصة وأن مسألة الخلافة كانت لا تزال قائمة ، بل كانت سلطة الملك على لا تزال موجودة فى جدة . فاضطر عبد العزيز بن عبد الرحمن إلى التخلى عن شىء من « توصيات » ابن عبد الوهاب ، بل وأيضا من اتجاهات ابن قيم الجوزية ، ووقف عند المذهب الحنبلى ، أي أنه اعترف بوجود المذاهب الأخري وبصلاحية تطبيقها .

واضطر عبدالعزيز إلى أن يوبخ رجاله وأمرهم بألا يشتموا أو يضربوا أحداً إذ أن المعروف لا يدعى إليه بالمنكر .

ولكن سيد الجزيرة لم يقبل التساهل فى أمر القيام بالفرائض الاسلامية من صلاة وصوم وزكاة ، وكلف البلدية بمراقبة تنفيذ ذلك . ثم عين الشيخ حافظ وهبه محافظا على مكة ، نظراً لما عرف عنه من أنه رجل حر الفكر ، دمث الطبع ، فيمكنه أن يجذب القلوب بدلا من أن ينفرها .

٥ — نهاية حكم الهاشميين :

حاول بعض البريطانيين والعرب والمسلمين من أصدقاء عبد العزيز آل سعود التدخل فى الحرب القائمة بينه وبين الملك علي فى جدة ، وذلك للتوسط

من أجل السلم ، أى بمعنى آخر الوصول إلى حل وسط ، والتالى إلى منع سلطان نجد من الوصول إلى حل حاسم لشبه الجزيرة العربية . ونذكر على التوالى كل من فيلبى المستشرق ، وأمين الريحانى ، وهو من عرب لبنان غير المسلمين ، والسيد طالب النقيب من زعماء العرب والمسلمين فى العراق . وكان فيلبى أقلهم أهلية للتحدث فى موضوع يهم العروبة ويهم الاسلام . أما أمين الريحانى فلم يكن له حق التدخل فى الشئون الاسلامية ، حتى وإن كان يمثل آراء بعض العرب المسلمين المتحررين فى لبنان . وأما السيد طالب النقيب فكان أكثرهم أهلية .

فاضطر عبد العزيز آل سعود إلى ارجاع المسألة إلى أصولها ، والوقوف موقفا راديكاليا ، وشرح أن المسألة الحجازية هى اسلامية قبل أن تكون عربية ، وأنها تهم المسلمين جميعا ، مما يحرم الأفراد والهيئات من التدخل بمفردهم ، فأصبح واضحا أن سلطان نجد لن يستمع إلا للحل الذى يرتضيه المسلمون أجمعين ، وأبعدت بذلك كل محاولة تسعى إلى وقف المعركة والاحتفاظ بوضع مقلقل غير ثابت ، يضر ولا يحمل أي فائدة .

بقى الملك على فى جدة وحاول أن يبرر موقفه أمام أهل مكة فى الانسحاب من مدينتهم بضرورة التكتيك الحربى . وطلب منهم أن يساعدوه باعلان الثورة حتى يتمكن من القضاء على الاحتلال السعودي . وكأنه يحاول اثارة عامل الولاء لدولته سلاحا فى وجه « النظام الاسلامى » الذى دخل مكة . وظهرت ضحالة مجهوداته فى هذا الميدان .

وجمع عبد العزيز آل سعود مجلس مشورته وقرر الزحف على جدة . ولما كان هذا الميناء يشتمل على قنصليات الدول الأجنبية وعلى عدد من

رعاياها ، فان الاخوان قد قرروا محاصرته حتى يستسلم . وبدأت القوات تزحف صوب جدة ، وأخذت فى محاصرتها وتضييق الخناق عليها ، وسرعان ما بدأت المناوشات .

واعتمد الملك على على جيش لا يزيد عدده على الألفين ، ألف من الجنود وألف من متطوعي الأعراب . وكان شخصيا لا يعرف كثيرا من شئون الحرب ، بينما كان ضباطه من بقايا حكومة والده ، ويعتقدون فى تكوينهم العسكري أكثر مما يستحقون . وكانت مدفعيته لا تزيد على عشرين قطعة ، وثمانية رشاشات . وحصل على بعض « حاملات البرن » فسماها بالدبابات ، رغم عدم صلاحيتها . وكانت لديه خمس طيارات من بقايا الحرب العالمية ، يهتم بها أحد المهندسين الانجليز ، ويقودها بعض الطيارين من الروس البيض الذين تركوا بلادهم بعد ثورة أكتوبر . وكانت تنقصه الذخائر والأموال، ولم يعتمد إلا على قوات يمكن تسميتها بالمرتزقة .

أما قوات بن سعود المحاصرة لجدة فقد زاد عددها من خمسة آلاف حتى بلغ أربعين ألفا ، وكانت أسلحتهم قد زادت مع الغنائم التى حصلوا عليها فى المعارك المتعاقبة . وكانوا يحاربون من أجل وحدة الاسلام ، وتطبيق الشرع الاسلامى فى الأراضى المقدسة ، ويعملون جيدا أنهم يحاربون ابن من عينه الأتراك على الحجاز . ومن ضحى بمصالح العرب والاسلام ، ومن يمثل حكم الطبقات الاجتماعية ، ولا يعترف بالديموقراطية . فظهر أن معركة على هى معركة خاسرة من أولها ، ولا تحتاج إلا لعامل الوقت لإقرار نهايتها .

ولقد حاولت حكومة جدة أن تستخدم الطائرات فى ضرب مواقع

السعوديين المحاصرين للمدينة ، ولكنها فقد طائرتين فى هـذه العمليات ، فى الوقت الذي تلفت فيه طائرتان أخرتان . فحاولت استخدام المصفحات وعززتها بسيارتى نقل ، درعتها بطريقة بدائية ، ووضعت فيها المدافع الرشاشة ولكنها غاصت فى الرمال ، واستولى السعوديون عليها . فخسرت حكومة جـدة فى ساعات ما صرفت الأشهر فى اعدادة ورسمه ، وفقدت فى هجاتهـا ما أمدتها به حكومة شرقى الأردن من بعض الأسلحة والذخائر . فانخفضت الروح المعنوية بين رجال الملك على واقتربت النهاية .

وانتهز قنـاصل الروسيا وايران وهولندا ، وكلهم من المسلمين ، فرصة سماح عبد العزيز لهم بأداء فريضة الحج لكى يطلبوا منه ، بصفتهم الشخصية وكسلمين ، استقبال وزير خارجيـــة الملك على ، تمهيدا لتصفية الموقف . واشترط ابن سعود أن يكون هذا الوزير مستعدا للموافقة على ما يمليه عليه من شروط . ثم طلب صراحة انهاء حـكم الهاشميين من الحجاز ، وخروج على من جدة واخراج والده ، الحسين من العقبة .

وحاول كل من امام اليمن وشاه ايران وملك مصر التوسط فى المسألة الحجازية ، خاصة وأن وكالات الأنباء كانت قد نشرت الأخبار عن محاصرة السعوديين للمدينة المنورة ، وبدأ الرأى العام الاسلامى ينشغل بضرورة حماية قـبر الرسول (صلعم) من التخريب . وكذلك حاولت بريطانيـا التوسط للدفاع عن مصالحها فى منطقة الهـلال الخصيب والطريق البري الموصل للهند أمام التوسع السعودى . فما كان من عبد العزيز بن عبـد الرحمن إلا أن فصل السياسة الدولية عن السياسة الإقليمية ، ورضى المفاوضة مـــع البريطانيين

لتحديد مشكلات الحدود مع كل من العراق ومن شرق الأردن ، وأخرج بذلك بريطانيا من الميدان . ثم نجح فى اقناع الوفد المصري بترك الحجازيين أنفسهم يقررون نوع الحكم الذى يرضيهم ، واعترف فى نفس الوقت بحقوق العـالم الإسلامى فى الأراضى المقدسة ، ووكل إلى الملك فؤاد أمر دعوة مندوبى المسلمين فى مصر لينظروا فى هذه الأمور ، وتعهد بتنفيذ مايقررون. كما أنه رد على إمام اليمن معلنا قرب دعوة مصر لمؤتمر اسلامى ، ورجا منه أن يشترك فيه . وترك الوفد الايرانى يزور المدينة ويتأكد من عدم تخريب الاخوان لها ، وطلب منه أن يبلغ حكومته فكرة انعقاد المؤتمر الإسلامى لكى تشارك فيه وهكذا نجح عبد العزيز آل سعود فى ابطال مفعول هذه المحاولات ووجهها صوب مشكلة الخلافة ، محتفظا لأهل الحجاز ولنفسه، بسلطة تقرير المصير الدولى للاقليم .

وتدخلت بريطانيا لسحب الملك حسين من العقبة فى شهر يونيو سنة ١٩٢٥ . وانتهت مقاومـة المدينة المنورة ودخلتها قوات السعوديين فى ٥ ديسمبر من نفس السنة . فاضطر الملك على إلى قبول الانسحاب من جـدة ، وحملته السفينة البريطانية « كورن فلاور » إلى عدن ثم إلى العراق . ودخل عبد العزيز آل سعود المدينة يوم ٢٤ ديسمبر وانتهى بذلك حكم الهاشميين فى كل الحجاز .

وشعر كل من السعوديين والحجازيين بضرورة تدعيم الوضع الإقليمى لمنطقتهم قبـل اجتماع المؤتمر الإسلامى ، فقرروا فى اجتماع عام عقده يوم ٨ يناير سنة ١٩٢٦ مبايعة عبد العزيز بن سعود ملكا على الحجاز ، وأعلنوا

بذلك توحيد اقليمهم مع بقية وسط الجزيرة . وأصبح لقب عبد العزيز الجديد هو « ملك الحجاز وسلطان نجد » .

وهكذا نجح عبد العزيز فى ضم الحجاز لنجد والقضاء نهائيا على حكم الهاشميين ونظامهم . وقضى بذلك على أعوان الاستعمار . وأصبح عليه أن يدعم بناء دولته فى الداخل وفى الخارج .

الفصل الثالث

المملكة العربية السعودية

كانت عملية طرد الهاشميين من إقليم الحجاز وضمه الى اقليم نجد احدى الخطوات التى سار عليها عبد العزيز بن سعود لبناء دولة قوية فى منطقة الشرق العربى ، لها خصائصها ودعائمها . وأصبح من الواجب على ملك الحجاز وسلطان نجد أن يدعم هذا البناء وخاصة أمام الأخطار والمشكلات التى طالبت بضرورة إيجاد حل لها . وكانت هذه المشكلات متعددة ، فمنها الإسلامى المتصل بأمر الخلافة والحج ، ومنها السياسى الذي يتصل بالحدود مع البلاد العربية المجاورة وفيها نفوذ بريطانى واضح ، ومنها الداخلى الخاص بعملية البناء والتوحيد بين أقاليمه المختلفة ، ومنها كذلك الاقتصادى. ولقد نجح عبد العزيز فى حل كل منها وان كان قد اضطر الى تغيير موقفه ، ونتيجة للقوى المواجهة له فى الميدان ، وخاصة فى مسألتى الوحدة العربية والمذهب الوهابى .

١ – الخلافة والعالم الإسلامى :–

كانت مشكلة الخلافة قد اثيرت منذ أن تخلص الأتراك الكماليون من آخر خلفاء آل عثمان ، وقام الملك حسين بإعلان نفسه خليفة على المسلمين دون أن يحصل على البيعة اللازمة لذلك. وكانت قيمة أسهمه قد انخفضت فى أعين البريطانيين وقامت حركة مقاومة ضده سار فيها عرب نجد بطريقة إيجابية عملية ، وانتهجتها لجنة الخلافة الاسلامية فى الهند ، والملك أحمد فؤاد فى مصر بطريقة معنوية أدبية .

وكانت الطريقة التى انتهجها عبد العزيز بن سعود تتلخص فى ترك أمر اتخاذ قرار فى مسألة الخلافة للمسلمين أجمعين. ولكنه أخذ على نفسه دور القضاء على الهاشميين فى الحجاز، وهدف الى الاحتفاظ لنفسه بالشئون « المدنية » لهذا الاقليم.

ولكن توسع سلطان نجد إقليميا صوب البحر الأحمر كان يحمل عامل تغيير التوازن الدولى فى المنطقة، بشكل يقلق بال بريطانيا، ويزيد من قيمة أسهم عبد العزيز أمام أسهم من يسعون الى الاحتفاظ لأنفسهم بكلمة حاسمة فى أمر الخلافة. وكان تطرف أهل نجد فى مذهبهم الحنبلى يثير مخاوف المسلمين السنيين المعتدلين في وادي النيل، والهلال الخصيب وفى الهند، وكلها مناطق تخضع للنفوذ البريطانى. وكانت العمليات الحربية بين السعوديين والاشراف فى الحجاز تهدد بتخريب الأماكن المقدسة، فحاولت البلاد الإسلامية أن تحدد من سلطة السعوديين وذلك بفرض حل بعينه فى مسألة الخلافة، وحمل هذا فى نفس الوقت معنى محاولة الاحتفاظ بالتوازن بين القوى الاسلامية. واتخذوا من العمليات الحربية فى الحجاز عامة ومن محاصرة قوات السعوديين للمدينة المنورة خاصة، وسيلة للتدخل، باسم الوساطة بين عبد العزيز والملك علي، وتهدف الى الحصول على ضمانات فى مسألة الأراضى المقدسة، وفى مسألة الخلافة. وبالتالى فى مسألة توازن القوي الاسلامية.

كانت حكومة الملك على فى جدة قد نشرت فى سنة ١٩٢٥ بلاغات جاء فيها أن المدينة المنورة قد أمست فى خطر محدق من الوهابيين المتوحشين الذين يستهدفون بمدافعهم قبر الرسول «صلعم». واذاعت هذا الخبر وكالة رويتر

ونقلتها معظم الصحف العالمية . واختصت جريدة المقطم [1] نفسها بالسبق فى نشر برقية استغاثة من قائد حامية المدينة ، يستغيث فيها بالعالم الإسلامى ، زاعمة أن بلد الرسول مستهدف للخطر ، وأن الوهابين أخذوا يطلقون عليه وعلى القبة الخضراء رصاصهم بلا انقطاع ، ولم يبالوا حرمة المدينة ولا قداستها ، فقلق المسلمون من هذه الأخبار التى وجدت من يروجها فى مصر والشام والعراق والهند وافريقية وكل بلاد الإسلام ، وقامت ضجة ، وكانت فرصة للتدخل . فتدخل الملك أحمد فؤاد برقياً لدي إبن السعود لكى يعمل على صيانة الحرم النبوى الشريف وآثار المدينة . فطمأنه عبد العزيز فى أول سبتمبر بأن العرب هم أبناء الحرمين الشريفين ولم يسعوا الى جعل الحجاز ساحة الحرب ، وألقى بمسئوليه هذه الحرب على كاهل الاشراف . فأردف فؤاد هذه البرقيات بارسال وفد من الشيخ محمد مصطفى المراغى رئيس المحكمة العليا . وعبد الوهاب طلعت ، سكرتيره الخاص ، لكى يصل الى تسوية بين الفريقين المتنازعين فى الحجاز . ونجح عبد العزيز فى اقناع هذا الوفد بضرورة ترك الحجازيين أنفسم يقررون نوع الحكم الذي يرضيهم ، أي أنه رفض الوساطة المصرية فى أمر الحجاز . ولكنه اعترف فى نفس الوقت بحقوق العالم الاسلامى كله فى الأراضى المقدسة وكان يعلم أن مسألة الخلافة مسألة شائكة ، وأن الخلافات عليها كثيرة والاطماع فيها متعددة . فوكل إلى الملك فؤاد أمر دعوة مندوبى المسلمين فى مؤتمر

---

(١) صاحبها فارس نمر باشا — كانت له علاقات واضحة مع دار المعتمد البريطانى فى مصر وكانت برطانيا تؤيده بالأموال ، وقام بدور هام فى الثورة العربية .

انظر : الثورة العربية . للمؤلف . دار المعرفة ص ٢١٩ .

إسلامي غلم يعقد في مصر ، وتعهد من جانبه بتنفيذ مايقررون. واستند ابن سعود الى هذه المسألة لكى يتفرغ هو لتسوية الوضــــع السياسى والمدنى للحجاز، ولكى يترك القـوات الإسلامية الأخري تتفـاعل مع بعضها ، وتتنـافس وتتجادل وتتصارع من أجل لقب الخلافــــة . وكان مارسم ابن سعود ، وأثبت المؤتمر الاسلامى الذي عقد فى القاهرة فشله التام، نتيجه لعدم اشتراك كثير من المعلمين فيه ، ونتيجة لصعوبة التوفيق بين الاتجاهات بل والاطماع المتعارضة ، خاصة وأن أى خليفة جديد لن يتمكن من إدارة شئون المسلمين، نظراً لافتقاره الى القوة المادية اللازمة ، بل وافتقـاره الى القـوة المعنوية كذلك ، مادامت الأراضى المقدسة فى أيدى السعوديين .

فوجد عبد العزيز بن عبد الرحمن أن الفرصة قد أصبحت سانحة لفرض الحل الذى ارتضـاه على الجميع ، وان كان ذلك الفرض قد غلف فى شكل تشاور ديموقراطى فدعا الى عقد المؤتمر الاسلامى الثانى فى مكة فى يوم ٧ يونيو سنة ١٩٠٦ وشرح لأعضاء المؤتمر أن غزوة للحجاز أمر نهائى ، ولا يمكن النقاش فيه ، وأعلن فى نفس الوقت أن الأراضى المقدسة هى وديعة العالم الاسلامى أجمع، وطلب إبداء الآراء وايجاد أحسن الطرق للعناية بالحجاج وبالمؤمنين . وكان وفد جمعية الخلافة الاسلامية الهندي من بين أقوي الوفود فى المؤتمر، فترأس حركة مهاجمة الحسين بن على ، ووصفه بالخيانة وأثنى على إخراجه من الحجاز، فخدم السعوديين بهذا الموقف ولو بطريق غير مباشر . ولكن ذلك لم يمنع من ظهور الانقسام واضحاً بين وفود المؤتمر فى إتجـاهين متباينين ، اتجـاه الوهابيين الذى ينعى الى فرض الشريعة الاســلامية قانوناً ، والى إجبـار المسلمين على القيام بفرائضهم ، وإتجاه المسلمين المعتدلين فى الهند ومصر وهم

الذين يطبقون الشريعة فى شئونهم الشخصيــة من زواج وميراث،ويتركون أحوالهم المدنية لقوانين وضعية،وينظرون الى الوهابيين نظرتهم الى المتعصب المتحنبل . وكان هذا الانقسام من أكبر المصـاعب التى واجهت الوفود فى المؤتمر ، وهددت بفشله . وجاءت حادثة المحمل لكى تخرج المؤتمر من هذه الأزمة ، وسمحت لعبد العزيز بن سعود بفرض اتجاهة على المؤتمر .

كانت مصر قد اعتادت إرسال المحمل فى كل عام للاراضى المقدسة مع بعثة الحج ومع أمير الحج ، وتقوم فرقة صغيرة من الجنود باصطحابه مجهزة بالموسيقى العسكرية والاعلام . ونظر السعوديون الى هذه المظاهر على أنها خارجة عن الاسلام . فوافقت مصر هذه المرة على ارسال المحمل دون موسيقى . ولكن ماأن اقترب المحمـل من مكة ، وكان المؤتمر الاسلامى منعقـدا ، حتى وقعت حادثة مؤسفة . ذلك أن الجنـود المصريين ضربوا نوبة « بروجى » فى المساء، فما كان من رجال نجد إلا أن هاجموهم بدعوى أنهم من الكفار، وإضطرت القوة المصرية الى الدفاع عن نفسها وأطلقت النار فى الهواء أرهابا للمهاجمين ، ثم فى هذه الحشود التى حاولت إجتياحها والتفرس فيها . وسقط خمسة وعشرون وهابيـاً عـلى أرض المعركة . وسـرعان ماظهـر الملك عبد العزيز نفسه فى مكان الالتحام وواسى رجاله ، وذكر للضابط المصري أن ليس له الحق فى اطلاق النار فى مملكة الحجاز، وأمره بالعودة مع جنوده الى القاهرة دون أن يكمل الحج .

لقد كانت هذه الحادثة سبباً فى امتناع مصر عن إرسال المحمل الى الحجاز حتى سنة ١٩٣٦ ، ولكنها أعطت تأثيراً مباشراً على المؤتمر الاسلامى المنعقد فى ذلك الوقت . ذلك ان إغضـاب مصر واخراج بعثة الحج التى ارسلتهـا

للحجاز فى هذه السنة قطع على الوفد المصرى كل امكانية للمناقشةفى المؤتمر مادام قد أصبح فى وضع الخصم من السعوديين . فقلت المعارضة المعتدلة أمام عبد العزيز وأصبح لايواجه الا وفد جمعيةالخلافة الاسلامية الهندي. وأثبت عبد العزيز بن سعود أنه لايقبل أى تدخل ادارى أومدنى فى شئون الحجاز إذ أنه هو رئيس السلطة التنفيذية فى الاقليم ، فلم يبق أمام المؤتمر الا محاولة الاحتفاظ بالسلطة الدينية ، أي النفوذ الاسلامى « المعنـوى » فى الأراضى المقدسة . وأضطر المؤتمر الى قبول الأمر الواقع إخفاء لهزيمتـه . وكانت هذه الحادثة سبباً مباشراً لعدم الوصول الى حل حاسم فى مسألة الخلافة التى ظلت معلقة . وصرف المؤتمر جهدة فى لم الشمل ، وفى محاولة الاحتفاظ بما تبقى له من كيان اسمى ونجح فى تشكيل هيئة دائمه للمؤتمر الاسلامى ،نص على ضرورة إجتماعها من وقت لآخر ، للتباحث فى الأمور التى تهم المسلمين ، ولكنه اعترف بطريق مباشرأو غيرمباشر بهذا الوضع الذي إختاره عبد العزيز بن سعود للحجاز ، مادام يفتقر الى القوة التى تسمح له بتغييره. وكان هذا هو مايسعى اليه ملك الحجاز ونجد ، مادام لايسعى الى الحصـول على لقب الخلافة ، مع كل مايحمله ذلك اللقب من تبعات ومايجرهمن مشكلات. ولكن تقرير هذا الوضع للحجاز ولابن سعود جعل منها قوة من القوي الاسلامية التى تمتاز بعروبتها ، ولكن تحسب حساب غيرها، وفرض عليهاأمر موازنة نفسها مع غيرها من القوى ، فألغى بذلك صفتهـــا الثورية وحددها بحدود المملكة التى تعيش فيها . ويمكننا أن نقول أيضاً أن هذا التنافس بين ابن سعود وبين القوى الاسلامية،اضطر هذا الملك الىالاسراع فىتسويةالمشاكل السياسية مع الدول المحيطة به وخاصـة مع العراق ومـع شرق الأردن ، حتى يضمن الاستقرار الزمنى . وزاد هذا الاستقرار الزمني من الغـاء الصفـية

الثورية لتلك القوة التي خرجت من نجد لنشر مذهب الاخوان ولتوحيد العرب . إذ أنها ستعترف بوجود القوى الأخرى ، داخل حدودها ، وتعترف بتقسيم العالم العربي بين دول متعددة ، وتدخل ، هي الأخري ، في طور القوميات العربية « المحلية » .

٢ — العلاقات مع بريطانيا وحلفائها :

ساءت العلاقات بين السعوديين والبريطانيين نتيجة لعمليات الإخوان في الحجاز ، ومحاولتهم تغيير الوضع القائم في العالم العربي ، وما حمله ذلك من تأثير على كل من مملكة العـــراق وإمارة شرق الأردن ، حليفتا بريطانيا في الشرق والشمال .

وكان امتداد الحكم السعودي من مياه الخليج العربي إلى سواحل البحر الأحمر يزيد من أهمية عبد العزيز ودولته في نظر بريطانيا ، خاصة وأن دولته أصبحت تكون حزاما يوصل إلى مياه الهند ، ويقع خارج منطقة النفـــوذ البريطاني . وكان عبد العزيز آل سعود يطالب بالعقبة على أنها من أرض الحجاز ، وكانت بريطانيا قد اعترفت فعلا في عام ١٩١٦ بهذه المدينة داخل نطاق مملكة حسين فيالحجاز . ولكن تسلم السعوديين لها كان يحرم بريطانيا من قاعدة استراتيجية هامة في المنطقة ، عقدت عليها كثيراً من الآمال ، للمواصلات مع حيفا في الشمال ثم في البحر الأحمر ، في حالة تعطيل الملاحة في قناة السويس ، واختارتها مركزاً لفرض سيطرتها على كل من شرق الأردن وفلسطين ، ومخرجا لهاتين المنطقتين صوب المياه الإفريقية والشرقية . وكان تسلم السعوديين للعقبة يعني إقفال الميناء الأردني الوحيد ، ويهدد بالتـــالي باستيلائهم على الجزء الجنوبي من فلسطين (النقب) ويجعل حدودها متاخمة للحدود المصرية في سيناء .

وكان عبد العزيز بن سعود لايعترف بما أنشأته بريطانيا وسمته إمارة شرق الأردن . بل كانت حدوده الشمالية في نظره هي مع الشـام . فحتى إذا فرضنا جدلا أنه يوافق على ترك الأمير عبدالله في عمان ، فهو يرفض وجود الممر الصحراوي الشمالي الذي يصل عبد الله بمملكة العراق ، ويفصله هو ابن سعود ، عن سوريا . فكان عبد العزيز إذن يهدد الخط البري للمواصلات الامبراطورية البريطانية مع الهنـــد تهديدا مباشرا ، ويسعى إلى قطعه في منتصفه .

وإذا كان عبد العزيز قد أحجم عن الاصدام بقوة بريطانيا ، وامتنع عن معاداة حلفائها الأشراف في كل من العراق وشرق الأردن ،في الوقت الذيقام فيه بعملياته في الحجاز ، فان ذلك لم يمنعه من التصريح بمطالبه ، خاصة وأنه شعر بأن حياد بريطانيا في حرب الحجـاز كان لاينفي محاولتها الوصول إلى إنهاك القوى العربية ، الواحدة ضد الأخرى ، بما فيها قوته . ومحاصرته من الجنوب والشمال بشكل واضح .

وتبلور سوء العلاقات مع بريطانيا في الوقت الذي أقام فيه الملك حسين في العقبة وترك ابنه على يحارب الاخوان من جده . فوضح أن الهاشميين يستندون إلى القواعد الحربية البريطانية . ولكن بريطانيا اضطرت إلى إنهاء هذه الأزمة . فأبلغت الحسين في ١٨ مايو سنة ١٩٢٥ أن السعوديين قد أعدوا قوة حربية لمهاجمة العقبة مستندين إلى إقامته بها ، وإلى أن الأشراف يتخذونها – مع معان – قواعد عسكرية ضد الاخوان . فدعت بريطانيا حسيناً لترك العقبة حتى لايتسبب في خلق المشكلات بينها وبين سلطان نجد ، وأصرت بالحاح على سفره منها في أقرب فرصة . ولقد طلب الحسين السماح له بالإقامة

فى حيفا أو يافا ، ولكن بريطانيا رفضت ، وأشارت عليه بقبرص . وكان خروج الحسين من العقبة عاملا من العوامل الذي خدم المصالح البريطانية وخدم كذلك مصالح السعوديين .

ومع ظهور التنافس الاسلامى ، للتدخل فى أمر الخلافة والأراضى المقدسة ، وللتوفيق بين عبد العزيز وعلى ، ثم للحصول على ضمانات بشأن الحرمين ، نجد أن العلاقات السعودية تزداد تحسنا مع بريطانيا . فتستند بريطانيا إلى اتفاقية العقير التى بحثت مشكلات الحدود النجدية مع كل من العراق والكويت ، وترسل المسيو جلبرت كلايتون على رأس وفد للتباحث مع سلطان نجد فى أمر الحدود ، ولإ قرارها بشكل نهائى ، وذلك فى ٩ أكتوبر لجنة ٩٢٥ . وأعلن هذا الوفد أن بريطانيا لا تزال محافظة على حيادها التام فى المسألة الحجازية النجدية ، فظهرت أسس المصالح المتبادلة بين نجد وبريطانيا فى الوقت الذى ثارت فيه المشاكل بين نجد وبقية العالم العربى والإسلامى . ووجد الوفد أنه يريد الاتفاق على المسائل المعلقة بين نجد وشرق الأردن وبين نجد والعراق . وهكذا سعت بريطانيا إلى الحصول على إعتراف عبد العزيز بالوضع الذي أنشأته هى فى الشمال ، بتشييدها لمملكة العراق « الحليفة » ، وإمارة شرق الأرض الموضوعة تحت الانتداب ، وفلسطين الخاضعة للحكم البريطانى المباشر . وفى نظير ذلك تترك بريطانيا لابن سعود أمر الوصول إلى حل فى مسألة الحجاز ، حسب قوته أمام خصومه ، وموقف المنافسين الآخرين منه .

ولم يكن من مصلحة عبد العزيز أن يجادل كثيرا ، خاصة وأن معظم الدول لم تكن قد اعترفت به ، وكان يستند إلى الاتفاقية التى وقعها مع بريطانيا

سنة ١٩١٥ والتى كانت تحدد من مظاهر استقلاله . فساد المباحثات جو ودي طول فترة المفاوضات التى امتدت خمسة وعشرون يوما . وأثنى السعوديون على روح توفيق السويدى ، ممثل العراق فى الوفد البريطانى . فأثبتوا بذلك اعترافهم بحكم « الأشراف » فى الشمال فى الوقت الذى يرفضونه فى الغرب ، واعترافهم بقيام قوميات عربية « محلية » فى الوقت الذي لا يرضون عن الوحدة العربية بديلا فى مسألة الحجاز .

ولقد أسفرت هذه المفاوضات عن وضع اتفاقيتين : الأولى هى اتفاقية بحره التى عالجت المسائل العراقية النجدية ووقعت فى أول نوفمبر سنة ١٩٢٥، والثانية هى اتفاقية حداء بين شرقى الأردن ونجد ووقع عليها فى اليوم التالى . ولقد أدخلت هـــذه الاتفاقية الثانية بعض التعديلات الطفيفة على الممر الصحراوي الشمالى الذى يصل شرقى الأردن بالعراق ، ولكنها تركت مسألتى معان والعقبة ، وتركتهما فى صمت ، أى تركتهما للأمير عبد الله . واستند عبد العزيز بن سعود إلى هاتين الاتفاقيتين لإضعاف الملك على فى جدة ولضم الحجاز بأكمله إلى نجد .

وبعد إعلان عبد العزيز نفسه ملكا على الحجاز ، أرسلت بريطانيا مرة جديدة السير جلبرت كلايتون للتفاوض من أجـل عقد معاهدة بريطانية ـ سعودية تحل محل الاتفاقية السابقة المعقودة مع السلطات البريطانية فى الهند ـ سنة ١٩١٥ والتى أصبحت غير ذات موضوع . وتم التوقيع على هذه المعاهدة فى جدة فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٧ واعترفت فيها بريطانيا باستقلال عبد العزيز ابن سعود بمركز بريطانيـا الخاص فى كل من البحرين وشياخات الخليج العربى ، وتعهد كذلك بالتعاون مع السلطات البريطانية من أجل إلغاء تجـارة

الرقيق . وفى مذكرة ملحقة بالمعاهدة اعترف ملك الحجاز بامتلاك شرق الأردن لكل من معان والعقبة .

وهكذا نجد أن بريطانيا لم تتعهد هـذه المرة باعطاء عبد العزيز بن سعود أية معونة مالية ، ولم تحاول أن تحد من استقلاله ، فأنهت بذلك أسس الخلافات السابقة ، ووطدت صداقتها معه على أسس ثابتة . ولكن وضعية عبد العزيز قد تغيرت ، إذ أنه أصبح رأسا متوجـة لدولة ، أى لإحـدى « الوحدات » فى العالم العربى بعد أن كان شيخا لعشائر نجد ، وأهم من كل ذلك رئيسا « لحركة » إسلامية وعربيه .

٣ — اعلان وحدة المملكة :

تطورت سلطة عبد العزيز آل سـعود مع تطور الأحداث وتلاحقها فى شبه الجزيرة العربية . وأخذ هذا التطور يؤثر على العالم العربى وعلى السياسة الدولية منذ بدء عملياته فى الحجاز بشكل عام ، وبعد وصوله إلى اتفاق مع بريطانيا بشكل خاص . فاتخذت سلطته شكل الدولة التى تعترف ـ بالتزاماتها فى المحيط العالمى ، وتكبح بالتـالى أو تلغى أو تتناسى مقوماتها الثـورية . فما أن تم الاتفاق بين عبد العزيز من ناحية ، وبريطانيا وحلفائها فى العراق وشرق الأردن من ناحية أخرى ، حتى ظهر الانقسام واضحا بين سيد الجزيرة وبين زعماء الأخوان وقادتهم . وأدي هذا الانقسام إلى تبلور ثم إلى اصطدام بين القوي الوهابية وبين قوة الدولة الناشئة . وأصبح مستقبل الجزيرة العربية متوقفا على نتيجة هذا الصراع .

أعلن قائدان من قواد ابن سعود الثورة عليه بمجرد اتفاقه مع السير جلبرت كلايتون بشأن مسائل الحدود مع كل من العراق وشرق الأردن . وهما فيصل

الدويش وسلطان بن بجاد . وكانا من أكبر قواد الاخوان ومن الدعائم التى استند إليها ابن سعود فى مد سلطته فى شبه الجزيرة العربية ونجح كل منهما فى الخروج على رأس فرقة من الاخوان . وعارضا الاتفاقيات السعودية البريطانية واتهما عبد العزيز بالكفر نتيجة لمهادنته الكفار واعترافه بهم ورموه بأنه لم يكن إلا طالب ملك . وأردفوا ذلك بانتقاد وسائل الحضارة الحديثة التى يستخدمها ابن سعود من هاتف وبرق للقيام بدعاية ضده . وحاولوا مواصلة الكفاح من أجل الوهابية فى شكلها البدائى من ناحية ، وأبطال هذه الاتفاقيات بمهاجمة حدود العراق وشرق الأردن من ناحية أخرى .

ورأى ابن سعود مع تطوره وتطور سلطته أن هذا القسم من الاخوان يأبى التطور ، فاتهمهم بالهمجية والرجعية . واضطر أمام هذا الانشقاق إلى الاعتماد إلى درجة كبيرة على أسرته آل سعود لكى يسد النقص فى القيادة . فجاء هذا مدعما لظهور أسرة عربيه حاكمة ، ولاضطراد نموها وازدياد نفوذها . فنمت سلطة الدولة وتبعها بالتالى ازدياد اختصاصات الملك ، وقلة الشورى وتقليم أظافر الأخوان ، والحد من قوة الدعوة الوهابيـة . بل لقد اضطر عبد العزيز إلى التعاون مع القوات العراقية والأردنية وسلاح الطيران البريطانى المرابط فى كل منهما للقضاء على هـذه القوة البدائيـة التى كانت الأساس الأول لقيام حركته ثم دولته .

واستعد عبد العزيز للقضاء على هؤلاء الثوار . فجمع قوة من الفرســان والمقاتلين بلغ عددها أربعين ألفا . وكان عدد الثوار لايزيد على أربعة آلاف ووقعت المعركة الأولى فى السبة ، وتولى عبد العزيز آل سعود نفسـه قلب الجيش وولى أخاه محمد بن عبد الرحمن الجناح الأيسر ، وابنه سعـود الجناح

الأمن . ورغم اشتداد المعركة فانها لم تكن حاسمة إذ تمكن كل من فيصل الدويش وسلطان بن بجاد من الانسحاب رغم خسائرهما .

ولكن سلطان بن بجاد اضطر الى طلب العفو من عبد العزيز آل سعود ثم سلم نفسه فى الرياض ، فاحتفظ به الملك سجيناً نظراً لخطورته على الأمن العام . واشتبك حاكم إقليم حائل مع إحدي القوات التابعة لفيصل الدويش وقتل معظم رجالها ، ومن بينهم إبنه . ورغم ذلك فان الثوار واصلوا الهجوم وعمليات السلب والنهب وهددوا المواصلات فى شبه الجزيرة العربية كلها رغم أن قواعدهم الأساسية كانت فى المنطقة الواقعة بين الاحساء والكويت وخشى ابن سعود من أن يلتجىء الثوار الى العراق ومن أن يتخذهم الهاشميون والبريطانيون وسيلة لاقلاقة فى بلاد خاصه وأنه قد سمع باتصال الديش بكلوب (أبى حنيك) ، المفتش الادارى للبادية الجنوبية فى العراق فى ذلك الوقت . استند عبد العزيز الى مركزه الدولى والى الاتفاقيات المعقودة مع العراق ، وأبلغ المندوب السامى البريطانى فى بغداد أنه قد سار على رأس قوانه لتأديب الثائرين الذين قامت عليهم قائمة الحكومات البريطانية والعراقية والكويتية بعد أن قتلوا رعاياها وعاثوا فى أرضها فساداً ، وطلب منه أن تنفذ بريطانيا تعهداتها التى قطعتها على نفسها باخراج « المجرمين » من المناطق الخاضعة لنفوذها . ولكن السلطات العراقية كانت قد رفضت مساعدة الثوار فخرجوا منها الى الكويت فكتب ابن سعود الى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج العربى مذكراً أياه بتعهدات بريطانيا حياله فى هذا الشأن . فاضطرت السلطات البريطانية الى القاء القبض على فيصل الدويش ورجاله على إحدي البواخر الحربية حينما طلبوا حق الالتجاء السياسى ، بعد أن انهكت قواهم ثم قامت بنقلهم جويا وسلمتهم الى ابن سعود الذى زج بهم الى السجن .

اضطر اذن عبد العزيز آل سعود فى الناحية الداخلية الى الاعتماد على قوة عصبيته وأسرته أمام هذا الانفصال الذي وقع فى جبهة الاخوان .

وازدادت سيطرة السعوديين على أمور شبه الجزيرة العربية مع القضاء على بعض القيادات القديمة. فازدادت سلطة الأسرة الحاكمة التى ربطت نفسها بعلاقات المصاهرة مع معظم القبائل. ومع ازدياد سلطة الأسرة الحاكمة والدولة قلت الفوارق بين الاقاليم العربية . سمح ذلك لعبد العزيز آل سعود بتوحيد ممتلكاته فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ تحت اسم المملكة العربية السعودية . وأقام إبنه سعوداً نائباً عنه فى الرياض وولياً للعهد ، كما أقام ابنه فيصلا نائباً عنه فى الحجاز ووزيراً للخارجية نظراً لمعرفته اللغات الاوربية ووجود السفارات الأجنبية فى هذا الاقليم ولقد نجحت هذه الادارة القوية فى الضرب على أيدي العابثين وفى إقرار الأمن بشكل غير من تاريخ البلاد .

واضطر كذلك عبد العزيز آل سعود فى الناحية الخارجية والدولية إلى التعاون مع السلطات البريطانية للمحافظة على الأمن والنظام على الحدود . فأصبح رأسا لدولة تعترف بالتزاماتها حيال جيرانها ، وتعترف بالتى بهم . واضطر إلى نسيان العداوة التقليدية بين السعوديين والهاشمين أو تناساها ، حتى يدعم الوضع القائم ، ويمنع أي تهديد يقوم به الهاشميون فى الشمال ضد ملكه . ولما كان النفوذ البريطاني متفوقا فى مناطق حكم الهاشميين فقد أصبحت كل عداوة أو جفاء بين السعوديين والهاشميين أو بينهم وبين البريطانيين غير ذات موضوع . فوافق ابن سعود على مقابلة الملك فيصل الأول وتمت المقابلة فى بارجة حربية بريطانية راسية فى ميناء الخليج العربى . ولعبت بريطانيا دور حمامة السلام بين ملوك العرب ، واستقر الوضع الذي رسمته

لخدمة مصالحها ، ويتعانق الملكان ويتعاهدا على العمل من أجل « البلاد » العربية . وشهدت سنة ١٩٣٠ التوقيع على معاهـدة « صداقة » بين المملكة العربية السعودية والعراق ، كما شهد عام ١٩٣٣ إبرام معاهدة « صداقة » أخرى مع إمارة شرق الأردن . وهكذا نصل إلى هذه المرحـلة الجديدة ، مرحلة « الصداقة » بين « البلاد » العربية وعلى إحدى البوارج البريطانية ، بعد أن كانت صرخات العروبة تدوي سنة ١٩١٦ بالوحدة والاستقلال .

وإذا كانت هذه هى الخطوط العامة للتطورات السياسية والاجتماعيـة فى هذه المنطقة فلا يمكننا مواصلة تاريخ المملكة العربية السعودية دون التحدث عن التطورات الاقتصادية وتأثيرها بالتالى على السياسة والمجتمع .

٤ ـ البترول وامريكا :

كان إكتشاف البترول فى أراضى المملكة السعودية عاملا هاما رئيسـيا أثر فى تاريخ هـذه المملكة وفى تطور الحيـاة الاجتماعية والاقتصادية فيها . وأثر كذلك فى موقفها من القوي العربية الأخري فى الفترة التالية التى وقعت فيها الحرب العالمية الثانية وما تلاها من أحداث حتى يومنا الحاضر .

وقد أعطت المملكة العربية السعودية امتياز استخراج البترول فى ٢٩ مايو عام ١٩٣٣ إلى شركة زيوت استاندارد كاليفورنيا Standard Oil Compny of California وذلك لمدة ستين عاما وفى منطقة واسـعة فى شرق المملكة . فتكونت نتيجة لذلك شركة استاندارد كاليفورنيا العربية لاستغلال هـذه المواد . ولمـا انضمت إليها شركة بترول تكساس فى العـام التالى ، تألفت منهما الشركة العـربية الأمريكية للبترول وهى المعروفة باسم (أرامكو) . وكانت المملكة العربية السعودية تجتاز أزمة اقتصادية عصبية فى هذه السنوات

نتيجة لقلة عدد الحجـاج ، وكانوا موردها الاقتصادى الرئيسى ، ونتيجة بالتالى للأزمة الاقتصادية العالميـــة فى أوائل الثلاثينات . فطلبت الحكومة السعودية من هذه الشركة أن تقدم لها قرضا يبلغ ٣٠٠٠٠ جنيه انجليزى (من الذهب) حتى تتمكن من تصريف أمورها . ورغم صعوبة المناخ الذى عملت فيه الشركة وافتقارها إلى تأييـد رسمى من حكومة الولايات المتحـدة . التى أحجمت عن تشجيع مشروعات اقتصادية فى مناطق قريبة من النفوذ البريطانى ، فان تقارير الخبراء عن كمية البترول الموجودة دفع بالشركة إلى أن تقدم هذا القرض دون تردد . وسرعان ما حفرت الآبار فى مناطق الظهـران والدمام وأبى حضريه فى إقليم الإحساء . واكتشفت أن كمية البترول المخزونة تحت الأرض تفوق أضعاف أضعاف ما جاء فى تقارير الخبراء الأوائل . فشجع ذلك كل من شركة أرامكو والمملكة العربية السعودية على مواصلة التعاون وبخاصة بعد استخراج البترول بكميات كبيرة .

وساعدت إيرادات البترول المملكة العربية السعودية على إدخال وسائل الحضارة والمدنية الحديثة فى بلادها ، من إنشاء الطرق ووسائل المواصلات والتعليم . ودخل العمران فى مناطق كثيرة منها . وتمكنت الحكومة من إنشاء إدارة حديثة واستخدمت فيها الموظفين من كل البلاد العربية وبخاصة من سوريا وفلسطين ومصر. واستندت الحكومة السعودية إلى موارد ثروتها الجديدة ، وإلى الخبرة الفنية لكى تسير بخطوات واسعة وسريعة إلى الأمام .

وأصبحت حقول استغلال البترول أساسا لنشأة « صناعة » حديثة فى إحدى البلاد العربية وصحبها ظهور طبقة خاصة من العمال لهم شخصية وعقلية تختلف تماما عن عقلية ونفسية الرعاة والزراع والتجار . وكان هـذا التطور

خطير فى الحياة الاجتماعية وبخاصة فى إقليم الاحساء .

كما كانت موارد البترول العربى أساسا لاتجاه جديد فى السياسة العربية ، وهو الميل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وتفضيلها على غيرها من الدول الصديقة الخارجيـة . وأملى البترول على الملك عبد العزيز بن سعود موقفه فى التنافس الدولى الذي بدأ فى الثلاثينات بين الدول النازية ، أي دول المحور من ناحية ، وبين الحلفاء ، أو الدول الرأسمالية من ناحية أخرى .

فلقد عرضت عليه اليابان فى عام ١٩٣٧ عرضا مغـريا لاستغلال البترول العربى ويفوق بمراحل شروط الاستغلال الأمريكى ، ولكن عبد العزيز رأى أن هذا العرض يسعى إلى الحصول على نتائج سـياسية ، فرفضه . وحاولت ألمانيا كذلك فى نفس السنة إبعاد أمريكا عن هذه المناطق ، فقـام الدكتور فريتزجروبا Dr. Fritz Grobba وزيرها المفـوض فى العراق والمملكة السعودية . بالانتقال من بغداد ـ مقر منصبه ـ إلى جدة ـ وعرض على ابن سعود عروضا جديدة . ولكن عبد العزيز رفضها ، مفضلا إستمرار التعاون مع الأمريكيين ، ومواصلة العمل من أجل بنـاء دولته دون إقحامها فى ميادين التنافس الدولية ، أى أنه فضـل العمل فى اتجاه واحد يسمح له بالاستقرار والمواصلة ، والحصول على نتائج ملموسة .

وأعطى الملك عبد العزيز لشركة أرامكو امتيازا جديدا لاسـتغلال البترول فى ٣١ مايو سنة ١٩٣٩ وظهر أن اتجاهه السياسى قد تحدد بالخطوط التى يسير عليها فى اقتصادياته . ومع مجىء الحرب العالمية الثانية أصبحت المملكة العربية السعودية قلعة من أهم قلاع الديموقراطيات الغربية فى العـالم العربى ، وأصبحت تميل إلى الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من ميلها إلى غيرها من

دول الحلفاء الغربيين ، بل أصبح استغلال البترول عاملا للتنافس بين أمريكا وبريطانيا فى المنطقة .

* * *

وهكذا نجح عبد العزيز بن عبد الرحمن فى السيطرة على وسط الجزيرة العربية واستند إلى قوة إسلامية أفاد منها وقت انعزال الأشراف فى الاستيلاء على الحجاز ، ونجح فى بناء دولة تخلصت من النفوذ البريطانى ولكنه اضطر إلى أن يعترف بالتزاماته تجاه الدول العربية الأخرى التى نشأت بمساعدة الحلفاء بعد الحرب العالمية الأخرى . وسمحت له إمكانياته الاقتصادية بالسير فى طريق وارف مستظل بالدولارات .

الفصل الرابع

اليمن

إذا كان عبد العزيز آل سعود قد أثر تأثيرا واضحا في تاريخ بلاد العرب المعروفة باسم الصحراء الغربية Arabia Deserta فقد كاد أن يؤثر أيضا في تاريخ بلاد العرب السعيدة Arabia Felix وهى اليمن ، خاصة وأنه حاربها فى عام ١٩٣٤ ، أي بعد العثور على البترول فى أراضيه بعام واحد ، وكاد أن يضمها لملكه . فلا يتم الحديث عن شبه الجزيرة العربية دون التحدث عن اليمن ، ومعرفة تطور كفاح العرب فيها ضد الاستعمار ، خاصة وأنها كانت تتميز عن غيرها من الأقاليم العربية ، وفى كثير من المقومات والعوامل .

١ – الامام يحى والزيدية

دخل اليمن تاريخه الحديث منذ أن تولى أموره الإمام يحيي « المتوكل على الله » فى عام ١٩٠٦ . ورغم أن ترتيب هذا الامام كان هو السابع والثمانين فى قائمة الأئمة اليمنيين من نفس الأسرة ، إلا أنه هو الذى أعاد بناء هذه الدولة حتى أصبحت تنتسب إليه ، وتسمى بالدولة المتوكلية اليمنية .

وكانت الدولة العثمانية تحتل اليمن منذ عهد سليمان القانونى ودفعها إلى ذلك الاحتلال ضرورة توحيد البلاد العربية والإسلامية فى جبهة واحدة تحت ادارة مركزية ، يمكنها أن تدافع عنها أمام هجمات الأعداء ، وترد عنها أطماع الأجانب المستعمرين . وكان لموقع اليمن الاستراتيجى أهمية خاصة فى أعين رجال الدولة العثمانية ، إذ كان يسمح لهم بالتحكم فى المدخل الجنوبى

للبحر الأحمر ، ويمنعون بذلك سفن البرتغاليين من الدخول فيه ، ومن مهاجمة سواحل مصر والأراضى المقدسة ، كما كان يسمح لهم كذلك باقامة قواعد على مياه المحيط الهندى الذي ازداد فيه خطر الاستعمار الأوربى فى ذلك الوقت وبخاصة على سواحل شرق أفريقية وسواحل الهند الاسلامية . ويذكر التاريخ تلك الصفحة الطويلة من الصراع بين المسلمين وعلى رأسهم الدولة العثمانية ، وبين قوي الاستعمار التى توغلت فى المحيط الهندي ، منذ مجىء البرتغاليين والهولنديين حتى مجىء الفرنسيين والبريطانيين . ولقد حاول كل منهم الاستيلاء على مناطق فى جنوب اليمن . وخاصة فى عدن أو قربها ، حتى يدعم خطوط مواصلاته ، ويفرض كلمته على الشرق ، وينفرد باستغلال موارده . وتوصلت بريطانيا فى عام ١٩٣٩ إلى الاستيلاء على عدن فى الوقت الذي استعدت فيه لمهاجمة الدولة المصرية التى أنشأها محمد على ووحد بها دول الشرق العربى . وبقيت هذه القاعدة الاستعمارية عاملا هاما يؤثر فى الموقف السياسى والاستراتيجى فى العالم العربى ، ويؤثر فى علاقة القوات العربية والإقليمية الواحدة بالأخرى وحتى وقتنا الحاضر .

ولكن بقاء الاستعمار البريطانى فى جنوب اليمن لم يؤد إلى تدعيم العلاقات بين القوى العربية والإسلامية فى هذه المنطقة . فنجد أن العثمانيين يحاولون فرض « الوحدة » على اليمن ، ونجد اليمنيين يحاولون من جانبهم التملص من هذه الإدارة العثمانية وبخاصة فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين فأرسلت الدولة العثمانية حملات متتالية إلى هذا الإقليم العربى ، بقيادة الغازي مختار باشا ، ثم أحمد فيضى باشا ، ثم عزت باشا الالبانى. وسارت الحملتان الأخيرتان على اليمن فى عهد الإمام يحيي فى سنة ١٩٠٦ وسنة ١٩١٠ . فهل كانت العوامل

الداعية إلى التفرقة بين العرب والمسلمين أقوي من عوامل توحيد الجبهة ، وبخاصة أمام وقوف القوي الإستعمارية على الأبواب .

كان المذهب الدينى السائد فى اليمن ، ومنذ قرون ، يختلف عن المذاهب السائدة فى الدولة العثمانية . فبينما كان المذهب الشافعى السنى هو المذهب الرسمى للدولة ، كان المذهب الشيعى الزيدي هو السائد فى اليمن منذ القضاء على القرامطة فى عصر الدولهالعباسية . ولكن الكفاح بين أهل اليمن والدولة العثمانية لم يأخذ اللون المذهبى، ولم يحاول اليمنيون توحيد مجهوداتهم مع غيرهم من الشيعة فى مسقط أو فى العراق . وحتى إذا أخذنا جدلا بسيادة الجهل ، فلا يمكننا أن نلغي وجود المنطق ولو بشكل بدائى . فنرفض هذا العامل المذهبى كأساس لتدهور علاقة اليمنيين بالدولة العثمانية .

وكذلك الأمر إذا حاولنا أن نري أساس المشكلة يستند مثلا إلىظهور شخصية قوية فى اليمن تسعى إلى بناء دولة مستقلة تنفصل بها عنجسدالدولة، إذ أن يحيي بن محمد حميد الدين لم يسبغ على نفسه ألقاب الملك ، بل ولم يحاول من جانبه بناء جهاز حكومة يسمح لة بالوصول إلى ذلك .

فلنبحث إذن عن عوامل أخرى :

إن الشخصية الأولى فى اليمن تحتفظ لنفسها بلقب« الإمامة »:الامام يحيى فالمسألة تتعلق اذن بادارة شئون المسلمين . وهذا هو أساس الاختلاف بين اليمن وبين الدولة العثمانية . وإذا رجعنا إلى مطالب الامام ، لثبت لنا أهمية هذا العامل ، وخطورته على الوضع القائم فى جنوب الجزيرة العربية .

فما أن حصل الامام يحيي على البيعة حتى أذاع منشورا للتعبئة وللجهاد

ضد الترك : (الذين سعوا فى الأرض بالفساد ، وتركوا الشرائع ، وظلموا العباد) . فسوء الادارة العثمانية والظلم لهما مكانهما ، وترك العمل بالشريعة الاسلامية له مقامه . وما دام رأس هذه الحركة يحتفظ لنفسه بلقب الامامة فتطبيق الشريعة الاسلامية يزيد فى أهميته على سوء الادارة .

فيمكننا أن نربط بين كفاح اليمن اذن ضد الدولة العثمانية وبين تلك الحركات التى انتشرت فى المناطق الإسلامية الأخري ، فى السودان ، ووسط الجزيرة ، والصحراء الليبية ، وزادت قوته منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وجاءت نتيجة مباشرة لموافقة الدولة العثمانيـــة على نصائح الغرب بادخال « وسائل الادارة الحديثة » فى أقاليمها. وكانت الدول الغربية تسعى للوصول إلى مرحلة تعترف بالمساواة بين المسلمين والمسيحيين وبخاصة فى البلقان التى بدأت شعوبها تدخل فى مرحلة « القوميات » ووافقت الدولة العثمانية على تطبيق تشريعات وضعية ، والسير على طرق حديثة فى ادارتها . ولكن هذه « التشريعات الوضعية » كانت صدمة عنيفة للشعوب المتدينة التى لا ترضى بالشريعة الإسلامية بديلا ، بل ولا تعترف بشرعية حكم من يفرض غيرها . وهكذا نرى أن هذه السياسة أدت إلى زيادة حقوق الشعوب المسيحية فى البلقان من ناحية ، وعملت على التفرقة بين المسلمين ، حتى وإن كانوا من العرب ، من ناحية أخرى . وقسمتهم إلى أنصار للتحرير من بين ذوى الثقافة الحديثة ، وأنصار للشريعة ، من بين ذوى الثقافة الاسلامية التقليدية . وكان الامام يحيى على رأس هذا القسم الثانى والذي كان ينتمى إليه أغلبية اليمنيين فى مطلع القرن العشرين .

فرغما عن وجود البريطـانيين فى عدن ، بدأ الامام يحيى بالكفاح ضد

الدولة العثمانية التى تركت الشرائع الاسلامية جانبا . ولا شك أن الأتراك أنفسهم قد احترموا هذا الموقف من الإمام . فبعد أن نجح أحمد فيظى باشا فى الدخول إلى صنعاء سنة ١٩٠٦ ، طلب إلى الإمام أن يتقدم بمطالبه . وكانت طلبات الامام تتلخص فى ضرورة (تطبيق الأحكام على الشريعة الغراء) وعدم تولية أحد من أهل الكتاب على المسلمين، وترك الامام يتصرف فى أمور تعيين القضاة وحكام الشرع وعزلهم ومعاقبة الخائنين والمرتشين ، وإقامة الحدود الشرعية على مرتكبى الجرائم من المسلمين واليهود ، كما أمر الله تعالى بها وأجراها رسوله (صلعم) ثم أبطلها الموظفون الترك فى اليمن ، وكذلك فى اشرافه على الأوقاف الانفاق منها على التعليم. وترك الامام للدولة العثمانية أمر المحافظة على أمن اليمن الخارجى من اعتداء الدول ، وجباية الأموال بواسطة مشايخ البلاد وتحت نظارة مأمورى الدولة . دون أن تكون له أية علاقة باستلام الأموال الأميرية ، وكذلك تخصيص الرواتب للحكام والمأمورين . كما طلب اعلان العفو العام فى اليمن ، واعترف بسلطان الاسلام ودعا الله أن يؤيد ملكه .

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه الشروط إذ رأت فيها انتقاصا لحقوق سيادتها وتناقضا مع السياسة التى رسمتها وحاولت تطبيقها ، لادخال وسائل الادارة الحديثة فى أقاليمها ، والدخول فى زمرة «المجتمع» الأوربى الحديث وحاولت أن تثبت للامام أن هذه الادارة الحديثة لا تتعارض مع الشريعة الاسلامية ، فأرسلت له وفدا لمناقشته يتألف من عشرين عالما من علماء الحجاز ولكن الامام يحيى شرح لهم أن أجداده لم تكن لهم ارادة (سوى الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر المخوف ، واقامة الشريعة ، وتعديل المسائل ، وارشاد الجاهل ، وتقريب المؤمنين وارشاد الظالمين) ثم شرح ما كان بين

والده وبين الموظفين الأتراك الذين تنوعت معاصيهم وارتكبوا الشهوات ظاهرا بلا حياء واحتشام (حتى مضى لسبيله ... فانتصبنا لذلك المقـام ، ولم نقم والله لدرهم ولا لدينـــار) . وختم باصراره على موقفه ، بمحاولة إكتساب علماء الحجاز إلى نظريته : (ها نحن نناشدكم الله والاسلام ، هل تجدون ناسخا للامر بالمعروف والنهى عن المنكر المخوف ؟ أم هل تجدون من محرم للدفاع عن الأموال والأعراض والنفوس والبنين والبنات ؟ أم هل من مانع لقتال من أضاع أركان الإسلام ؟ أم هل من تثريب على من اقتضى الأثر بآيات قرناء القرآن والحجة على الأمة فى كل عصر وأوان ؟ الذين أوجب الله محبتهم عـلى كل بنى الإنسان ، أم هل من ناسخ لآيات ومن لم يحـكم بما أنزل الله ؟ [1] .

فتظهر أسس الخـــلاف بين اليمن والادارة العثمانية واضحة اذن ، رغم وجود القوي الإستعمارية فى عدن فى جنوب اليمن ، وازدياد الأطماع الاستعمارية على سواحل اليمن الغربية المطلة على البحر الأحمر .

فشلت الدولة العثمانية فى الوصول إلى حـــل لمشكلة اليمن وقامت ثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ وجاءت تدافع عن مبادىء تزيد فى تعارضها مع اتجاه اليمن عن الاتجـاه السابق فى العصر الحميدي . إذ أن رجال الاتحـاد والترقى كانوا يهدفون إلى الوصول إلى « توحيد » الامبراطورية العثمانية على أسس مركزية فى الإدارة . فيصبح الجميع عثمانيين لهم نفس الحقوق ، وعليهم نفس الواجبات . فلا فرق بين العربى والكردي ، بل ولا فرق بين المسلم والذمى . فوجدت الحكومة الاتحادية أن من واجبها القضاء على هـــذه « المقاومة » المعلنة فى جنوب الجزيرة العربية ، وأرسلت ضدها حملة عسكرية بقيادة عزت

---

(١) أنظر أمين سعيد : اليمن
القاهرة : دار احياء الكتب العربية ١٩٥٩ — ص ٣٠ — ٣١

باشا الالبانى سنة ١٩١٠ وشارك فى أركان حربها كل من عصمت (اينونو) وعزيز على المصري وسليم الجزائرى . كان على هذه الحملة أن تخضع اليمن ونقضى على النزعة التقليدية الموجودة فيه ، حتى يتم التقارب بينه وبين بقية أنحاء الامبراطورية . ولكن نجد أن عاملا آخر تدخل فى المسألة ، وفى صالح اليمن .

ذلك أن رجال الاتحاد والترقى كانوا ، رغم إصرارهم على ضرورة تطبيق الإدارة المدنية ، يحترمون الروابط الإسلامية أعمق الاحترام . وسرعان ما أخذوا على أنفسهم إعادة تطبيق « السياسة الإسلامية » التى سار عليها السلطان عبد الحميد فى الماضى. وزاد مع الأيام اقتناعهم بضرورتها لامبراطوريتهم وخاصة فى الأقاليم الاسلامية التى لا توجد بها أية أقليات مسيحية . فأخذ ضباط الحملة من الأتراك والعرب فى التفاوض مع الإمام يحيى ، ووصلوا معه إلى اتفاق عقد فى دعان ، إحترم حقوق السيادة العثمانية واعترف باستقلال اليمن داخليا ، وخاصة فى شأن تطبيق الشريعة فأصبح للامام حق انتخاب حكام مذهب الزيدية ، وانتخاب القضاة بما فيهم أعضاء محكمة الاستئناف ورئيسها ، على أن تصدق القسطنطينية على هذا الاختيار . وكذلك أصبح الامام هو المشرف على جميع شئون الأوقاف والوصايا ، وأصبح من حقه استلام الهدايا والهبات من الزيود والمشايخ ، ونصت الاتفاقية على ضرورة جباية التكاليف الأميرية (بحسب الشرع) وتعهد الامام بدفع عشر حاصلاته للدولة .

ونظمت هذه الاتفاقية علاقة إقليم أو ولاية اليمن مع الدولة العثمانية حتى خروج تركيا من الحرب العالمية الأولى ، وانسحابها من كل أقاليمها العربية واعترفت بمركز الزيدية ، وبمركز خاص للامام يحيى فى جنوب الجزيرة .

٢ — اليمن فى الحرب

أن تحسن العلاقات بين الامام يحي والدولة العثمانية باتفاقية دعان سنة ١٩١٠ لم يقض على كل الأخطار التى كانت تهدد اليمن. إذ أن قوات بريطانيا الاستعمارية كانت تستند إلى قاعدة عدن وتحاول التوسع منها بين مشايخ العرب ورؤسائهم فى جنوب الجزائر. وكانت منطقة العسير فى شمال اليمن فى ثورة معلنة على الدولة العثمانية وبقيادة محمد على الأدريسى. وجاء العام التالى لكى يشهد اعلان ايطاليا الحرب على الدولة العثمانية، وارسال حملة بحرية وبرية قوية لاحتلال ولاية طرابلس الغرب ومتصرفيه بنغازي. وزاد شعور ايطاليا بعجزها عن غزو هذين الاقليمين العربيين فأرسلت وحداتها البحرية لضرب الموانى العثمانية فى الشام ومصر والحجاز واليمن. واحتلت جزر الدود يكانيز، وتدخلت فى ثورة العسير، وهى ما تهمنا بنوع خاص.

أثارت الحرب الايطالية التركية فى طرابلس شعور العرب والمسلمين ووحدت بين صفوف أبناء الشرق الأدنى، فزاد اقترابهم من بعضهم ووضحت المصالح المشتركة بينهم وظهر رجحان كفة من يعملون من أجل الرابطة الاسلامية، ومن بينهم الامام يحي وزاد من قيمة التجربة أن محمد على الادريى (صاحب صبيا) تعاون مع ايطاليا واستلم منها الأموال والأسلحة والذخائر وقبل حضور بعثة عسكرية ايطالية لتنظيم وتدريب رجاله واعدادهم لمحاربة دولة الخلافة. فلم تتدخل اليمن فى هذه الحركة وبقيت موالية للدولة العثمانية محافظة على روابطها الاسلامية معها، واستمرت فى هذا الموقف بعد أن أعلنت الحرب العالمية الأولى، وطوال مدة هذه الحرب.

وزادت أهمية اليمن من الناحية الاستراتيجية نتيجة لموقعها الجغرافى فى أقصى الجنوب العربى ، مجاورة لعدن ، ولمضيق باب المندب ، وقريبة من الساحل الأفريقى. وشعرت القيادة العثمانيةوحلفاؤها الألمان بأهمية هذا الموقع فحاولوا استغلاله فى مهاجمة عدن وإخراج البريطانيين منها ومن « محميات الجنوب » ، وفى التحكم فى مضيق باب المنـــدب وإغلاق البحر الأحمر من الجنوب فى الوقت الذي يقوم به جمال باشا بمهاجمة قناة السويس وقطع طريق المواصلات البحرى للحلفاء من الشمال . بل لقـــد كان فى استطاعة الأتراك والألمان أن يتصلوا لاسلكيا من اليمن بمستعمرة تنجانيقا الالمانيـة فى شرق أفريقية ويتعاونوا معها فى مطاردة البريطانيين فى كينيا وزنزبار ، وكان فى استطاعة العثمانيين أن يتخذوا من اليمن قاعدة لامداد محمد بن عبد الله حسن فى الصومال بما يلزمه من أسلحة وذخائر ، ويساعدونه فى الحرب التحريرية التى بدأها سنة ١٨٩٨ ضـــد كل من البريطانيين والفرنسيين والايطاليين والاحباش فى منطقة الصومال . وزادت أهمية اليمن وضوحا سنة ١٩١٦حين أشهر امبراطور الحبشة ليج يسوع إسلامه وأعلن الحرب على « الحلفاء » وانضم إلى دول الوسط وطلب إلى الدولة العثمانية أن تعترف به كأمير مسلم يحارب فى جانبها الاستعمار الغربى. لقد كان فى استطاعته أن يسير غربا لاخراج البريطانيين من الخرطوم فى الوقت الذي تزحف فيه قوات السلطان على دينار من دارفور على الضفة الاخرى لوادى النيل .

لقد كان فى استطاعة الاتراك أن يحصلوا على كل هذه المزايا من قواعدهم فى اليمن. وساعدهم على ذلك أن الإمام يحى كان من أنصار الحركة الاسلامية التكتلية والتقليدية ، فى الوقت الذى ظهرت فيه الآراء الغربية ، الانفصالية التحررية ، فى الشام والعراق . فأرسلت الدولة العثمانية فرقتين عسكريتين

إلى اليمن ، وساعد مجيء هذه القوات على القضاء على كل أمل لدى البريطانيين في عدن أو في لندن لنجاح المفاوضات السرية التي حاول المقيم السياسي البريطاني في عدن أن يبدأها مع الإمام يحيى . ذلك أن الامام قد احتفظ بموقف سلبي تجاه البريطانيين ، وحتى النهاية . بل لقد قامت القوات العثمانية في اليمن ، وبمساعدة الزيود بالتوغل في منطقة المحميات البريطانية في الجنوب ونجحت في تحرير سلطنة لحج . ولكنها لم تقو على مهاجمة عدن نفسها ، وخاصة بعد أن نقلت بريطانيا بعض وحداتها المحاربة من مصر إلى جنوب شبه الجزيرة .

وحاولت الدولة العثمانية أن ترسل إمداداً إلى اليمن ، فجهزت قوة تبلغ ٣٥٠٠ جندي بقيادة خيري بك ، وكان عليها أن تتعاون مع إحدى البعثات الألمانية التي ترغب في العمل في قنفذة وتفتح ميادين جديدة ضد قوات الحلفاء سواء أكان ذلك مع شرق أفريقية أو على مياه المحيط الهندي. ولكن الشريف حسين علم بأمر هذه الحملة من جمال باشا ، فأعلن ثورته على الدولة قبل وصولها إلى جدة ، واضطرت الحملة والبعثة الى الرجوع إلى الشام .

ورغم أن إعلان الثورة قد حرم الامام يحيى من المدد وقطع خطوط مواصلاته مع الدولة العثمانية وقضى على كل أمل له في زحزحة البريطانيين من الجنوب العربي ، فانه لم يغير من موقفه الودي تجاه تركيا ، فأعطى لرجال الحامية العثمانية في بلاده ما يحتاجون اليه ، وقدم لهم القروض حين انقطع وصول رواتبهم .

واضطرت تركيا إلى قبول هدنة مودروس ، وخرجت من الحرب مستسلمه بلا قيد ولا شرط . فطلب القائد العام للقوات البريطانية في عدن

من القائد العثمانى فى اليمن ومن الوالى ، التسليم والخروج برجالهم من الاقليم. واتصل فى نفس الوقت بامام اليمن ، وأبلغه ضرورة جلاء القوات العثمانية وإدارة هـذه الدولة من بلاده . وحاول كل من الامام والقـائد العثمانى الاتصال بالدولة العثمانية ، وإبقاء القوات والادارة فى اليمن . ولكن القيادة البريطانية أصرت على ضرورة تسليم الاسلحة ، والانسحاب والجلاء . فقرر القائد العثمانى ترك أسلحته وذخائره ومعداته لليمنيين . وقبل أن يستقل مع جنوده البواخر التى نقلته الى مصر نشر بلاغا مؤكدا نهاية الحرب وشارحا أن سبب الانهزام هو إعـــلان اخوانهم العرب من أهل الحجاز وفلسطين وسوريا والعراق الحرب على الدولة واشتراكهم مع العدو : (فنحن مجبورون على التخلى عن اليمن ، وأهل اخواننا المجاهدين ، الذين اشتركوا معنـا فى الجهاد منذ أربع سنين . ومع أننا كنا على استعداد لبذل أرواحنا ودمائنا فى فى سبيل المحافظة على تربة اليمن المقدسة الا أننا مضطرون للتقيد بتعهدات حكومة الآستانة وأوامرها ... وعلى كل فاننـا نتمنى ، ونحن نغادر اليمن مضطرين لاخواننا فى الدين، الاتحاد والاتفاق التام، وأن يقاوموا استيلاء الأجانب ويصدوهم من بلادهم ، فيكون فى ذلك عزاء لنا .

ودخل اليمن فى طور جـديد من أطوار تاريخه وأصبح على الامام أن يقف وحده أمام الاطماع الاستعمارية الأوربيه ، وبخاصـة أطماع البريطانيين وأطماع الايطاليين .

٣ — التنافس الانجليزى ــ الايطالى : ــ

كانت البحرية البريطانية قد هاجمت ثغر الحـــديدة واحتلتها قبيل نهاية

الحرب ثم سلمته إلى محمد على الأدريسى الذى اشترك فى العمليات الحربية إلى جانب « الحلفاء » رغم أن الحديدة هى ميناء صنعاء الطبيعى . فجاء هذا العامل مضافا الى الأطماع التوسعية البريطانية فى الجنوب العربى لكى يضع المصالح اليمنية فى تضارب واضح مع الخطط البريطانية .

ورغم ذلك فان السلطات البريطانية فى عدن حاولت جذب الامام يحى اليهـا معتقدة فى مرونته وفى سهولة اغرائه أو الضغط عليه . فلم تعامله على أنه حليف للدولة العثمانية ، واعتبرت أن موقفه فى الحرب كان هو موقف الحياد . ثم أرسلت اليه هدية باسم الملك جورج الخامس ، هى سيارة فاخرة فى عام ١٩١٩ . وعادت فى عام ١٩٢١ . وأرسلت مساعد المقيـم السياسى فى عدن يحمل الهدايا للامام ويبغى الوصول الى تسوية المشكلات المعلقة بشأن الحدود مع المحميات فى الجنوب ويهدف إلى الاتفاق والصداقة بين القوتين المتعارضتين . ولكن هذه البعثة لقيت المصاعب فى الطريق بين الحديدة وصنعاء واحتجزها الأهالى فى الأسر مدة ثلاثة أسابيع اضطرت بعـدها الى العودة فاشلة إلى عدن . فواصلت بريطانيا مجهوداتها وأرسلت بعثة جـديدة فى عام ١٩٢٣ طلبت إلى الامام عقد معاهدة صداقة مع سلطات عدن. فاشترط الامام لبدء المفاوضات أن تقوم السلطات البريطانية أولا بأن تعيد اليه ثغر الحديدة مع المناطق المجاورة له لأنها من أراضى اليمن. ولأن الحديدة ثغر صنعاء الطبيعى ففشلت هذه البعثة كذلك .

وتوفى محمد على الادريسى سنة ١٩٢٤ وقام نزاع بين إبنه على وبين أخيه الحسن على الأمارة . فانتهزت اليمن هذه الفرصة وزحفت قواتها واحتلت ثغر

الحديدة وجزء كبير من السهل الساحلي للعسير . ولم يوقفها إلا تدخل السعوديين فى أمر هذا الاقليم .

واعتقد البريطانيون أن استيلاء اليمن على الحديدة يقضى على الخلاف القائم ويمهد الطريق للوصول الى اتفاق مع الامام يحى. فأرسلوا السير جلبرت كلايتون إلى صنعاء لمحاولة اقناعة بضرورة التفاهم مع بريطانيا والوثوق بها مثلما فعل معظم الأمراء العرب، ولكن الإمام يحى اشترط إعادة المحميات إلى اليمن ، باعتبارها جزءا من أراضيه ، واستنادا إلى أن أئمة اليمن لم يعترفوا بالانفاقات البريطانية مع المشايخ المحليين ، ولا باتفاقاتهم حتى مع الدولة العثمانية . ومكثت هذه البعثة ٢٦ يوما فى صنعاء وتأكدت من فشل كل مجهودانها. وثارت مشكلة العسير حين إلتجأ الحسن الأدريسي إلى نجد وطلب حماية عبد العزيز آل السعود . ومن الطبيعى أن يحاول الامام يحى الربط بين الأطماع البريطانية فى الجنوب ، وفى العسير ، وبين حماية السعوديين للادارسة ، خاصة وأن جلبرت كلايتون هو الذى سوى مشكلات السعوديين مع كل من العراق وشرق الأردن ، وهى مناطق نفوذ بريطانية فاتجه الامام إلى دولة أوربية أخرى إزداد نفوذها قرب بلاده فى السنوات الاخيرة ، وظهر أنها تنافس بريطانيا منافسة لا غبار عليها ، وكانت هذه الدولة هى إيطاليا التى غيرت سياستها نتيجة لوصول موسولينى على رأس الحزب الفاشستى إلى الحكم .

وجدت إيطاليا أن بريطانيا قد مهدت الطريق لها فى اليمن وذلك بموقفها فى مسألة الحدود الجنوبية وفى مسألة العسير . ورأت إمكانية مد نفوذها على السواحل الشرقية لجنوب البحر الأحمر فى نفس الوقت الذي تحكم فيه

الارتريا ، على الساحل الأفريقى ، مما يساعدها على التحكم فى خطوط المواصلات الدولية بين الشرق والغرب عند باب المندب . فأسرعت بارسال حاكم عام الارتريا ، مندوبا فوق العادة وسفيراً ، فى زيارة رسمية لليمن فى أواخر شهر أغسطس سنة ١٩٢٦ . فأكرم اليمنيون استقباله ، ووقع الامام يحى معه فى ٢ سبتمبر على معاهدة فائقة الأهمية ، إذ أنهـا كانت أولى المعاهدات الدولية التى اعترفت « بمملكة اليمن » وباستقلالها وكمال سيادتها وتعهدت فيها إيطاليا بعدم التدخل فى شؤون اليمن. ولكن كل من الطرفين تعهد فيها بتسهيل التبادل التجارى مع الطرف الآخر. والواقع أن هذه المعاهدة جعلت من اليمن منطقة نفوذ إقتصادية للايطاليين ، وصرحت فيهـا الحكومة اليمنية برغبتها فى استيراد البضائع والالات والفنيين من ايطاليا ، وتعهـدت فيهـا الحكومة الايطالية بارضاء رغبـات الحكومة اليمنية فى أقرب وقت وبأنسب ثمن . وربطت هذه المعاهدة بين الدولتين لمدة عشر سنوات .

ولكن الأمور سارت بسرعة فنجد من ناحيـة أن عبد العزيز آل سعود قد عقد معاهدة الطائف مـع السيد حسن الإدريسى فى أكتوبر سنة ١٩٢٦ ووضع بها اقليم العسير تحت الحماية السعودية ، وأبلغ هـذه المعاهدة للامام يحى ، الذى إضطر الى اصدار أمره الى قواته فى هذا الاقليم بعـدم التوغل شمالا ، والوقوف فى الأماكن التى تحتلها .

وإشتد النزاع بين البريطانيين واليمنيين من ناحية أخرى بشأن الحدود ، خاصة وأن قوات الإمام كانت قـد دخلت أمارت الضالع ورفضت تركها رغم اصرار بريطانيا على أنها تحت حمايتها . فأخذت طائرات سلاح الطيران البريطانى تضرب الأهالى اليمنيين فى مناطق الحـدود ارهابا للوطنيين الذين

فقدوا كثيرا من القتلى ، ومن بينهم النساء والأطفال . وزاد شعور بريطانيا بالمهانة بعد أن أجبرتها روما على الاعتراف فى شهر يناير سنة ١٩٢٨ بأن اليمن منطقة نفوذ اقتصادي للايطاليين لا يزاحمهم فيهـا مزاحم ، فاسرفت القوات البريطانية فى انتقامها من اليمنيين ، مما أثار ثائرة الرأي العام فى البلاد العربية ووصل الأمر الى مناقشات فى مجلس العموم البريطانى . وتدخل سلطان لحج للوساطة فقامت الهدنة . وبعد محاولات طويلة تمكن البريطانيون من عقـد معاهدة مـع اليمن فى ١١ فبراير سنة ١٩٣٤ . وكانت معاهدة « صداقة » ، اعترفت فيها بريطانيا باستقلال اليمن وتعهد فيها الطرفان بالعمل على سيادة السلم بينها ولكن المعاهدة أجلت البت فى مسألة الحدود الى أن تتم مفاوضات خاصة بشأنها ، وفى انتظار ذلك تعهد الطرفان بابقاء الحالة القائمة على ما هى عليه ، وقت التوقيع على المعاهدة ، ومنع قواتها من تخطى هـذه الحدود ، ومنـع تدخل كل منهما فى شئون الاهالى فى الجانب الاخر منها . وكانت المعاهدة صالحة لمدة ٤٠ سنة . فبقيت مشكلة الحدود معلقة ، ولا تزال معلقة حتى الان

ولم تتمكن هذه المعاهدة من أن تحد من ازدياد النفوذ الايطالى فى اليمن رغم أنها كانت دعامة للمملكة اليمنية فى مسألة الاعتراف باستقلالها فى المحيط الدولى . وكانت هذه المملكة مهدده فعلا وقت التوقيع على المعاهدة بزحف قوات السعوديين عليها من الشمال ، بل لا نستبعد أن الامام قد وقعهـا مع بريطانيا لكى يغلق باب المشكلات الجنوبية مؤقتـاً حتى يتفرغ للمشكلات الشمالية ، مع جيرانه المسلمين .

٤ ـ الغزو السعودى :

بدأت المشكلات بين اليمن والسعوديين فى الوضوح عندما أبلغ عبد العزيز بن عبد الرحمن معاهدة الحماية التى عقدها مع الادارسة الى الامام يحى. وكانت حكومة اليمن تعتبر هذه المنطقة تابعة لهـا ، وتألم الإمام يحى من قبول ابن سعود وضع الادارسة تحت حمايته ، بعـد الدور الذي لعبوه فى أثناء الحرب إلى جانب الانجليز وضع دولة الخلافة الإسلامية . وكان إبن سعود قد بدا يحسب للسياسة وشئون الحكم حسابها، مقللا بذلك من قيمة عامل الاخلاص المطلق للمبادىء الاسلامية ، خاصة وإن وضعية القوى الإسلامية كانت قـد تغيرت ـ من الناحية السياسية ـ بعد الحرب . ولكنه حاول إزالة ما بنفس الإمام يحى وحاول الوصول معه إلى تفاهم ، يستند إلى الإسلام من ناحية ، ويستند إلى الظروف السياسة والاستراتيجية بل وشئون الحكم الزمنى من ناحية أخرى . وأثبت بذلك أنه لا يزال مخلصا للروابط الاسلامية ، رغـم اهتمامه بشئون الحكم الزمنى .

فأرسل عبد العزيز بن عبد الرحمن وفـداً إلى اليمن لمحاولة الوصول إلى تسوية ، ولكن وجهات النظر كانت متباعدة بين الطرفين : إذ أصر اليمنيون على أن إقليم العسير هو جزء من بلادهم ، وأنه ليس للادريسى أى حق فيه وأن الإمام لا يوافق على التنازل عنه أو الاعتراف لأية حـــكومه أخرى باعلان سيادتها عليه ، بينما أصر السعوديون على أن إقليم العسير لا يدخل فى نطاق اليمن ، وبالتالى ليس لائمة الزيود أى حق فيــه ، بل هو إقليم متميز داخل حـــدود واضحة ، وكان تحت سلطة الادراسة الفعلية ، وانتقل إلى

سيادة السعوديين، فطالبوا بالاعتراف بهذه الحقوق وبجلاء اليمنيين عن المناطق التى يحتلونها فى الاقليم . ففشلت المفاوضات .

واضطر عبد العزيز آل سعود إلى إرسال وفد جديد إلى صنعاء لمحاولة عقد اتفاق ينص على الاحتفاظ بالحالة الراهنة على الحدود ، ومحاولة الوصول إلى أسس ترسم عليها الحدود فيما بعد بشكل نهائى . ولكن هذا الوفد فشل كذلك فى مهمته نظراً لأنه أصر على ضم كل اقليم العسير بل ومنطقة نجران أيضا إلى سلطة السعوديين . وأرسل إمام اليمن وفداً ثالثا إلى مكة . ولكنه فشل بدوره نتيجة لتشبث السعوديين بموقفهم فى إقليم العسير ، وإن كانوا قد أكدوا للامام يحى عدم طمعهم فى بلاد اليمن ، وملك اليمن . فظهر الموقف فى شكل أزمة بين قوتين عربيتين اسلاميتين . ولا يمكن لأحد أن يفيد منها إلا الخصوم والأعداء فقامت محاولات للتقريب بين وجهات النظر ، وسافر وفد من القاهرة الى صنعاء برئاسة أحمد زكى باشا وحاول اقناع الإمام يحى بالاتفاق مع السعوديين لخير العروبة والاسلام . ورغم توتر الموقف نتيجة لتوغل بعض مشايخ الزيدية ووعظهم لمذهبهم فى العسير ، فقد اتفق الطرفان فى شهر ديسمبر سنة ١٩٣ على المحافظة على الصداقة وحسن الجوار . واشتملت هذه الاتفاقية على تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين من الطرفين ، ومعاملة كل حكومة لرعايا الحكومة الأخري طبقا للاحكام الشرعية ، ومنع الأمراء والعمال من التدخل بما قد يحدث القلق ويوقع سوء التفاهم بين الدولتين . فظهر أن كل من الحكومتين السعودية واليمنية تسعى الى تثبيت دعائم حكمها فى المناطق الخاضعة لها وتنتظر من الحكومة الأخري نفس المعاملة .

ولكن تطور الأمور داخل أراضى السعوديين أنفسهم أدى الى نقض هذا

الاتفاق الذى كان يتعارض مع واجب العرب لحماية المستجيرين بهم . فقــد حاول أحــد رؤساء العرب أن يهاجم السعوديين فى الحجاز (ابن رفادة) والتجأ بعض رجاله ، ، بعـد فشله ، الى اليمن ، ثم أعلن الادارسة الثورة على السعوديين والتجئوا الى امام اليمن كذلك . وحين طلبت السلطات السعودية تسليم اللاجئين أجابت حكومة صنعاء بأنها ستحدد مكان اقامتهم وتمنعهم من القيام بأى نشاط . فما كان من ابن سعود الا أن أعلن الغــاء امارة الادارسة وضم اقليمها الى مملكته . وصمم على تسوية المشكلات المعلقة مع اليمن بشكل نهائى . فاقترح تثبيت الحدود بين البلدين بشكل لا يحتمل التأويل والشك ، والاتفاق على التساند والتعاضد فى سائر المواقف الدولية ، سواء داخلية أو خارجية وتحديد صلات الأمراء والعمال على الحدود والرجوع الى الملكين شخصيا فى المسائل الهامة ، وتعهد الطرفين بأن يصبح أمرهما واحداً وكلمتهما واحدة وعائلتيهما كأنهما واحدة .

ووافق الامام يحى على بدأ المفاوضات على هــذه الأسس ولكن هــذه المفاوضات كانت بطيئة. وحاولى اليمنيون فيها أن يعيدوا اثارة مسألة الأدارسة وحقوق اليمن فى اقليم العسير كله ، بينما رفض السعوديون مناقشــة مسألة اعتبروها منتهية ، وذهبوا الى أن رفضوا الاعــتراف بدخول منطقة نجران نفسها داخل حدود اليمن . وضاق صبر السعوديين فاتهموا اليمنيين بالمماطلة والتسويق فى المفاوضات وتدخل عبد العزيز آل سعود بنفسه واقترح جعل منطقة نجران منطقة حياد بين الطرفين ولكن الامام يحى رفض هذا الاقتراح فقرر عبد العزيز بن عبد الرحمن استخدام القوة كوسيلة للضغط على اليمن ، وأصدر أمره بتحرك قواته وتجمعها فى منطقه العسير . وادي التسويف

من جانب ، والرغبة فى الوصول الى حل سريع من جانب آخر ، علاوة على تشبث كل من الطرفين بحقوقه الاقليمية فى منطقة العسير الى اعلان الحرب فى ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ ، أي بعـــد أشهر من عقد الإمام لمعاهدته مـع البريطانيين .

ولا يمكننا أن نقارن فى هذه الحرب بين القوات الحربية لكل من الطرفين اذ كانت الغلبة مؤكدة للسعوديين . أما الدول الأوربيـة فأنها لم تتدخل فى النزاع . فنجد أن بريطانيا قد اظهرت عطفها على السعوديين وأرسلت احدي سفنها الحربية الى ميناء الحديدة بعد أن دخلتها قوات السعوديين كما أرسلت طائراتها الى جزيرة القمران بدعوى حماية أرواح رعاياها . ولكن حكومة لندن أعلنت حيادها فى الحرب السعودية اليمنية مدعية أن لهـا علاقات ودية مع الفريقين المتحاربين . أما ايطاليا فقـــد ظهر أنها تعطف على اليمنيين ، وأرسلت إحـدي بوارجها للحديدة وحاولت إنزال بعض قواتها . ولكن السعوديين منعوها من ذلك. فأعلنت الحكومة الايطالية أمام توغل السعوديين أنها لا توافق على سقوط اليمن فى يد حكومة غير يمنية .

ولقد اتخذ الامام يحى فى هذه الحرب موقفاً واضحاً بسيطاً هو إصدار الأمر إلى قواته بعدم الالتحام مع السعوديين ، وأعلن أنه لا زال محافظاً على السلم والصداقة مع أخيه الملك عبد العزيز واتصل بالهيآت العربية والاسلامية وبالمجلس الاسلامى الأعلى فى فلسطين وطلب منه التدخل وارسال رجل للوساطة فأرسل المجلس الاسلامى وفداً ضم هاشم الاتاسى (عن سوريا) ومحمد على علوبة (عن مصر) وشكيب ارسلان (عن لبنان) والحاج أمين الحسين (عن فلسطين) . وترك هذا الوفد السويس يوم ١٢ ابريل الى جدة للوساطة فى الصلح .

وقبل وصول الوفد كانت قوات السعوديين قد توغلت جنوبا بقيادة الأمير سعود بن عبد العزيز ، فأبرق الامام يحيي إلى الملك عبد العزيز : (يكفى ماقد كان، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالإسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم ووافق الملكان على المفاوضة ، على أساس انسحاب الجنود اليمنيـة من منطقة نجران ، واعادة اللاجئين والادارسة إلى السعوديين .

وبدأت المفاوضات بين الطرفين وفى حضور وفـــد المؤتمر الاسلامى وانتهت بعقد معاهدة الطائف فى ١٢ يونيو سنة ١٩٣٤ ، وانتهت بذلك حالة خطرة بين قوتين عربيتين إسلاميتين وتذكر « مقدمة » المعاهد أن الملكين... « رغبة منهما فى انهاء حالة الحرب التى كانت قائمة لسوء الحظ فيما بينهما وبين حكومتيهما وشعبيهما ، ورغبة فى جمع كلمة الأمة الإسلامية العربية ورفـع شأنها وحفظ كرامتها واستقلالها .

« ونظرا لضرورة تأسيس علاقات عهدية ثابتة بينهما وبين حـكومتهما وبلادهما على أساس المنافـع المشتركة والمصالح المتبادلة ، وحبـــاً فى تثبيت الحدود بين بلاديهماوانشاء علاقات حسن الجوار وروابط الصداقةالاسلامية فيما بينهما وتقوية دعائم السلم والسكينة بين بلاديهما وشعبيهما .

« ورغبة فى أن يكونا عضداً واحداً أمام الملمات المفاجئة وبنيانا متراصا للمحافظة على سلامة الجزيرة العربية ــ قررا عقد معاهدة صداقــة اسلامية وأخوة عربية فيما بينهما ...... » .

فانتهى خطر الغزو السعودى لليمن ، وتحالف هاتان القوتان تحت راية العروبة وفى ظل الإسلام .

٥ — العزلة والاحتفاظ بالوضع القائم :

كانت معاهدة الطائف بين المملكة السعودية والمملكة المتوكلية نقطة هامة في تاريخ كل منهما ، وفي تاريخ علاقاتهما ببعضها وبقية الدول العربية . وجاءت لتدعم سلطة « الدولة السعودية في اقليم العسير ، واعترف السعوديون فيها من ناحية أخرى باستقلال اليمن وتمام سيادته . فهي معاهدة تتم ، من وجهة نظر السعوديين الاتفاقات التي عقدت لرسم الحدود مع كل من العراق وشرق الأردن في الشمال ، ونجد من ناحية أخرى أنهـــا أظهرت اليمن في شكل دولي واضح متميز عن غيره من الوحـــدات الدولية العربية . أي أنها معـــاهدة تقوم بدورها في عملية تقسيم العـالم العربي إلى دول ، وتمهـد بذلك لنشوء « قوميات » « عربية » « محلية » داخل هـــذه الاطارات الجديدة .

وجاءت هذه المعاهد لكي تتم المعاهدتين السابقتين التي عقدهما اليمن مـع كل من إيطاليا سنة ١٩٢٦ ومع بريطانيا سنة ١٩٣٤ ، وإذا كانت الصداقة الاسلامية والأخوة العربية قد سادت بين اليمن والمملكة العربية السعودية ، فان اليمن لم يعترف بحق البريطانيين في البقاء في الجنوب العربي . ولذلك فانه إضطر إلى الاحتفاظ بصداقته لإيطاليا ، وكان مضطراً لذلك أمام تهـديد الاستعمار البريطاني وتعديه على حقوق العرب ، خاصةوأن الايطاليين لم يحتلوا أية مناطق من اليمن ، بل كان نفوذهم نفوذاً اقتصادياً ، وأمدوا اليمن ببعض المعونات الفنية والاقتصادية .

ولقد حاول البعض أن يرى فى بقاء العلاقات اليمنية الايطالية فى مستوى التعاون الاقتصادي دليلا على ميل الإمام يحى إلى زعماء الفاشستيين ، وعلى وضعه لبلاده داخـــل منطقة نفوذهم الاقتصادي . وساد هذا الاعتقـاد وأصبح وسيلة لمهاجمة ايطاليا نفسها ونفوذها فى البلاد العربية وخاصة بعد أن بدأت ايطاليـا تحقق أطماعها الاستعمارية فى المناطق القريبة من البلاد العربية سواء أكان ذلك فى حوض البحر الأبيض المتوسط أو فى الحبشة . ذلك أن موسولينى قـد عمل بالفعل على زيادة سيطرته فى حوض البحر المتوسط ، وعمل على احتلال الحبشة وضمها للامبراطورية الايطالية فى شرق أفريقية . ومع هذه العمليات الايطالية ظهرت المطامع الايطالية واضحة فى مصر وفى فلسطين ثم فى السودان واليمن. وجاءت صيحات التحذير للامام يحى بشكل خاص من البلاد العربية التي يتفوق فيها النفوذ البريطانى والاخلاص والولاء للصداقة البريطانية . فكانت أكثر ارتفاعا فى العراق عنها فى بقية البلاد العربية ولكن نظرة واحدة الى قيمة التبادل التجارى بين اليمن وايطاليا تثبت أن اليمن لم يصل الى مرحلة الوقوع تحت براثن « الاستغلال » الايطالى . كما أن نظرة ثانية لعدد الايطاليين فى اليمن ومشاركة اليمن فى الأحداث الدولية تثبت أن اليمن لم تكن منطقة نفوذ سياسى ايطالى فلـم يقم اليمن بمحاولة اخراج البريطانيين من الجنوب العربى ولم تتعـد المسألة اذن استناد الامام يحيى الى نفوذ ايطاليا حتى يتمكن من الاحتفاظ بموقف « الدفاع » عن بلاده أمام الاطماع التوسعية البريطانية ، أي الاحتفاظ بالوضع القائم ، مستوى الصفر ، بدلا من أن تتفرس فيه بريطانيا وتنخفض حالة بلاده ووضعها الدولى الى ما تحت الصفر .

وحينما انتهت صلاحية المعاهدة اليمنية الايطالية سنة ١٩٣٦ وافق الامام يحى على تجديدها، مما أثار ثائرة بريطانيا ضده، ومما ساعد على ارتفاع أصوات زعماء العرب فى بغداد ، أولئك الزعماء الذين مهدوا فى ذلك الوقت لتدعيم علاقاتهم مع الامبراطورية البريطانية ، وذلك بالدخول فى حلف سعد أباد . ولكن الامام يحيى لم يغير موقفه بين الدولتين الاستعماريتين .

واعتقدت حكومة بغداد أن فى استطاعتها تقديم المعونة لحكومة اليمن ، وخاصة فى النواحى الفنية، وإعداد بعض الضباط اللازمين للجيش اليمنى بدلا من ترك هذا الميدان للايطاليين . وكان الامام قد انضم الى ميثاق بغداد الذي نص على التعاون والتآخى بين ملكى العراق والمملكة العربية السعودية . فرحب بهذه المعونة الفنية العراقية ، دون أن يغير من موقفة تجاه بريطانيا ، أو تجاه ايطاليا .

وظل اليمن فى عزلة واضحة عن بقية العالم العربى ، وساعدت صعوبة المواصلات وقلة التعليم على تمهله فى هذه الحالة . وإن كان الامام يحى قد احترم الوضع القائم مع البلاد العربية المجاورة ، وبخاصة مع المملكة العربية السعودية ، فانه قد رفض الإعتراف بشرعية وجود البريطانيين فى عدن وفى الجنوب العربى . ولم تكن معاهدة سنة ١٩٣٤ إلا عبارة عن هدنة فى تلك الجبهة التى أعيد فتحها بعد الحرب العالمية الثانية .

وهكذا نجد أن الإمامة تتحول فى اليمن الى دولة وترضى بالإعتراف

بغيرها من القوى العربية الناشئة، ولكنها ترفض الاعتراف بأى حق للاستعمار فى البقاء فى المنطقة . فكان موقفها راديكاليا واضحا فى علاقتها مع المستعمر ، وفى احتفاظها بحقوق العروبة الاقليمية على سواحل المحيط الهندي وإن كان حكمها وعلاقتها بأبنــــاء البلاد لا تمت للقرن العشرين بكبير صله .

خاتمة الباب

يمكننا أن يقول أن القوي العربية قد لعبت دوراً هاما بعد الحرب العالمية الأولى فى منطقة شبه الجزيرة ذلك أنها استندت الى الاسلام كدعامة أساسية لها وقامت بالتخلص من حكم الهاشميين الذين تحالفوا مع البريطانيين فى فترة الحرب .

وكذلك فى الجنوب ، فقد وقف عرب اليمن موقفا ثابتا فى مسألة وجود البريطانيين فى عدن ومنطقتها .

ولكن القوى العربية فى كل من وسط الجزيرة وجنوبها قد سارت مع تأكيد شخصية كل اقليم عربى حول حاكمه أو ملكه ، أي إلى نمو الأسرة السعودية ونمو الأسرة المتوكلية بشكل أدى إلى فرض هذه الاسرات لنفسها على « الوحدة » العربية ، وإلى ظهور قوميات عربية « محلية » أو « إقاليمة » داخل الوطن العربى .

وإذا كانت الطريقة التى تطور بها تاريخ الكفاح العربى فى هذه المنطقة قد اختلفت عنها فى المناطق العربية الأخرى ، فمن الواجب علينا ألا ننسى أن كل من عبد العزيز آل سعود والامام يحيي قد عمل فى أراضى لا تخضع للاحتلال الأجنبى الاستعمارى . وهذا العامل يضعهم فى موضع يختلف عن مواضع غيرهم ، ويساعد بالتالى على وصولهم الى نتائج عزت على اخوانهم .

الباب الثاني

الهلال الخصيب

إذا كان وسط شبه الجزيرة العربية قد نجا من إحتلال القوات الاستعمارية الأجنبية ، فان منطقة الهلال الخصيب قد وجدت نفسها فى حالة إحتلال فعلى عند نهاية الحرب العالمية الأولى . وإذا كانت القوى العربية الإسلامية قــــد جاهدت ضد أعوان الاستعمار وحلفائه فى شبه الجزيرة ، فان بقية القوى العربية فى كل من العراق وسوريا ولبنان قد وجدت نفسها فى أوضاع مختلفة ، وفى ظروف تتحكم فيها عوامل عديدة متباينة . وكذلك اختلفت القيادة الوطنية فى هذه الأقاليم عنها فى بلاد العرب، وجابهت قوى الاستعمار البريطانية والفرنسية بامكانيات مادية بسيطة ، أثرت بالتالى فى ضحالة مكاسبها الوطنية .

الفصل الخامس

العراق

مر العراق بتجربة كاملة مع الإستعمار البريطانى فى تلك المرحلة التى حاول بها المشاركة فى الثورة العربية والحصول على استقلاله وحريته . وبدأت هذه التجربة بالأطماع التوسعية والتسلطية الإستعمارية ، واستمرت فى شكل عمليات حربية استخدمت فيها القوي المادية المتفوقة أمام السلاح القوى المعنوى . وقام شعب العراق بثورة عاتية على قوات الاحتلال ، ولكن ظروفه الداخلية والأحوال المحيطة به تكاتفت مع الامكانيات الإستعمارية للاحتفاظ بالعراق فى موضع التابع الخاضع ، رغم تمتعه (باستقلال) قبل غيره من البلاد العربية .

١ ـ التطور والانقسام:

ظل العراق حتى الحرب العالمية الأولى يكون جزء لا يتجزأ من أملاك الدولة العثمانية . وكان هذا الإقليم كبير الأهمية بالنسبة للامبراطورية العثمانية نظرا لأهمية مركزه الاستراتيجى الذى يصل به إلى مياه الخليج العربى وبالتالى إلى مياه الهند ، ولمجاورته لامبراطورية الفرس . وكان مهما بالنسبة لدار الخلافة ما دام أهله من المسلمين ، وامتاز على ذلك بوجود مراكز الشيعة ومدنهم المقدسة فى داخله . ولا يمكن لأحد أن يقلل من أهمية مدن الكاظمية وسمارا والنجف وكربلاء بالنسبة لكل الشيعة . وكانت سيطرة الدولة العثمانية على هذه المراكز تسمح لها بالسيطرة على شئون الشيعة ، وبالتالى

بالتدخل فى شئون الفرس نفسها ، ولو عن طريق غير مباشر .

وكانت أحوال العراق الداخلية تشجع الأجانب على الطمع فى الإقليم فمع اختلاف الأحوال الجغرافية والمناخية والإقتصادية بين الشمال والوسط والجنوب ، بين الجبال والوديان والسهول ، اختلفت أحوال معيشة الأهالى فى كل منطقة منها فى المنطقة الأخرى . وحاول الطامعون أن يروا فى هذا الاختلاف أساسا للفرقة والتفريق ، ومنفذاً إلى اضعاف الإقليم بتفتيته إلى وحدات صغيرة ، مستندين فى ذلك إلى العوامل الدينية والعنصرية والمذهبية ورغم أن الوطنيين لم يفطنوا إلىهذه الفروق فان المستعمر أشار اليهاوحاول اظهارها فى شكل واضح خطير : فهناك الاكراد فى الشمال وهم من السنيين ، وهناك العرب بعد ذلك . ويمكننا أن نلاحظ وجود كثير من الشيعة ومن السبئيين . ولا يمكننا أن نغفل اليهود الذين بلغ عددجاليتهم ٥٠ ألفا فىبغداد وحدها فى مطلع القرن العشرين . وكان لهذه الجالية وضعا خاصا بمالها من اتصالات تجارية واقتصادية مع جميع أنحاء العالم . وكانت تسيطر فعلا على اقتصاديات الإقليم ، ولها اتصالات مباشرة مع مراكز رؤوس الأموال الغربية فى لندن وباريس وبرلين وفينا . وكانت لها كلمة فى الشئون الثقافية والتعليمية ، وتداخلت مع الفرنسيين فى هذا الميدان عن طريق التحالف الاسرائيلى الدولى الذى تأسس سنة ١٨٤٦ . ولقد بقيت هذه الجالية محافظة على ميزاتها وامتيازاتها فى العراق حتى منتصف القرن العشرين ، حيث صفيت نتيجة لانشاء دولة اسرائيل .

رأي المستعمر هذه الفروق الداخلية بين سكان الإقليم ، وبحث بعد ذلك عن المشكلات التى تفرق بين أهالى العراق وبين جيرانهم فى الاقاليم المحيطة بهم ، سواء أكانت هذه الأقاليم داخل الدولة العثمانية أو خارج حدودها .

ولم يتعب المستعمر فى البحث طويلا ، إذ كانت هـذه المشكلات موجودة وقائمة بالفعل .

فكانت العراق ، كجزء من أملاك الدولة العثمانية ، على علاقات غير ودية مع دولة فارس التى تجاورها من الشرق . وتكاتفت عوامل متعددة للوصول إلى هذه النتيجة . إذ كانت الدولة العثمانيـــة على المذهب السنى بينما كانت الفرس على المذهب الشيعى . وأدى ذلك إلى خلافات وحروب بين القوتين الاسلاميتين . وبينما أخذت الدولة العثمانية فى تطبيق نظم الادارة الأوربية الحديثة فى ممالكها ، حافظت دولة الفرس على اقطاعيـة العصور الوسطى . وكانت الحدود غير محددة بشكل قاطع بين الدولتين وخاصة فى منطقة شمال العراق ، وهى المنطقة التى يسكنها الأكراد ، وتفصل الحـدود فيها بين أهالى يتحدون من كلا الجانبين ، ويبعدون عن عواصم امبراطوريتهم المحترمـة . وساد الخلاف بين الدولتين كـذلك فى جنوبى العراق عنـد شط العرب ، وحول الجزر الموجودة فى الخليج العربى . وأدى ذلك الخلاف إلى اضطراب الأمن فى هذه المناطق المطلة على مياه الهند ، وانتهزت بريطانيـــا الفرصة ، ووضعت سفينة حربية أمام شط العرب منذ سنة ١٨٩٨ . وكان مجىء الشيعة الفرس للحج إلى المدن المقدسة فى العراق مورداً للعمال فى هذا الاقليم ، ولكنه كان سببا لنشوء مشكلات أخرى بين الفرس والدولة العثمانيـــة . فاتهمت الحكومة الفارسية السلطات العثمانية بالتحكم فى رعاياها ، وناقشت معها اجراءات السفر ورسوم الدخول والحجر الصحى . وخشيت الحـكومة الفارسية من مجىء الآراء الحـديثة من العراق إلى بلادها الاقطاعية . وعملت الحـكومة الفارسية على مناوأة سلطات بغداد وبخاصة فى منطقة عربستان والمحمرة التى كان بعض شيعة العراق يلتجئون اليها إذا ماساءت علاقاتهم مع حكامها الأتراك

ولقد احتفظت حكومة فارس بهذه المناطق فى حالة استقلال اسمى . وكان أهلها من العرب ويمتازون بالتحرر فى آرائهم الدينية ، ولكنهم يحافظون فى نفس الوقت على نظمهم القبلية .

أما فى الغرب فان جيران العراق كانوا من العرب . ولكن الاختلاف كان واضحا بين الاقليمين . إذ أن الجزيرة العربية كانت لا تخضع إلا للنفوذ العثمانى فى الوقت الذي خضع فيه العراق لسلطة هذه الدولة . وكانت البلاد العربية لا تزال فى عزلة عن غيرها فى مطلع القرن العشرين وكانت متأخرة عن العراق من الناحية الحضارية. ويمكننا أن نذكر من جيران العراق الغربيين ومن الشمال إلى جنوب آل الرشيد فى شمر ، وآل سعود فى نجد وآل صباح فى الكويت . وكان النزاع بينهم مستمر . وشهدت هذه المنطقة تغلغل النفوذ البريطانى فيها من الجنوب صوب الشمال فى الوقت الذى حاول فيه النفوذ العثمانى أن يدعم سلطته متجها من الشمال صوب الجنوب .

ورأي المستعمر كذلك الفروق بين أهل الحضر وأهل البادية . وبين ذوي الثقافة التقليدية وأنصار الثقافة الحديثة . وحاول الافادة من كل ذلك لخدمة أطماعه الاستعمارية .

فبينما كان المجتمع العراقى فى مطلع القرن العشرين هو مجتمع تقليدى فى مجموعة ، كان من السهل تتبع وصول الآراء الحديثة التى أتت مع وحدات الجيش الذى ظهر فيها النفوذ الأوربى ، ومع الموظفين من أنصاف المتعلمين على الطريقة الغربية ، والذين حضروا مع أسرهم من القسطنطينية ، وعهدوا بتربية أبنائهم إلى مدارس المبشرين . وأتت هذه الآراء كذلك مع المسيحيين والمرتبطين ببلادهم الأوربية ، واليهود المتصلين بكل أنحاء العالم . فبدأت

الملابس الأوربية فى الظهور ، وكذلك الصحف والجرائد والمجلات وزادت الثروة وزادت معها ضرورة ايجاد أبواب جديدة للانفاق . ونلاحظ أن أنصار الثقافة الحديثة ، رغم انصرافهم عن الآراء التقليدية كانوا مضطرين إلى عدم مواجهتها أو الجرأة على محاربتها ، بل كانوا مضطرين إلى احترامها وعلى أى حال فلا يمكننا أن نقول بأن العراق كان بلدا متقدما فى مطلع القرن العشرين ولا أن نضعه على قدم المساواة مع سوريا ولبنان مثلا. فكانت الأوبئة متكررة الظهور ، كما كان الجهل وضعف التغذية والجرائم وعدم استتباب الأمن من الأمور الشائعة فيه . وكانت شوارع المدن ضيقة . مليئة بالقاذورات ، وغير مضاءة. ولكن التطور الطبيعي واصل سيره ، وبدأ عدد من الأطباء والمحامين فى الظهور . وكان هذا يدل على ظهور طبقة متوسطة حديثة ، نمت مع السنوات ، وعززتها زيادة الثروة فى أيدي التجار . ووصل الأمر بهذه الطبقة الاجتماعية الهامة إلى السيطرة على شئون العراق قبيل الحرب العالمية الأولى . ولكنها كانت طبقة منقسمة على نفسها فى الدين والمذهب وأساس التكوين .

وإلى خارج المدن نجد البادية بعشائرها ونظمها وبنائها ومشكلاتها التى تختلف عن حياة العواصم . ولم تشهد البادية وعشائرها إلا لونا سطحيا باهتا من ألوان الحضارة الحديثة . ورأته فى امتداد أعمدة التلغراف مثلا فى أقاليمها ومرور رجال الضبطية للقبض على المجرمين ، ومجيء بعض التجار لشراء الحبوب .

فيمكننا أن نقول اذن أن منطقة العراق قد بدت أمام المستعمر الأجنبى منقسمة على نفسها تمام الانقسام ، وفى كل ميدان ، وأن حظها من الحضارة

كان حظاً بسيطا . وكانت تعتمد بشكل عام على الزراعة فى الوقت الذي لم تعتنى فيه حكومة القسطنطينية بوسائل الرى . فظل المجتمع متخلفا حتى فى مرحلة الزراعة . وزاد تأخر وسائل المواصلات من صعوبات الحكومة ، التى ظهرت فى شكل حكومة أجنبية وضعيفة . وكانت حكومة بغداد تعتمد على عدد من أنصاف المتعلمين نظراً لقلة المدارس ، وسادت فيها الرشوة وعرفت بالفساد وببيع المناصب وبقلة الكفاءة . وكثيرا ما كان الجنود لا يتقاضون رواتبهم مما يثيرهم ضد الدولة ، وكانت الدولة تعتمد على العراق فى التجنيد أكثر من اعتمادها على غيرها من الأقاليم العربية . وعرفت القوات العثمانية فى العراق باسم الجيش السادس ولقد حاولت الدولة أن تطبق النظم والقوانين الحديثة ، ولكن العراقيين ، وبخاصة التقليديين ، لم يرضوا بذلك . وحينما حاولت تجميع المسلمين حول الخلافة ، وتأييد حركة الجامعة الاسلامية ، اضطرت إلى احتضان السنة ، فتبرم الشيعة . ولا يمكننا أن نتحدث عن نهضة أدبية أو قومية عربية فى العراق بنفس الدرجة التى وجدت فى لبنان أو سوريا أو مصر . وجاء القرن العشرين لكى يجد العراق نفسه فى نفس اللجة وبين نفس الأمواج مع كل من السوريين واللبنانيين .

ولقد استمر التطور التدريجى ، مع بقاء الانقسام فى العراق فى السنوات السابقة للحرب العالمية الأولى ، وزادت النتائج السياسية لثورة تركيا الفتاة سنة ١٩٠٨ من السرعة النسبية للتطور . فأخذ العراقيون فى الاشتراك فى الانتخابات وأرسلوا نوابهم للجلوس إلى جانب النواب السوريين فى مجلس المبعوثان ، وأخذوا بالتالى فى التمرن على الحياة السياسية . كانوا قد دخلوا هذا الميدان لأول مرة ، وظهر بعضهم فى جمعية المنتدى العربى ، ولكن تمثيلهم « للرأى العام » العراقى إن جاز هذا التعبير — كان يقل عن تمثيل النواب

السوريين واللبنانيين . ذلك أن مجهوداتهم التحررية كانت تلقى معارضة قوية فى العراق وخاصة من الجبهات « التقليدية » والرجعية . ونظرا لكثرة عدد الضباط العراقيين فى القوات العثمانية ، اشترك بعضهم فى الجمعية القحطانية . ولقد شارك بعض العراقيين كذلك فى الجمعية العربية الفتاة ، ولكن ميلهم كان واضحا نحو حزب الإدارة اللامركزية العثمانى ، وساروا بذلك على نفس الخطى التى سار بها زعماء العرب فى مصر فى ذلك الوقت . ورغم أن هذا الحزب كان يخدم كل من أغراض البريطانيين والخديو فى مصر فإن ميل العراقيين اليه أكثر من ميلهم إلى الجمعية العربية الفتاة لا يعتبر دليلا باهتا على توسع النفوذ البريطانى فى العراق فى نفس الوقت الذي سيطر فيه على مصر . والمهم هو أن العراقيين قد أخذوا يسعون إلى الاستقلال المحلى باسم العروبة ، وأن هذه الحركة كانت تلقى تشجيعا من السلطات البريطانية فى مصر وفى الخليج العربى ، وكانت تخدم المصالح البريطانية بطريق غير مباشر وساعد على هذه الحركة زيادة انتشار الصحف فى العراق فى هذه الفترة . ولكن مراكز السنة والنفوذ التقليدى واصلت ولاءها لفكرة الجامعة الاسلامية ، وعارضت بذلك الحركة التحررية فى العراق . وكان هذا الولاء وتلك المعارضة لكل من حركة الجامعة الاسلامية والحركةالتحررية ، أقوي بكثير فى العراق عما كان عليه فى سوريا ولبنان .

وقد أدي التطور فى العراق فى السنوات السابقة لاعلان الحرب العالمية الأولى إلى ظهور أهمية منطقة البصرة فى السياسة العربية ، وإلى نشوء قوة عربية انفصالية . وكان نفوذ السيد طالب النقيب يسود هذه المنطقة ، فأخذ يطالب بالحكم الذاتى ، ووضح نشاطه فى اتصاله بالبريطانيين فى مصر وبقوات

الاستعمار البريطانية فى سملا (الهنـــد) . واتصل كذلك بآل صباح فى الكويت وآل سعود فى نجد . وكان يسعى فعلا إلى الاستقلال بجنوب العراق عن الدولة العثمانية ، وفى صداقة مع البريطانيين .

كما أدى هذا التطور إلى ظهور مجموعة من الساسة العراقيـين ، كانوا من الشبان ، ومن أبناء الطبقة الوسطى . فنجد العمري وجيـلالى والخياط فى الموصل ، والنقيب وباش أعيان فى البصرة ، والجادرجى (رفعت بك وابنه رؤوف) ، ويوسف السويدي وأبناءه الثلاثة وبابان اسماعيل بك حقى وحمدى بك والباجاجى والدفترى والراوي وحيضرى وجيـــل زادة وخضيرى وأعضاء أسرة شوكت باشا وغيرهم فى بغداد .

وكان هذا التطور مع ظهور النزعة الانفصالية مما يخدم الأغراض الاستعمارية فى المنطقة ، ولو عن طريق غير مبـاشر . ما دام يسير صوب انقسام المعسكر الاقليمى وتفتيت القوى الوطنية . وزاد الطين بلة أن الأطماع الإستعمارية قد زادت وضوحا فى ذلك الوقت ، وساعدت بالتالى على تقوية الحركة التحررية والإنفصالية . فعملت القوة الوطنية الناشئة على الانفصال عن المجموع وأخذت القوي الإستعمارية فى تشجيعها وفى جذبها صوب الخارج .

٢ ـ المصالح والاطماع الاستعمارية

كانت أحوال العراق الداخلية ، وظروفها المحيطة بها ، مما يشجع الدول العظمى على الإهتمام بالمنطقة . وزاد هذا الاهتمام فى العصر الإستعماري الممتد من نهاية القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين ، ثم تدرج الأمر من مجرد الاهتمام إلى نشوء مصالح وبالتالى إلى ظهور الأطماع .

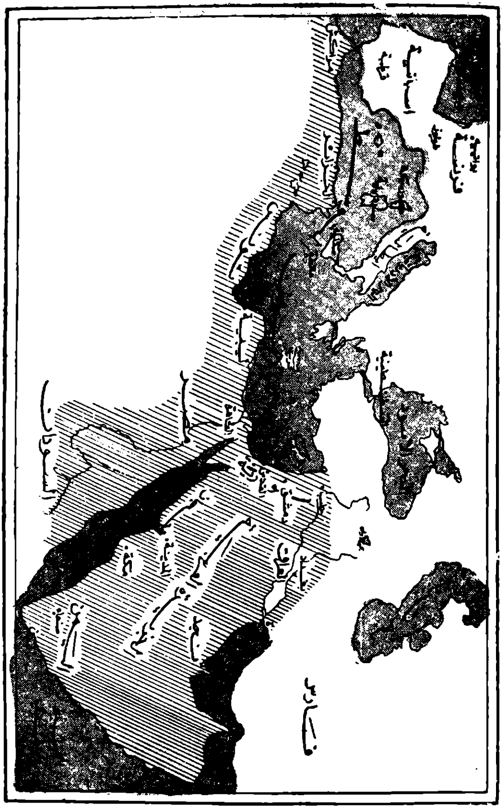
وكانت بريطانيا هى أكثر الدول الأوربية اهتماما بشئون العراق نظرا

لموقعه الجغرافى وأهميته الاستراتيجية بوقوعه على الطريق البرى الموصل إلى الهند . فظهر اهتمام بريطانيا واضحا بشئون الملاحة على الدجلة والفرات منذ أواسط القرن التاسع عشر . وكان مجىء عـــدد من الشيعة الهنود للحج إلى العراق ، وبقاء بعضهم فى مدنه ، وعملهم فى التجـارة يخلق لبريطانيا مصالحاً ونفوذاً فى بلاد الرافدين . وازداد النفوذ البريطـانى الإستعمارى من الهند فى مياه المحيط الهندى والخليج العربى . وأصبحت لبريطانيا كلمة مسموعة حينما أخذت سفنها فى المرور ثم فى الرسو فى هذه المياه العربية . وانتهى بها الأمر إلى عقد الإتفاقيات مع المشايخ المحليين . ولقد وجدت بعض العناصر الثائرة على سلطةالدولة ، وبعض رجال العشائر ، فى البريطانيين حاميا ، وفى أموالهم عصبا لحركاتهم . وكثيرا ما وصل الأمر إلى تأزم الأحـــوال بين بريطانيا والدولة العثمانية بهذا الخصوص . وظهر عند نهاية القرن التاسع عشر أن بريطانيا هى الدولة الأجنبية الأولى ، أو هى على رأس الدول ذات المصالح أو ذات الأطماع فى العراق . ذلك أن مصالح الروسيا كانت بسيطة ، وبخاصة لعدم وجود رعايا من الأرثوذكس فى الإقلـيم . وكانت الروسيا تنظر إلى إيران أكثر من نظرها إلى العراق . وأما فرنسا فلم تكن تهتم كثيراً إلا بالنفوذ الثقافى ، وانخفضت أسهمها السياسية والاقتصادية فى بلاد الرافدين بشكل واضح ، رغم ازدياد قيمة هذه الأسهم فى كل من آسيا الصغرى والشام ولكن النفوذ الألمانى قد ظهر فى الميدان العراقى واضحا عند نهاية القرن الماضى وجاء من الشمال ومن عاصمة الدولة العثمانية وفى توافق وانسجام معها . وجاء عن طريق البعثات العسكرية ، ومشروع سكة حديد بغــــداد الذى هدد بوصل برلين بمياه الهند . ولقد كان رد بريطانيا عليه هو عقد اتفـاقية سنة ١٨٩٩ مع الشيخ مبارك آل صباح فى الكويت .

تبلورت الأطماع الاستعمارية فى العراق حول عاملين ، كان أولهما فى الوضوح من ناحية التسلسل التاريخى هو الاستراتيجيـــة ، إذ أن المصالح الإقتصادية كانت مركزه فى الهند والشرق الأقصى ، وحاولت الدول الاستعمارية أن تستغل العراق فى الوصول إلى مستعمراتها فى الشرق الأقصى ، وفى استمرار التحكم فيها . ويشتمل هذا العامل على مشروعات الملاحة النهرية ثم مشروعات السكك الحديدية . أما العامل التالى ، ولا يقل أهمية عن سابقه فهو الاقتصاد . وبدأ بأشكال غير مباشرة ، مثل الاهتمام بوسائل الرى ، المرتبطة بالزراعة ، وبغلة الأرض ، وبالتجارة ، ثم استمر فى مسائل فى غاية الوضوح ، وهى البترول . وكانت بريطانيا هى السابقة إلى الميدان وبقوات تفوق قوات منافسيها الاستعماريين .

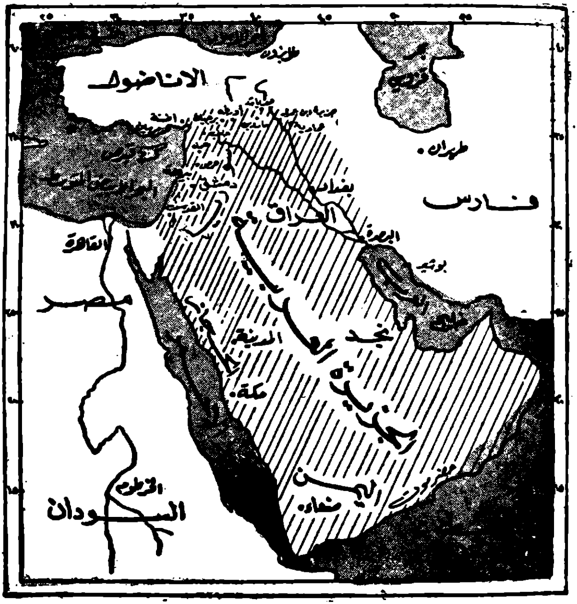
فلقد اعتمد النقل والمواصلات فى العراق على القوافل وعلى بعض القوارب ولكنا نجد أن الاهتمام البريطانى قد تبلور ووصل فى عام ١٨٣٤ إلى الحصول على فرمان لتأسيس شركة للملاحة النهرية فى العراق . ولا يمكننا أن نفصل بين هذا الامتياز وبين الاستعمار البريطانى فى الهند من ناحية ، ولا بينه وبين دخول القوات العربية فى العام السابق له فى سوريا من ناحية أخرى ، خاصة وأن القوات الاستعمارية البريطانية خشيت من ظهور قوة موحدة فى الشرق الأدنى ، قد تعمل على قطع مواصلاتها مع الهند ، ووقفت موقف العداء من تجربة محمد على الاقتصادية التى اعتمدت على تركيز الزراعة والتجارة والصناعة فى أيدى الدولة ، معارضة بذلك نظرية حرية التجـــارة والباب المفتوح التى سارت عليها بريطانيا فى ذلك الوقت . ثم تكونت شركة الدجـــلة والفرات للملاحة البخارية سنة ١٨٦١ فى كل من بغداد والبصرة وسيطرت عليها أسرة لينش البريطانية التى عملت على زيادة نفوذها ، ثم تعاونت منذ سنة ١٨٧٩ مع

خريطه رقم (١)



العالم العربي فى القرون الوسطى
عن كتاب : يقظة العرب : جورج أنطونيوس . ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد
والدكتور احسان عباس صفحة ٩٦

خريطه رقم (٢)



القسم الشرقى من العالم العربى والذى
طالب باستقلاله الشريف حسين بن على .

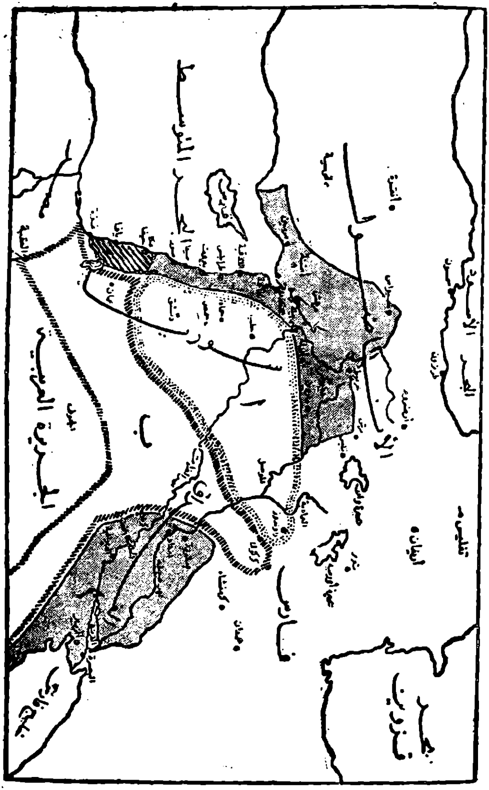
خريطه رقم (٣)



سوريا : تقسيماتها الادارية تحت الادارة العثمانية

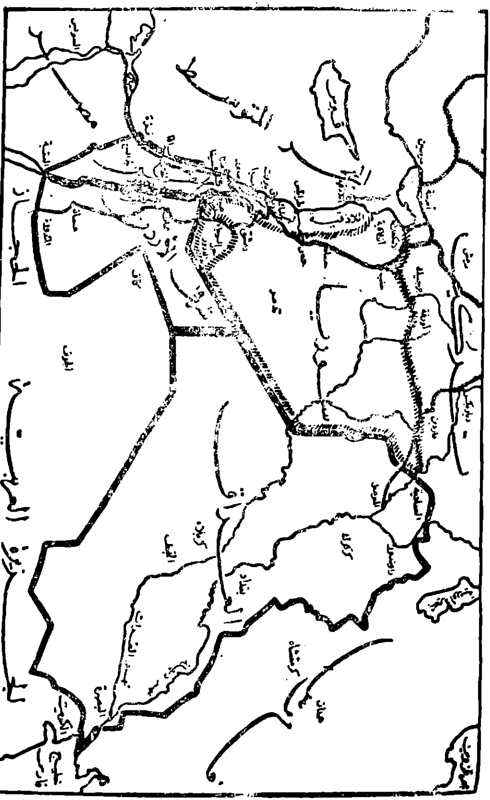
عن كتاب جورج أنطونيوس : يقظة العرب : ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس صفحة ٢٧٢

خريطه رقم (٤)



تقسيم بلاد العراق والشام
حسب اتفاقية سايس بيكو سنة ١٩١٦

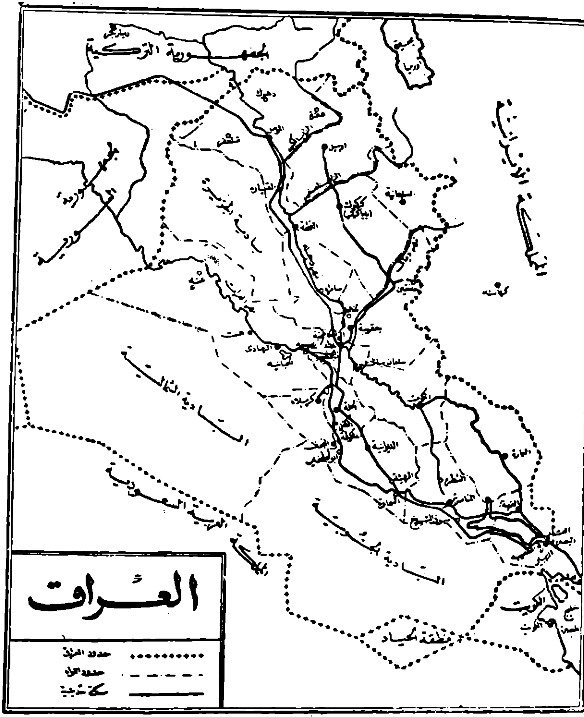
خريطه رقم (٥)



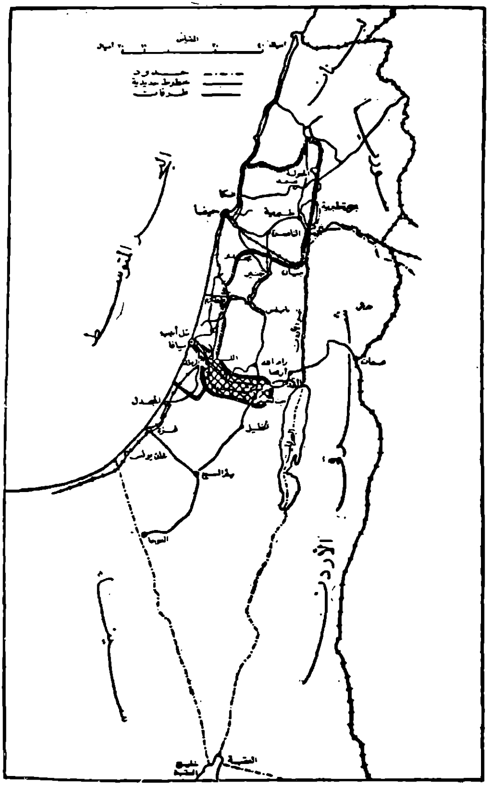
مناطق الانتداب البريطانى والفرنسى

من كتاب : أكرم زعيتر : قضية فلسطين : دار المعارف : ١٩٥٥

خريطة رقم (٦)


الجمهورية التركية
البادية الشمالية
البادية الجنوبية
المملكة العربية السعودية
منطقة الحياد
الكويت
كركوك
كربلاء
العراق
حدود العراق
حدود الألوية
سكة حديد

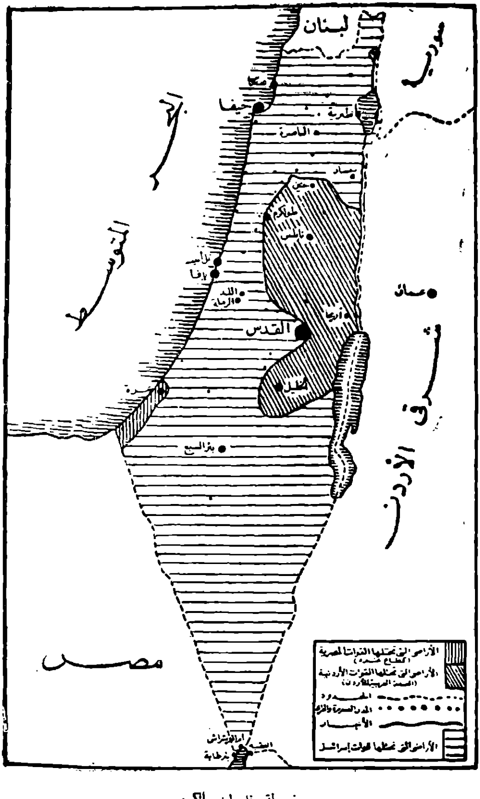
خريطة رقم (٧)



مشروع تقسيم فلسطين

عن كتاب : أكرم زعيتر : قضية فلسطين ـ دار المعارف ١٩٥٥

خريطه رقم (٨)



خريطة فلسطين الآن

مع شركة الهند البريطانية للملاحة البخارية . وعملت وزارة البحرية العثمانية من ناحيتها بعد ذلك على توحيد عمليات الملاحة التى يقوم بها الأهالى وذلك تحت إشراف إدارة ملاحة عمان العثمانية ، رغم أن سفنها كانت أصغر حجما من السفن البريطانية . وحاولت الدولة أن تساعد فى هذا الاتجاه ، فتقدمت الدائرة السنية فى سنة ١٨٩٠ بمشروع لتحسين وسائل المواصلات فى العراق ولإنشاء دار لصناعة السفن فى بغداد . ورغم نجاح مشروع دار الصناعة ، فان منافسة الشركة البريطانية من ناحية، وظهور مشروعات السكك الحديدية من ناحية أخرى ، قد تكاتفا على فشل مجهودات الدائرة السنية ولكنها قامت فى سنة ١٩٠٤ بشراء سفن إدارة ملاحة عمان العثمانية وأنشأت ماسمته «إدارة الملاحة الحميدية» التى ظهر نجاحها فى مدة الخمس سنوات التى عاشتها حتى بدا امام البريطانيين أنها تهدد شركة لينش . فحاولت هذه الشركة البريطانية سنة ١٩٠٥ أن تعيد تكوينها على أساس اشتراك بعض اليونانيين فيها ، ولكن المشروع فشل .

وبعد ثورة تركيا الفتاة قامت الحكومة العثمانية بتحويل سفن« الملاحة الحميدية ، من ملكية الدائرة السنية ، أى ملكية السلطان ، الى «إدارة الملاحة النهرية » الخاضعة للدولة سنة ١٩٠٩ . وحاولت الإدارة النهرية أن تحسن وحداتها ، ولكنها اصطدمت بصعوبات فنية واقتصادية . فحاولت أن توحد تكوينها مع شركة لينش ، فاصطدمت بالمعارضة فى كل من بغداد والقسطنطينية وظهر الخوف واضحا من سيطرة البريطانيين على المجموع . وعقدت الحكومة العثمانية اتفاقا مع بريطانيا فى مايو سنة ١٩١٣ نص على اعطاء امتياز لمدة ستين عاما لشركة جديدة تسمى « الشركة العثمانية للملاحة النهرية » وتتكون مناصفة من رؤوس أموال عثمانية وبريطانية . ولكن لينش ظل يواصل نشاطه

وينافس هذه الشركة الجديدة . ولما أعطت شركة سكة حديد بغداد للشركة العثمانية حق نقل جزء من مهماتها ، قام لينش بتقديم الاحتجاج تلو الآخر فدارت المباحث وانتهت الى عقد اتفاقيه جديدة فى مارس سنة ١٩١٤ أدخلت مصالح لينش داخل الشركة العثمانية ، ونصت على تكوين شركة جديدة لبناء ميناء البصرة هى « الشركة العثمانية للموانى » شارك فيها كل من لينش وبعض البريطانيين ، والهند البريطانية ، وشركة سكة حديد بغداد وكانت الحاجة الى نقل مهمات السكك الحديدية اللازمة للخط قد أدت إلى إنشاء « الشركة الشرقية للنقل البحرى » فى عام ١٩١٣ مناصفة بين شركة لينش والبنك الالمانى ، وكانت شركة لينش « الدجلة والفرات » تسيطر عليها سيطرة فعلية . فظهر أن النفوذ البريطانى والمصالح البريطانية تزيد عن مصالح كل من الدولة العثمانية والمانيا فى هذا المجال . وقامت الحرب العالمية الأولى قبل أن تصدق حكومة القسطنطينيه على هذه الاتفاقيات (مايو سنة ١٩١٣ ومارس سنة ١٩١٤) وقبل انتهاء سنة ١٩١٤ نجح البريطانيون فى القضاء على النفوذ الألمانى بل والعثمانى فى هذه المشروعات .

وأما عن السكك الحديدية فى العراق فقد بدأت مشروعاتها منذ القرن التاسع عشر ، فى الثلاثينات، مع مشروع شسنى ، وفى الخمسينات مع مشروع أندرو ثم مع مشروعات فون برسل النمساوي ، وتوتيني الايطالى وجوتار الفرنسى وكابنست الروسى . ولقد قامت محاولة لانشاء شركة محلية للسكك الحديدية بين بغداد والخانقين فى الثمانينات ، ولكنها فشلت نتيجة للصعوبات المالية وكذلك فشلت المحاولة الثانية سنة ١٨٩٠ . ولكن الحديث عن سكة حديد بغداد قد بلغ أقصاه فى نهاية القرن الماضى ، نتيجة لإهتمام المانيا بمصالحها الشرقية

منذ سنة ١٨٨٨ . فقامت الشركة العثمانية لسكك حديد الأناضول فى سنة ١٨٩٢ باكمال خطها الى أنقرة ، ثم وصلت به الى قونية سنة ١٨٩٦. وحصلت فى هذه السنة الأخيرة على حق مد الخط الى دياربكر ثم فى العراق . ولكن الروسيا احتجت على المشروع فاضطرت الدولة العثمانية الى صرف النظر عن مواصلته الى دياربكر ، ووقف النشاط لمدة عامين . وجاء الامبراطور الألمانى فى زيارته الثانية للدولة العثمانية ، وأعلن صداقته للسلطان وللخلافة والاسلام ، ونجح فى الحصول على امتياز لألمانيا فى سنة ١٨٩٩ لبناء خط حديدى من قونية الى الموصل وبغداد والخليج العربى . وحضر خبير المانى لدراسة الطرق الى العراق ، وظهرت طرادة المانية فى الخليج ، وقررت لجنة فنية سنة ١٩٠٠ تحاشى المرور فى أراضى الكويت حتى لاتثير الشكوك البريطانية ، واجتمع ساسة تركيا والمانيا لبحث الاتفاق النهائى وأخذت كل من لندن ونيودلهى فى مراقبة الحال بكل اهتمام ، ووصلت سكك حديد الأناضول الى اتفاق مع كل من الحكومة العثمانية والبنك الألمانى .وتوجت « الارادة » الصادرة فى يناير سنة ١٩٠٢ هذا الاتفاق . وأدخل على المشروع بعض التنقيحات ، وعدل فى مارس سنة ١٩٠٣ بشكل يؤكد نجاح الألمانيين فأصبح من المتوقع البدء فى انشاء خط من قونية الى الخليج العربى ، وفروع له داخل العراق ، بشروط مالية سخية ، مع انشاء شركة جديدة تسمى الشركة الامبراطورية العثمانية لسكك حديد بغداد .

وأثار نشر عقد الامتياز كل الاهتمام الدولى . فنجد أن الفرنسيين الذين وافقوا فى عام ١٨٩٩ على مبدأ المشاركة ، يتراجعون. فحاول الألمان الوصول إلى تعاون مع البريطانيين ، ولكن الرأي العام البريطانى وبخاصة الدوائر المالية والسياسية والتى كانت منقسمة على نفسها ومترددة منذ سنوات ، أظهرت

خوفها من تهديد المشروع للهند ، وللمصالح البريطانية فى العراق وفى الخليج العربى . وأعلن بلفور أن بريطانيا تمتنع من المشاركة فى مثل هذا المشروع فأسقط فى يد المانيا ، خاصة وأن بعض الدوائر العثمانية نفسها كانت تعارض المشروع وتنقده . وبالرغم من محاولة بعض العراقيين الدفاع عنه ، إلا أن غيرهم رأي فيه تمهيداً للتوغل الأجنبى والمسيحى فى الأقليم .

وتقدم المشروع فى آسيا الصغرى من سنة ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ بكل بطء ، وتقدمت الدول العظمى بمشروعات مساعدة أو مضادة . فاقترحت بريطانيا إنشاء خط حديدي من بور سعيد الى العقبة فالجوف فالبصرة ، وإقترحت فرنسا خطاً من حمص إلى دير الزور فبغداد والموصل . ولكن الحكومة العثمانية رفضت كل منهما . وواصلت المانيا مجهوداتها لضمان المشاركة البريطانية فى خط بغداد ، وردت عليها بريطانيا سنة ١٩٠٧ بأن معارضتها للمشروع الألمانى لن تختفى إلا إذا حصلت بريطانيا على امتياز انشاء الجزء الواقع بين بغداد والبصرة ولها وحدها .

ولقد ساءت العلاقات مع المانيا نتيجة لوصول جمعية الاتحاد والترقى الى الحكم ، ولم تأخذ هذه العلاقات العثمانية الألمانية فى التحسن الا فى سنة ١٩١١. وواصلت بريطانيا رفضها المساهمة المالية ، وعارضت فى محاولة الدولة العثمانية زيادة الضرائب الجمركية فى موانيها . وفشلت اقتراحات سنة ١٩١٠ لجعل المصالح البريطانية متفوقه فى الجزء الجنوبى من السكة الحديدية ، كما فشلت فى أول العام التالى المقترحات العثمانية الخاصة بانشاء شركة عثمانية ـ فرنسية ـ بريطانية لبناء الخط بين بغداد والبصرة . فاضطرت المانيا فى مارس سنة ١٩١١ إلى التنازل عن حقوقها فى جنوب العراق ، وذلك نظير وعد لها

بالاشتراك فى أى شركة غير عثمانية ، أى أجنبية ، يعهد إليها ببناء السكك الحديدية فى هذة المنطقة .

وكانت المانيا قد توصلت باتفاقية بوتسدام سنة ١٩١٠ إلى الاعتراف بمركز الروسيا فى شمال الفرس ، وقبلت عدم معارضة مد السكك الحديدية الروسية من طهران إلى الخانقين . ولما ثارت ثائرة فرنسا نتيجةلهذهالاتفاقية عمدت المانيا إلى تعزيتها وتهدئتها ، بالاعتراف بمركز فرنسا الخاص فى سوريا وذلك باتفاقية أخري تؤكد لألمانيا مشاركة فرنسا المالية فى إنشاء سكة حديد بغداد . ثم واصلت المانيا محادثاتها مع بريطانيا لانشاء سكة حديدية فى جنوب العراق ، وهى المنطقة التى تهم بريطانيا ، إذ أنها تتحكم فى وصول النفوذ الألمانى إلى مياه الخليج العربى . ووصل الطرفان الى اتفاق فى مايو سنة ١٩١٣ إعترف باستقلال الكويت المحلى « داخل نطاق الدولة العثمانية » ، وبمركز بريطانيا « الخاص » فى الخليج العربى ، ونص على أن نهاية خطالسكة الحديدية سيكون فى البصرة نفسها إلى أن توافق بريطانيا على مده إلى الساحل ، ووافقت شركة السكك الحديدية على تعيين مديرين بريطانيين فيها ، كما ضمنت بريطانيا تفوقها فى الملاحه النهرية . فوافقت بريطانيا فى نظير ذلك على رفع رسوم الجمارك العثمانية فى البصرة من ١٠ إلى ١٥ ٪ .

ولقد وقع السير ادوارد جراي فى ١٥ يونيو سنة١٩١٤ بالأحرف الأولى من اسمه على الاتفاقية النهائية الخاصة بذلك مع السفير الألمانى فى لندن . ووضعت هذه الاتفاقية حدا للمعارضة البريطانية لمشروع السكك الحديدية الذي يصل حتى البصرة ، كما أنها أكدت تطبيق سياسة الباب المفتوح فى التجارة فى العراق ، واعترفت بالمصالح البريطانية فى شئون الري العراقية ، وأكدت موافقتها على شروط الاتفاقية البريطانية — العثمانية (مايو سنة

١٩١٣) الخاصة بالملاحة النهرية . واعترفت المانيا بجنوب فارس كمنطقة نفوذ بريطانية لاستغلال البترول ، ولانشاء السكك الحديدية. ولكن الحرب أعلنت قبل أن يتم التوقيع النهائى على هذه الاتفاقية .

وكانت شركة سكة حديد بغداد قد أرسلت ميسنر باشا منذ شهر يوليو سنة ١٩١١ الى عاصمة العراق لـكى يبدأ فى العمل ، فاختار موقع انشاء المحطة ونجح بعد سنة كاملة فى افتتاح أول الخط من بغداد الى سمارا وفى حضور الوالى . ولكن الصعوبات احاطت به من كل جانب ، خاصة وأن النقل النهرى الضرورى لارسال المهمات الى بغداد كان تحت السيطرة البريطانية . وشاب شعر ميسنر فى ثلاث سنوات رغم صغر سنه . ولم يتم حتى شهر مايو سنة ١٩١٤ الا بناء ٤١ ميلا . ولكنه نجح فى بناء ثمانين ميلا أخري ، ووصل بغداد بسمارا بعد أسابيع قليلة من اعلان الحرب . وكان مجهوداً كبيراً ، وضحت فيه المعارضة البريطانية ،بل والسيطرة الاستراتيجية وخصوصا من الخليج العربى .

وكذلك وضحت المصالح البريطانية الاقتصادية فى مشروعات تحسين وسائل الرى ، فأخذ السير ويليام ولكوكس الذى تمرن فى مصر ، على دراسة امكانيات العراق ، وحصل على منصب مستشار الرى سنة ١٩١٠ . وقامت شركة جاكسون بتنفيذ المشروعات البريطانية فى الدولة العثمانية . ورغم قلة الموارد وضعف الميزانية ، الا أن هذا يثبت تفوق المصالح ، بل وظهور الأطماع البريطانية الاقتصادية فى المنطقة .

وأخيراً وليس آخرا نصل الى البترول . وكان الأهالى يستغلون الزيت فى شمال العراق وبطريقة بدائية منذ عصور طويلة . ولكننا لم نسمع عن

استغلاله بشكل حديث الا فى أوائل هذا القرن ، حيث أعطى امتيازات سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٣ لشركة سكك حديد الأناضول حق استغلال البترول على طول شريط ضيق يبلغ عشرين كيلو مترا مجاورا للخط الحديدي . وأكد السلطان العثمانى فى ديسمبر سنة ١٩٠٣ « اراداته » السابقة وأعلن أن المالك الوحيد لزيت العراق هو « الخاصة الشاهانية » . وأعطت الخاصة في يوليو سنة ١٩٠٤ امتيازا آخر للبحث عن البترول الى سكة حديد بغداد ، وقامت هذه الشركة بتحويله الى البنك الألمانى .

وفى نفس الوقت نجد عناصر منافسة . ذلك نجد أن دارسى الذي نجح فى الحصول على امتياز استغلال البترول فى فارس قد أرسل مندوباً عنه الى القسطنطينية سنة ١٩٠١ وقام بعد ثلاث سنوات من المفاوضة والوعود الوزارية والشفهية ، بتكوين « الاتحاد العثمانى للبترول » . ولم يؤخر من نجاحه فى الحصول على امتياز هام سنة ١٩٠٨ الا قيام ثورة تركيا الفتاة واصدار الإرادة التى نقلت حقوق البترول العثمانى الى ملكية الخزانة . فبدأت المفاوضات من أساسها ، وظهر الى جانبه فى الميدان شركة بريطانية أخرى متحدة مع جولبنكيان الأرمنى ، والذي كان مندوبا عن الأميرال شستر الأمريكى .

وقام جولبنكيان فى يناير سنة ١٩١١ بتكوين شركة الامتيازات الافريقية والشرقية . وشارك فيها بنك تركيا الاهلى ، وهو حديث التكوين وتحت اشراف بريطانى ، وشركة شل ، والبنك الالمانى وجولبنكيان نفسه واتخذت هذه المجموعة لنفسها فى آخر عام ١٩١٢ اسم « شركة البترول التركية » بعد أن ضاعفت رأسمالها ووافق البنك الالمانى على التنازل لها عن امتيازه السابق . وواصل دارسى مجهوداته ، وخاصة بعد أن نجح فى سنة ١٩٠٩ فى تكوين

الشركة الأنجلوفارسية للبترول. فاتحدت هذه القوى الاستغلالية مع بعضها سنة ١٩١٣ وجاءت الاتفاقية البريطانية الألمانية فى المجال الدولى لكى تدعم تعاون الشركات مع بعضها فى ميدان الاستغلال الرأسمالى .. فأعيد تكوين « شركة البترول التركية » على أساس الاحتفاظ بـ ٢٥ ٪ من أسهمها للبنك الألمانى والربع الثانى لمجموعة شل والنصف للشركة الانجلوفارسية ، محتفظين لجولبنكيان بخمسة فى المائة من الأسهم . وتقدم الجميع لرئيس وزراء الدولة العثمانية ، طالبين منحهم امتيازاً لاستغلال البترول ، وأيدهم فى ذلك كل من سفراء بريطانيا وألمانيا فى القسطنطينية . فجاء الرد فى خطاب الأمير سعيد حليم بتاريخ ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ . معلناً لهم موافقة وزارة المالية على منح شركة البترول التركية حق استغلال موارد البترول التى اكتشفت أو تكتشف فى المستقبل فى كل من ولايتى الموصل وبغداد ، وأن الدولة العثمانية تحتفظ لنفسها بحق تحديد نصيبها ، وكذلك الشروط العامة للاتفاقية . ولقد استندت الحكومة العراقية فى سنة ١٩٢٣ الى هذا الخطاب لكى تعطى امتياز الشركة الأنجلوعراقية الى هذه المجموعة الرأسمالية بعد تعديلها نتيجة لخروج المانيا ، واحلال فرنسا محلها . وسنري فيما بعد الشروط التى وضعت لا لتحديد نسب مشاركة رؤوس الأموال ، بل لتوزيع الأرباح ، ونصيب الحكومة الوطنية منها .

وهكذا تكاتفت العوامل الاستراتيجية والاقتصادية لإظهار المصالح ثم الأطماع الاستعمارية فى العراق . وجاءت سنة ١٩١٤ وبريطانيا على رأس قائمة الطامعين الاستعماريين .

٣ ـ الاحتلال البريطانى :

كان من الواضح أنه فى استطاعة العراق أن يصل الى تحسين أحواله

الاقصادية،خاصة بعد الاهتمام بوسائل المواصلات ، والالتفـــات الى البترول رغم أن الاستغلال قد وضع فى أيد أجنبية. وكان من الممكن للعراق أن يحسن أحواله الاجتماعية ، خاصة وأن الآراء الحديثة ووسائل التعليم قد أخذت فى الانتشار فيه ، وأصبح من المتوقع أن يدعم علاقاته بالبلاد العربية الاخري ، الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية . ولكن إعلان الحرب العالمية الأولى الق بالعراق فى تجربة عنيفة وقطع بينها وبين جيرانها العرب .

ورغم ازدياد النفوذ والأطماع البريطانية فى العراق فقد كان من المستبعد أن تقوم القوات البريطانية باحتلال العراق عسكريا فى صيف سنة ١٩١٤ ولكن الحكومة البريطانية درست مع سلطاتها فى الهند عناصر الموقف فى الشرق الأدنى وبخاصة فى منطقة الرافدين . فوجدت أن فى استطاعة الدولة العثمانية أن توصل النفوذ الألمانى الى منطقة شط العرب ، فيعمل بدوره على تهديد النفوذ البريطانى فى منطقة الخليج العربى . وخشيت السلطات البريطانية بنوع خاص من اعلان الدولة العثمانية للتعبئة ، ومن حشد قواتها وتسييرها صوب جنوب العراق . وكان من السهل على القوات العثمانية أن تعمل فى منطقة عربستان فى غرب فارس ، وتحرم بريطانيا من موارد البترول ، بل كان فى استطاعتها كذلك أن تقضى على النفوذ البريطانى فى جنوب الفرس وتهدد الادارة الاستعمارية البريطانية فى الهند ذاتها . ولذلك فان السلطات البريطانية فى الهند قد اتخذت للأمر أهبته قبل دخول تركيا الحرب. ورغم ارسالها لعدد كبير من قواتها الى ميدان الحرب فى فرنسا ، وعدم وثوقها فى قوات هندية إسلامية قد تنضم الى جنود خليفة المسلمين فى أرض المعركة نفسها فان السلطات البريطانية قررت منذ ٢ اكتوبر إرسال قوة حربية الى الخليج العربى ، للدفاع عن منشآت البترول فى عبدان ، وللتمهيد لعمليات إنزال

قوات تاليه ولضمان ولاء المشايخ المحليين. ولقد أقلعت هذه القوة في يوم ١٦ من الهند ، ووصلت بعد أسبوع الى البحرين . وكان السير برسى كوكس هو الضابط السياسى المرافق لهذه الحملة الصغيرة. فما أن أعلنت الدولة العثمانية الحرب فى ٥ من نوفمبر . حتى نشر على الأهالى فى منطقة الخليج العربى بلاغا ذكر فيه أن بريطانيا لاتضمر أى عداء للعرب ، ماداموا يظهرون صداقتهم لها ، وأن القوات البريطانية لم تحضر إلا لتواجه الاعتداء التركى وتدافع عن أصدقائها العرب. وقامت قطع الأسطول البريطانى باسكات قلاع فاو فى اليوم التالى ، ونزلت القوات الى عبدان ، وزحفت منها صوب الشمال. ولقد قامت القوات العثمانية بمقاومة الغزو البريطانى فى موقعتين حاميتين فى سيحان والساحل فى يومى ١٥ ، ١٧ نوفمبر ، ولكنها اضطرت الى التقهقر أمام مدفعية الأسطول. وحاولت أن تسد مدخل شط العرب باغراق بعض السفن فيه ولكن ذلك لم يمنع القوات البريطانية من التقدم ومن احتلال البصرة فى يوم ٢٢ . وبدأ بذلك الاحتلال البريطانى للعراق .

كانت بريطانيا قد بلغت الهدف الذي سعت اليه بارســـال هذه الحملة وباحتلالها عبدان والبصرة . ورغم أن أركان الحرب كان لايعلم الكثير عن شئون العراق والقوات العثمانية الموجودة فيه فانه قد طلب من حكومة الهند ، ومنذ دخوله البصرة ، أن تسمح له بالتقدم وباحتلال بغداد. فرفضت حكومتى لندن ودلهى هذا الطلب . وأخذت السلطة العسكرية فى انشاء إدارة للمنطقة الخاضعة لها وأحضرت بعض قوات البوليس من الهند ، ومن السودان ومن الصومال ، وجمعت بعض المشايخ ، وطلبت منهم إرسال برقية تهنئة للملك جورج الخامس . وحضر نائب الملك فى الهند اللورد هـاردنج لزيارة البصرة فى فبراير سنة ١٩١٥ وحاول السيد طالب مقابلته ، ثم تفاهم

مع السير برسى كوكس فى أمر تقديم خدماته للبريطانيين فى نظير الاعتراف به كأمير عربى على المنطقة المحتلة ، ولكن البريطانيين رفضوا هـذا الطلب إذ أنهم لم يكونوا فى حاجة الى أعوان يطلبون الألقاب والإعانات المالية مادامت قواتهم الاستعمارية تسيطر على الاقليم ، وبالقوة الصريحة .

وعملت القوات العثمانية على مهاجمة القوات البريطانية فى كل من عربستان وجنوب العراق ، وكبدت البريطانيين خسائر فادحه . وقام أنصـارها فى عربستان بنسف خطوط أنابيب البترول ، كما اشتبكت مع البريطانيين عند شعيبة فى جنوب العراق فى معركة حامية دامت أربعة أيام فى شهر ابريل ١٩١٥ ولكنها اضطرت بعدها الى التقهقـر ، نتيجة لتمرد القـوات العربيـة ومهاجمتها للجنود الاتراك ، ولانتحار القائد العثمانى سليمان بك العسكرى أمام هذا الموقف الفاضح .

وواصلت بريطانيا إرسال قواتها المحاربة الى جنوب العراق وكلفتها رسميا ، منذ شهر ابريل سنة ١٩١٥ ، بالسيطرة تماما على ولاية البصرة وعلى كل المناطق المجاورة الضرورية لأمنها ، وبأن تضمن سلامة آبار البترول والأنابيب ومعـامل التكرير ، وبأن تدرس الخطط اللازمة للتقدم صوب بغداد واحتلالها . ولقد قامت هذه القوات فى شهر يوليو بالاستيلاء على قرنه والاهواز والعمارة والناصرية ، ولكنها أصبحت مشتتة ، وأضحى من الصعب عليها امداد الحاميات المتقدمة عند هجوم العثمانيين عليها . ورغم انهزام البريطانيين فى غاليبولى فان سحر بغداد كان يجذبهم شمالا وخاصة بعد المعارك البسيطة التى كسبوها وانتصروا فيها على العثمانيين . وسمحت حكومات لندن ودلهى للقوات البريطانية فى أوائل شهر أكتوبر بالتقدم وبالاستيلاء على بغداد . ومع تقدم هذه القوات بقيـــادة الجنرال تونسند طالت خطوط

مواصلاتها ، وكانت القيادة تجهل فى نفس الوقت أمر تقدم فرقتين عثمانيتين صوبها وبقيادة خليل باشا . ووقعت موقعة حامية فى العزيزية ، اضطرت بعدها القوات البريطانية إلى التقهقر إلى كوت فى حالة من الانهاك يرثى لها . واضطرت هذه الحملة إلى البقاء فى الحصار فى هذا الموقع مدة ١٤٠ يوما ، إلى أن استسلمت للقوات العثمانية بدون قيد ولا شرط فى ٢٩ ابريل سنة ١٩١٦ وتمكن العثمانيون من الدفاع عن العراق ، ومن صد البريطانيين عن التقدم شمالا أكثر من كوت حتى ربيع سنة ١٩١٦ .

ولقد قامت السلطات البريطانية فى سنتى ١٩١٥ و ١٩١٦ بتكوين فيلق من العمال العرب يخدمون فى المعسكرات البريطانية ، لسد حاجتها من ناحية ولمواجهة الحالة الاقتصادية التى سادت فى الاقليم من ناحية أخرى . ثم أدخلت العملة الهندية (الروبية) وبدأت فى انشاء ادارة مدنية باشراف السير برسى كوكس ومساعدة ويلسون . وأعلن كثير من مشايخ العرب ورؤسائهم رفضهم الخضوع لادارة يسيطر عليها المسيحيون ، فزادت السلطات البريطانية من إنفاق الأموال ، وكونت قوات من البوليس الراكب (الفرسان) من بين الأهالى ، وبقيادة ضباط بريطانيين لتدعيم سلطتها على المنطقة .

وأخذت السلطات البريطانية من جنوب العراق فى الاتصال برؤساء العرب ومحاولة ضمهم اليها . فاتصلت بابن الرشيد فى شمر ، ولكنه رفض التحدث معها ، وبقى على ولائه للدولة العثمانية . أما مبارك آل الصباح فانه توفى سنة ١٩١٥ وتولى ابنه جابر شياخة الكويت مكانه لمدة سنة ، ثم تلاه ابنه الثانى سالم . وسرعان ما ظهر للبريطانيين أن سالم يميل إلى الأتراك ، ويفضل حركة الجامعة الاسلامية على التحرر فى ظل العلم البريطانى . فاضطرت السلطات

البريطانية إلى ارسال حملة لاحتلال الكويت والبقـــاء فيها . كما اتصل البريطانيون بعبد العزيز بن عبد الرحمن فى الرياض ، وأرسلوا إليه شكسبير ، وتمكنوا من عقد اتفاقية معه قبل نهاية عام ١٩١٥ . ونظراً لعدم تمكن الأهالى أو السلطات الاستعمارية من اللغة التركية ، نجد أن سلطات الاحتلال تستخدم اللغة العربية ، إلى جانب الانجليزية ، كلغة رسمية فى المنطقة المحتـلة . فرحب العرب بذلك ، كنصر للغتهم القومية . وكذلك ترك البريطانيون المحاكم تعمل بالعربية ، وصدرت جريدة رسمية فى البصرة بالعربية والانجليزية. وسرعان ما فتحت بعض المدارس الوطنية ، ولكن البريطانيون قدموا مساعدات فائقة لمدارس المبشرين ومدارس الطائفة الاسرائيلية .

ومن الجانب الآخر من خطوط القتال نجد أن الوئام قد ساد بين العثمانيين والعرب بعد إعلان الحرب والدعوة للجهاد ، ونادى كل من شيوخ السنة ورجال الشيعة بالوقوف إلى جانب دار الخلافـة . ولكن الظروف تطورت وقررت الدولة العثمانية الخدمة الاجبارية على الجميع ، ثم أخـذت فى التصلب تجاه القادة العرب المتحررين ، وظهر ميلها إلى أهل السنة أكثر من ميلها إلى رجال الشيعة، فأخذت المصاعب فى الظهور أمامها ، وشهدت آخر أيامهـا فى العراق كفاح مراكز الشيعة ضد السلطة العثمانيـة ، وفى الوقت الذى تقدمت فيه قوات الاحتلال الأجنبية من الجنوب . وبدأت الدولة فى اساءة معامـــلة المسيحيين الذين أظهروا ميلا لأعدائها ، وفى أثناء الحرب ، وأوقفت نشاط الجمعيات المسيحية الأجنبية ، وقيدت من حرية الجمعيات اليهودية . وظهر أن الأرمن فى الشمال من العراق يناضلون ضد الدولة العثمانية. وأخيرا تم الانقسام بين أهل السنة أنفسهم إلى أتراك وعرب ، عندما أعلن الشريف حسين الثورة

على الدولة العثمانية . كان كل هذا يفتت من القوي الاقليمية ، ويضعفها أمام بعضها وفى معارك داخلية ، ويفتح الباب على مصراعيه للقوات الاستعمارية المتربصة .

وقضت السلطات البريطانية عام ١٩١٦ فى الاستعداد فى جنوب العراق فأنشأت ميناء حديثاً فى البصرة مجهزا بالأرصفة والمخازن ، واستخدمت فيه العمال العرب . وأخذت الناقلات والسفن التجارية تصل فى كل يوم مشحونة بالأسلحة والذخائر والمهمات والأطعمة وأدوات السكك الحديدية . واهتمت السلطات البريطانية بالطرق البرية وأحضرت بعض السفن للملاحة على الدجلة والفرات . ووصلت القوات من الهند ومن ميادين القتـــال فى أوربا ، ثم تقدمت هذه القوات فى شهر ديسمبر من الجنوب ، ومستندة إلى هجوم القوات الروسيـة من الشمال ، صوب إيران وكردستان . ودخلت القوات البريطانية بغداد فى ١١ مارس سنة ١٩١٧ ، وسيطرت على المنطقة المحيطة بها . ولكنها اضطرت إلى عدم المغامرة أبعد من ذلك ، وفضلت انتظـار وصول جيش « الصاعقة » العثمانى التى هددت الدولة بارساله لالقاء البريطانيين فى البحر . ولكن الدولة كانت مشغولة بتقدم قوات الأعـــداء ضدها من شبه جزيرة سيناء ، فى فلسطين وصوب سوريا ، وكانت مشغولة كذلك بالموقف فى الجزيرة العربية وفى الحجـاز ، وتركز اهتمامها فى سوريا قبـل غيرهـا من المناطق ، فبقيت جبهة العراق دون عمليات حربية هامة .

ولم تدخل القوات البريطانية أراضى ولاية الموصل الا فى مايو سنة ١٩١٨ حيث احتلت كركوك ، ثم اضطرت إلى اخلائها بعد اسبوعين بسبب صعوبة المواصلات والتموين . وما أن علم البريطانيون ، قرب نهاية شهر اكتوبر ، بأن تركيا تستعد لقبول الهدنة حتى قاموا بالزحف من جديد على كركوك .

ولكن القائد على احسان باشا وقف فى سبيلهم فى معارك دامية قضى فيها على جزء كبير من قوات الجيش السادس العثمانى . ثم انسحب هـــذا القائد إلى الموصل حيث وصلت أنباء هدنة مودروس التى وافقت بها تركيا على أن تسلم حامياتها الموجودة فى العراق لقيادة الحلفاء ، وعلى حق هذه القيادة فى احتلال المواقع الاستراتيجية اللازمة لضمان أمن قوات الحلفاء . ولكن احسان باشا رأى أن البريطانيين يتوغلون فى الولاية لاحتلالها بعد اعلان الهدنة ، فطلب منهم أن يتقهقروا إلى المواقـع التى كانوا يحتلونهـا يوم ١٣ من اكتوبر ، وادعى القائد البريطـــانى من ناحية أخرى أن الهدنه تسمح له باحتـلال « ولاية الموصل » ولكنه فشل فى إخراج احسان باشا من الموصل ، إذ أن هذا القائد قد أصر على أن قواته ليست « حامية » بل جيشا فى الميدان ، وعلى أن الموصل ولاية مستقلة ومنفصلة عن ولايتى بغداد والبصرة . ولـكن احسان باشا اضطر فى ٧ نوفمبر إلى التوقيع على تعهد باخلاء الموصل فى مدة عشرة أيام ، وقعه تحت التهديد ، ووقعه مع الاحتجـاج . وانسحب بقواته فى هذه المهلة ، وضمت القوات البريطانية ولاية الموصل إلى بقية العراق مستندة إلى « الأمر الواقع » . أما تركيا فقد أعتبرت أن هذه الولاية منفصلة عن العراق من الناحية القانونية . ولم تسوى المسألة نهائيا إلا بعد سنـوات .

٤ — الادارة المباشرة وعدم الرضاء :

عمد البريطانيون منذ أول احتلالهم للأراضى العراقية إلى فرض إدارتهم المباشرة على المناطق التى تخضع لقواتهم . وكان القائد العام للقوات البريطانية فى العراق هو المسئول عن الإدارة ، ولـكنه اضطر أمام مسئولياته العسكرية إلى ترك الشئون المدنية لمندوب مدنى خاضع له . واختارت الحكومة البريطانية لهذا المنصب الخطير السير برسى كوكس الذى سيطر على الموقف

حتى شهر مايو سنة ١٩١٨ حيث نقل إلى منصب الوزير البريطانى فى فارس وترك منصب بغداد لمساعدة الكولونيل ويلسون ، يديره بالنيابة .

ولقد عملت ظروف الحرب وامكانياتها على تطور الموقف الاقتصادي والاستراتيجى والسياسى وفى صالح بريطانيا .

فما أن نزل البريطانيون فى الجنوب حتى شعروا بحاجتهم إلى خدمة العرب. فاستخدموا العمال العرب فى ميناء البصرة وفى المعسكرات وفى انشاء السكك الحديدية والطرق التى أمتدت مع زحفهم شمالا ، وأيدت هذا الزحف . فاختفت البطالة ، وزادت الثروة فى أيدى أهالى البصرة وجنوب العراق ، ولم نسمع عن المقاومة ، بل على العكس من ذلك ، إرتفعت أسهم العناصر العربية الانفصالية ، وسايرت الموقف . فقام النقيب السيد عبد الرحمن ، بالاتصال بالبريطانيين ، وأرسل كثير من مشايخ العرب بتهانيهم وبرقياتهم إلى البريطانيين فى البصرة . وشارك فى هذه الحركة عدد من رجال الطبقة الوسطى ، التى تعمل فى التجارة ، وعدد من العناصر الدينية وخاصة رجال الشيعة .

وحينما امتدت الحرب شمالا صوب بغداد ، تعرضت بعض المدن لنقص مواد التموين ، كما تعرضت للتخريب أيضا ، نتيجة للعمليات . وسرعان ما دخل البريطانيون ، وعملوا على تشغيل العمال ، واحضار التموين من البصرة . فزادت الثروة فى أيدى أهالى هذه المنطقة كذلك . وعاد بعض المشايخ ورجال القبائل إلى أراضيهم ، بعد أن كانوا قد إنسحبوا منها مع الاتراك ، وأمام الغزو الاستعماري .

وكانت الأمور تسير بسرعة وبهمة فى أثناء الحرب ، وظهر فيها التسلط نتيجة لسهولة إتخاذ القرارات واصدار الأوامر من ناحية ، ولكثرة

الإمكانيات الاقتصادية من ناحية أخرى . فقررت القيادة البريطانية احتياج الإقليم إلى انتاج القمح ، ثم أمرت بانتاج ٣٠٠٫٠٠٠ طن في العام . ثم شجعت المشايخ وأعطت السلفيات مع كميات من البذور . فأقبل الزارع على انتاج ما يحتاجه العراق ، وما قد تحتاجه بعض أجزاء أخري من الامبراطورية البريطانية . واستخدمت السلطات البريطانية عددا من العمال العرب فى شق بعض الترع وتطهيرها . فتكاتفت كل هذه العوامل على العمل ، على زيادة الإنتاج . وعلى زيادة الثروة ، وعلى الاتفاق ، ونزلت العوامل السياسية والنفسية إلى مستوى ضحل ؛ ولم يظهر التضارب بين الاستعمار وبين القوي الوطنية لفترة من الزمن . بل وظهر بجلاء أن أسهم البريطانيين قد ارتفعت فى هذه المنطقة من العالم العربى .

ولكن سيطرة بريطانيا على الإدارة فى العراق قد أدت إلى احتكاكها بالقوى الوطنية ؛ وخاصة ذلك القطاع الذى حاول أن يحصل على ادارة شئون الإقليم من الدولة العثمانية ، أى الاستقلال المحلى ؛ إذ أن الادارة البريطانية جاءت لكى تسد الطريق أمامه وتحاول وقف نموه . ومع ازدياد تغلغل البريطانيين فى الادارة من ناحية ، وتطور الموقف الاقتصادى والسياسى من ناحية أخرى ، بدأت مظاهر عدم الرضاء من البريطانيين فى الوضوح ، وظهرت مع الشيعة ، ومع الاكراد ومع العرب .

كان البريطانيون قد استعانوا بأحد رؤساء العصابات السابقين ، وهو عطية أبو قلل فى حكم النجف . ونجح هذا الرجل فى اسكات كل معارضة ؛ ولكن سرعان ما ظهر فساد بل واجرام هذا النظام . فعمدت السلطات البريطانية الى تغييره واستوردت حاكما من الخارج ، وان كان من الشيعة

وهو حميد خان (ابن عم الاغاخان) . وكان فى استطاعته أن يدير شئون الاقليم لو لم يكن أجنبيا ، ولم تكن هناك ظروف حرب ، ومجتمع يسير بخطى واسعة صوب التحرر والتطور . فظهرعجزهذا المتصرف بكلوضوح، وقامت المشكلات ضده ، فاضطر الى الانسحاب . فعينت السلطات البريطانية أحد ابناء الاقليم ، وأيدته بسلطاتها وقواتها. وبدا أن بريطانيا قد سيطرت على شيعة العراق ، ولكن سرعان ماظهر أن أطماع بريطانيا هى استعمارية واضحة ، اذ تقدمت القوات البريطانية فى غرب فارس وعملت على الاستيلاء على السلطة فى مناطق الشيعة خارج العراق كذلك . فحدث انقسام بينصفوف الشيعة ، ورغم بقاء عدد من علمائهم وشيوخهم موالين لبريطانيا ، فقد أظهرت الأغلبية عداءها لهذا الاستعمار ، ووقعت حوادث ـ اغتيال الضباط والجنود والموظفين البريطانيين فى مناطق الشيعة فى العراق .

اما مناطق الاكراد فى شمال العراق فقد رحب بعض الرؤساء فيها بمجىء البريطانيين ، اذ انهم كانوا يحاولون الحصول على استقلالهم وانشاء دولة كردستان. وكانت حركتهم تستند الى بعض الدعاة فى أوربا ، وفى فرنسا بنوع خاص وجاء مبدأ حق الشعوب فى تقرير مصيرها مشجعاً لهم . وكانت حركة الأرمن وتأييد الغرب لها سابقة لهم فى هذا الطريق . واعتقدوا ان بريطانيا ستقف الى جانبهم ما دامت هى دولة « الحرية والديموقراطية » . ولكن الموقف تطور مع الزمن . فاخذت القوات البريطانية المتوغلة فى شمال غرب فارس فى الاتصال بالآشوريين المسيحيين وفى تقديم المعونات لهم . فاغضب ذلك الاكراد. وكذلك قدم البريطانيون المساعدة للأرمن وعملوا على تجنيد بعضالكتائب من كل منالآشوريين والأرمن ، ودخلتهذه الكتائب فى مناطق الاكراد من وقت الى آخر . فبدأت مظاهر عدمالرضا فى الظهور

بين الاكراد ، وضد البريطانيين . وعملت الحكومة البريطانية على تحاشى اغضاب فرنسا فى شأن ولاية الموصل ، فظل مستقبل هذه الولاية مطلقاً الى أن تتم تسويته مع الصلح مع تركيا . واحتفظت بريطانيا بادارة الموصل منفصلة عن ادارة بغداد ، فاغضب ذلك العرب واغضب فى نفس الوقت الاكراد الذين وجدوا انفسهم فى ظل حكومة بريطانية مباشرة ، وهى حكومة مسيحيه ، وفى علاقات ودية مع الأرمن والآشوريين. فنشأت القلاقل ثم الاضطرابات واضطرت السلطات البريطانية فى بغداد الى ارسال قوات عسكرية الى الشمال . ولم يمنع ذلك من قتل الضباط والجنود والموظفين البريطانيين فى المنطقة . ومرة أخرى نجد انه بالرغم من مسايرة بعض المشايخ والرؤساء الأكراد للحلفاء البريطانيين نجد عدم الرضاء ، بل والرغبة فى المقاومة ، تأتى من الطبقات الشعبية التى لا تأبه لمهادنة أى طبقات أخرى للاستعمار الأجنبى .

وكذلك المناطق العربية الصميمة ، فقد دفعتها العوامل المختلفة الى التصادم مع البريطانيين . ذلك أنها كانت قد رحبت بمبادىء الرئيس ويلسون ، ولكنها وجدت أن الدول الاستعمارية تسعى الى التمويه على هذه المبادىء ، أو الافادة منها لتحقيق أطماعها الاستعمارية مما يتنافس مع مصلحة أبناء البلاد . حقيقة أن الحركة العربية بقوتها وقواتها كانت مركزة فى ذلك الوقت فى سوريا ، ولكن سوريا لم تكن بعيدة عن العراق . وحقيقة ثانية هى أن القوى الاستعمارية كانت قد بدأت فى التكاثر على قوة العروبة فى الشام ، وتعاون فى هذه الحركة كل من بريطانيا وفرنسا والصهيونية . ولكن العروبة وقفت هناك رافعة الرأس ، ثابتة الاقدام ، وأنشأ العرب حكومتهم فى دمشق ،

ورسموا من الشام أمر انشاء حكومة عربية مماثلة فى بغداد ، وجاء هذا القرار فى الوقت الذى ظهر فيه الأختلاف فى الرأى بين كوكس وويلسون ، أي بين أنصار انشاء حكومة عراقية مستقلة إستقلالا ذاتيا ، وبين اعوان فكرة مواصلة اخضاع العراق للحكم البريطانى المباشر. فكان موقف الزعماء والقادة العراقيين فى القوات العربية فى الشام إذن يتضارب تمام التضارب مع موقف المعسكرين البريطانيين . المعتدل والمتطرف – إذ كانا فى حقيقتهما استعماريين.

وسرعان ما وقع الخلاف بشأن الحدود السورية العراقية . ذلك أن الضباط العراقيين فى قيادة فيصل أصبحوا لا يطيقون صبرا على توغل الحكم البريطانى وامتداده على كل العراق . فانتهزوا فرصة غيبة فيصل فى أوربا فى سنة ١٩١٩ وأخذوا يحاولون تخليص بعض المناطق المجاورة لسوريا من حكم البريطانيين. ولكن البريطانيين استولوا على الادارة فى منطقة دير الزور وطردوا منها المتصرف العربى الخاضع للواء حلب ، فازدادت الحماسة العربية وزاد تصميم العرب على تحرير بلادهم . وأخذ الجنرال يسن الهاشمى رئيس أركان حرب قوات الحكومة السورية يشرف بنفسه على حركة التحرر الوطنى لانقاذ العراق من تحكم البريطانيين . وشعرت بريطانا بقرب هبوب العاصفة العربية ، وحاولت أن تقلل من إتهامات فرنسا لها بمنافستها فى سوريا ، فقررت فى آخر سنة ١٩١٩ سحب قواتها من سوريا لتدعيم حامياتها فى مناطق أخرى من العالم العربى . ولكن هذه الحركة لم ترهب العرب بل إنهم قاموا بتعيين الحكام والمتصرفين على المناطق التى تخضع للاحتلال البريطانى . ودل هذا على قرب الهجوم العربى الشامل على البريطانيين فى العراق .

وبشكل عام يمكننا أن نقول أن نزول البريطانيين فى العـراق وطبيعة وجودهم وتصرفاتهم كانت تدفع الاقليم دفعا إلى الثورة لتحرير البلاد ، وأن هذه الثورة قد استندت الى اسباب اقتصادية ومعنوية دينية وقومية وسياسية. وكان لا محالة من نشوبها واشتعالها .

فمن الناحية الاقتصادية نجد أن التجارة قد ازدادت مع الخارج ، ولكن إضطرابا عنيفا أصابها . ذلك أنها قد غيرت مجاريهـا وطرقها . فلقـد وقفت التجارة تماما مع كل من تركيا وفارس والروسيا ، وأصبحت التجارة لا تأتى إلا عن طريق الأمبراطورية البريطانية . وزاد إمتـداد السكك الحديدية فى العراق ولكنها كانت تحت تصرف الموظفين الهنود . وزاد الطين بلة أن العراق كان يحتاج إلى كل شىء ، حتى الى مخلفات الحرب للافادة منها محليا ، ولكن البريطانيين رفضوا بيع مخلفات الحرب ووسائل النقل النهرى محليا فى العراق ، وأرسلوها الى الهند ، وأعين العراقيين ترنوا اليها .

ومن الناحية المعنوية الدينية نجد أن كل عناصر العراق لاتوافق على وجود حكم أجنبى ، خاصة وأنه مسيحى . وخشى الشيعة من انشاء سلطات مدنيـة تقضى على سلطتهم وعلى نفوذهم . أما السنة فكانوا لايزالون مرتبطين بالخلافة الاسلامية ، وجاء تأخير تسوية المشكلات الخاصة بالسلم مع تركيا مشجعا لهم على معاداة البريطانيين . وزاد الطين بلة تجنيد البريطانيين لبعض الكتائب من الأرمن والآشوريين واستخدامها فى المحافظة على الأمن والنظـام فى الاقليم ، أى فى كبت المسلمين وقاسى الاكراد فى الشمال من هـذا التصرف أكثر من غيرهم .

وأما من الناحية القومية فقد كان النظـــام الجديد نظاما أجنبيا ، ولم

يعتده الأهالى . واذا كان الوطنيون قد شعروا بشخصيتهم متميزة عن شخصية الأتراك نتيجة لعدم تحدث الأتراك العربية ، ولا يمكن للبريطانيين أن يدعوا إجادتهم للغة الضاد . وكانت إدارتهم تبشر بملىء الادارات العراقية بأبناء الأمبراطورية ، وخاصة الهنود .

ومع نهاية الحرب تخلى البريطانيون عن عدد كبير من المشروعات الانشائية مثل الطرق وغيرها ، وإهتموا بضغط المصروفات ، ووجد الأهالى أن الخبراء البريطانيين لم يصلوا إلى تحويل جذري فى الزراعة ، أو إلى ثورة إقتصادية وتحويل المجتمع الى مجتمع صناعى مثلا ، فظهرت ضحالة المجهودات البريطانية التى اقتصرت على التشجيع والتوجيه ، وظل دور الانتاج منوطا بالوطنى . بل وأكثر من ذلك ، لقد إزدادت الضرائب والالتزامات المالية عنها فى العهد العثمانى . وكانت الادارة لا تستخدم إلا من يجيد الانجليزية ، وهم قليلون فى العالم العربى فى ذلك الوقت فانتشرت البطالة وأصبح عدد كبير من الموظفين السابقين مادة صالحة لعدم الرضاء وإعلان التذمر . وجاءت هذه العوامل لكى تدعم قوة العوامل الاقتصادية وتساعد على تأجج الروح الوطنية الشاملة وفى طريق معاد للبقاء البريطانى فى البلاد .

وهكذا نصل أخيرا الى العوامل السياسية ، التى إستندت إلى الموقف الاقتصادي وإلى التطورات الخاصة بمستقبل الاقليم للوصول بالشعور العربى الى منتهاه .

فرغم أن بريطانيا كانت قد نزلت الى جنوب العراق قبل أن تبدأ مراسلاتها مع الشريف حسين ، نجد أنها توافق على إقامة دولة عربية موحدة فى منطقة الشرق الأدنى ورغم أن بريطانيا قد حاولت إستثناء مناطق البصرة وبغداد

من هذه الدولة ، وذلك في مراسلات السير هنرى مكماهون مع الشريف حسين، وحاولت الوصول إلى اتفاقية خاصة بادارة هاتين الولايتين ، إلا أن المتحدث باسم العرب رفض ذلك ، إلا على أساس أن تكون هذه الإدارة لفترة مؤقتة يتفق عليها الطرفان . ولقد فكرت وزارة الحرب البريطانية فى عام ١٩١٧ فى إقامة إمارة عربيـة على كل من البصرة وبغـداد ، كما فكر كثير من رجال العرب ، بل والبريطانيين أيضا فى إقامة مجموعة من الدول العربية ، وجاء إنشاء حكومة فيصل فى سوريا قبل نهاية سـنة ١٩١٨ مدعما لهذا الاتجاه ومؤيدا له . وكانت مبادئ الرئيس ويلسون ، مع التصريح الانجلـيزى الفرنسى الصادر فى ٧ نوفمبر سنة ١٩١٨ تعمل على إحيـاء الأمل فى صدور الوطنيين العرب ، وفى صدور أبناء العراق ، خاصة وأن التصريح الأخير قد نص على أن هدف كل من فرنسا وبريطانيا العظمى فى منطقة الشرق العربى هو تحرير الشعوب التى كانت ترسخ تحت نير الأتراك تحريرا كاملا ونهائيا، وإقامة حكومات وإدارات وطنية ، تستمد سلطتها من الشعوب .

ومن ناحية أخرى تكفى نظرة واحدة إلى اتفاقية سايكس بيكو المعقودة فى مايو سنة ١٩١٦ ، والتى نشرها الروس فى أكتوبر سنة ١٩١٧ ، لإثبات أنها تتعارض مع حق الوطنيين فى تقرير مصيرهم . ذلك أنها سمحت لفرنسا بالاحتفاظ بجزء من الموصل بما فيـه عاصمة الولاية ، كمنطقة لاستغلالها ، وسمحت لبريطانيا بالاحتفاظ بسيطرتها على الأجزاء الغربية من العراق ، وبادارتها المباشرة على جنوبه. وكانت هذه الشروط تتعارض مع التعهدات التى أخذتها بريطانيـا على نفسها تجاه العـرب . ولقد تشبثت فرنسا بهذه الاتفاقية ، وحاولت بريطانيا عدم اغضاب حليفتها ، وخاصة فى فـترة ما بعد الحرب .

حقيقة أن معظم قادة العراق كانوا فى المنفى أو فى أركان حرب قوات الملك فيصل في سوريا ، ولكن نهاية الحرب سمحت لعدد منهم بالعوده إلى إقليمهم ، فأخذوا يتحدثون عن الاستقلال التام وضرورة الوصول إليه وتكانفت هذه مع مراكز عدم الرضاء المنتشرة بين العرب ، السنة والشيعة ، وفي مناطق الأكراد ، لكى تتحد جميعها وتأخذ لونا واحدا معاديا لبريطانيا.

وكان وجود الكولونيل ويلسون على رأس الإدارة فى العراق يدفع بالعراقيين دفعا إلى الثورة . ذلك أنه قد عارض فى نص التصريح الإنجليزى الفرنسى ، وعارض كذلك فكرة منافسة ، الكولونيل لورنس التى سعت إلى إنشاء دويلات عربية فى سوريا والعراق برئاسة أمراء هاشميين . فظلت لندن مشرفة على أمور الشرق الأدنى ، وشكلت لذلك لجنة وزارية برئاسة اللورد كيرزن لتصريفها . ولكن وجهات نظر لندن كانت تتعارض فى كثير من الأحيان مع وجهات نظر السلطات البريطانية فى الهند ، والتى كان الكولونيل ويلسون يخضع لها . وظهر التضارب بين قرارات اللجنة الوزارية وبعضها ، وخاصة حينما أكدت عزمتها على تنفيذ التصريح الانجليزى الفرنسى . ثم أظهرت أنها ترغب فى الاحتفاظ بالعراق تحت نظام الإدارة البريطانية المباشرة. وبعد استشارتها لبعض العراقيين . قررت إنشاء دولة أو دولا عربية (طبقا لرغبة الأهالي . وعلى أن تكون خاضعة للاشراف البريطانى التام) . فكأنها قد رغبت فى الاحتفاظ بالشكل الخارجى لما نص عليه التصريح المذكور ، لكي تخلق مجالا لمشاركة العرب ، وبشكل مطاط حسب ظروف التطور . أي الحرية الاسمية . مع الإدارة البريطانية الفعلية ، وضرورة اعتراف الوطنين بها . وتناست بذلك صيحات العروبة والوطنية على ضفاف الرافدين والآتية من الشام .

ولقد زار الكولونيل ويلسون لندن في أوائل عام ١٩١٩ وحاول إنشاء دولة عراقية تخضع خضوعا تاما لبريطانيا ، وتمتد حتى تشتمل على كل ولاية الموصل التي كان كليمنصو قد وافق على تركها جانبا ، في نظير تأييد بريطانيا له في كل من سوريا ولبنان . ولكن اللورد كيرزن عارض في ضم الموصل للعراق وفضل أن يضمها إلى كردستان التي حاولوا إنشاءها في ذلك الوقت. وسرعان ما ظهرت عصبة الأمم وفكرة الانتداب التي شارك في صياغتها الجنرال سمطس ، ونصت المادة الثانية والعشرين من قانون العصبية على وضع الأقاليم العثمانية السابقة تحت الانتداب ، بعد أن كانت الدول العظمى قد طالبت بذلك في معاهدة فرساي . فتكاتفت كل هـذه العوامل لكي تصل بالعراقيين إلى مرحلة من الوعي أمام الأطماع الاستعمارية البريطانية في منطقتهم. وزاد الاتصال بين الوطنيين العراقيين في سوريا وبين أهلهم في العراق ، في الوقت الذي أخذت فيه بريطانيا في سحب جزء من حامياتها العسكرية من هذا الاقليم . واصطحب هذا الانسحاب والتسريح العسكري وصـــول العائلات البريطانية إلى العراق ، ودل على أن بريطانيا قد قررت بقاء إدارتها المباشرة وجاءت بموظفيها لكي يستقروا ، ولمدة طويلة ، في العراق .

وحاولت بريطانيا أن تلقى بتبعة التمهيد للثورة العراقيـة على كاهل الأمير فيصـل ، وعلى كاهل تركيا ، بل وحتى على كاهل الروسـيا والشيوعية . ولكنها نسيت أو تناست حيوية الشعب العراقي . التي لولاها لما قامت الثورة ، ولما استمرت ، ولما سجلت إسما خالدا لها في التاريخ .

٥ — **الثورة وتطورها :.**

شعرت السلطات البريطانية في العراق بقوة الاتجاه الوطني منذ سنة ١٩١٩ .

وكان هذا الاتجاه الوطنى عربيا ومتحدا، مع بقية الأقاليم المجاورة . ففى شهر ديسمبر من ذلك العام دخل مدير منطقة الفرات، الخاضع لولاية حلب السورية الى دير الزور على رأس رجاله الوطنيين ، وقبض على الضابط الادارى البريطانى وألقى به فى السجن وكانت هذه لطمة قوية للبريطانيين من « حلفائهم » العرب ومع عيد الميلاد ، ولم يخلص الضابط البريطانى من السجن إلا تعهد البريطانيين أمام جعفر باشا العسكرى ، والى حلب ، بترك دير الزور للعرب . وأصبحت هذه المدينة بعدذلك مركزا من مراكز الدعاية الوطنية القومية العربية ، لشحذ همم الأهالى وللقيام ضد الحكم الاستعمارى ولإعلان إتحادهم مع اخوانهم العرب السوريين . كما أصبحت مركزا للادارة العربية التى أخذت فى الانساع حولها . ورضى الناس فى مناطق كثيرة بدفع الضرائب لها . ولم يكن فى استطاعة البريطانيين ارسال الحملات الى هذه المنطقة فا كتفوا بالتهديد بضربها بالطائرات ، وبالقاء القنابل المدمرة عليها . ولكن ، سرعان ماعاد فيصل من أوربا فى شهر مارس سنة ١٩٢٠ فاصدر الأمر الى قواته ورجال حكومته السورية بعدم التماد فى فتح الجهات ، وعدم الاصطدام بالحلفاء ، وخاصة البريطانيين ، وتم الأمر بسحب القوات العربية من دير الزور . فظهر الاختلاف بين اتجاه فيصل بن الحسين وبين الضباط العراقيين فى القوات العربية . وأخذت بريطانيا فى سحب جزء من قواتها الموجودة فى العراق ، واصطحب ذلك ازدياد قوة دعاية جمعية العهد الوطنية ، فاصبح السفر على الطريق بين بغداد والموصل أمرا محفوفا بالمخاطر وأخذ المندوب المدنى البريطانى فى بغداد يشكو من أن الدعاية الموجهة ضد بلاده يقوم بها ضباط حكومة فيصل ، وهى الحكومة التى كانت بريطانيا تنفق عليها ومنذ بضعة سنوات . ولكن الحكومة البريطانيةوجدتأن موقف

فيصل الشخصى لاغبار عليه. وأخذت فى نفس الوقت تنتظر صراعا بين القوات العربية فى سوريا وبين الفرنسيين ، واستعدت من ناحية أخرى لمنع المعونة المادية والعسكرية عن الهاشميين ، إضعافا لهم فى جبهة العراق ، وإضعافا لهم فى الحجاز أمام قوات آل سعود .

وأختار رجال العراق الموجودين فى سوريا الأمير عبد الله لعرش بلادهم ، فى الوقت الذى انتخب فيه السوريون فيصلا لعرش دمشق . ولكن سرعان ما صدر قرار مندوبى الحلفاء فى سان ريمو فى ٢٤ ابريل بوضع العراق تحت الانتداب البريطانى . فجاء ضربة قاضية على آمال الوطنيين العراقيين للوصول الى الاستقلال التام . وحاول ويلسون أن يضع دستوراً يعمل على اشراك بعض العراقيين فى الحكم ، ولكن ظهر أن العناصر « المعتدلة » أو «الفاترة» نفسها لم ترضى بالتعاون على هذه الصورة مع السلطات البريطانية . وتدخلت سلطات لندن من جديد ، وكلفت ويلسون بأن يعلن فى ١٧ يونيو قرب انتخاب مجلس تمثيلى ، واتخاذ الخطوات لاعلان دستور دولة عربية تتمتع بالحكم الذاتى . ولكن أحرار العراق صمموا على الحصول على حقوقهم كاملة ، واختاروا الثورة سبيلا ، ودل هذا على فهمهم لمعنى الحرية التى تنتزع ولا تمنح .

وانتشرت الثورة فى كل أنحاء العراق ، وفى خلال أيام معدودة . وجاءت الأخبار من سوريا تحمل أنباء معركة ميسلون وهجوم الاستعماريين الفرنسيين على الأحرار ومرورهم فوق أجسادهم لكى يدخلوا دمشق . فتبلور الموقف وظهر « الحلفاء » على حقيقتهم . وهاجت النفوس وثارت النخوة العربية ونادت بالثأر بل بالموت ، وكانت تطلب الحياة .

لقـد انصهر المعسكر الوطنى فى أقاليم العراق داخـل مبادىء العروبة ، وجاءت الثورة عربية أصيلة ، نسى فيها الوطنيون الفوارق الاجتماعية ، ونسوا الحزبية والطائفية ، فكانت الثورة فى البادية وفى المدن . وارتفع الهياج فى كربلاء والنجف ، وردد صداه رجال السنة فى السهول والجبال . وأقفل التجار حوانيتهم وأضرب الموظفون عن العمل وقام العمـال والزراع ورجال البادية بتخريب السكك الحديدية وخطوط مواصلات البريطانيين ومهاجمة المخازن العسكرية والمعسكرات . ورغم أن الفنيين فى عمليات النسف والتكتيك كانوا قلة بين العرب . ، إلا أن إرتفاع درجة الحماسة والرغبة فى البذل والتضحية من أجـل العروبة عوضتها . وجاءت الأخبار ذاكرة إغراق سفن النقل البريطانية فى شط العرب ، وعلى الدجلة والفرات. ووجد البريطانيون أنفسهم محاصرين ، بل معرضين لهجمات قوية وهم فى معسكراتهم، ورغم تحصنهم وراء الاسلاك الشائكة وإعتمادهم على المدافع الرشاشة وسلاح الطيران ولم يتمكن البريطانيون إلا من الاحتفـاظ بالعواصم الثـلاث ، البصرة وبغداد والموصل . أما بقية الإقليم فقد أنقذته « حرب التحرير الوطنية » من سيطرتهم . وظلت القوي الوطنية مسيطرة على العراق من شهر يوليو حتى شهر أكتوبر وكبدت البريطانيين خسائر فادحة فى الأرواح والأموال. حقيقة ان ضحايا العرب بلغت ثلاثة أضعاف خسائر البريطانيين ، ولكن السلطات الاستعمارية فقدت فى هذه الثورة مازادت قيمته على أربعين مليون جنيه إسترليني من المهمات ، أى أكثر من ثلاثة أضعاف ماقدمته بريطانيا لحلفائها العرب منذ سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩٢٠ .

ولكننا نجد أن ثورة العراق قد بدأت فى الهدوء مع شهر اكتوبر. فما الذى وقع؟ لا يمكننـا الادعاء بأن القـوة الوطنية قد فترت أو وهنت ، خاصة وأن

السلطات البريطانية جمعت فى فترة الستة أشهر التالية مايقرب من ٧٠ ألف بندقية منها ٢٠ ألف من طراز حديث ، وكانت تصحبهـــا كميات كبيرة من الذخائر .

لقد حضر السيربرسى كوكس الى جنوب العراق ، ومعه مشروع « دستورى » للبلاد ، وتفاهم بشأنه مع « الأعيان » قبل أن يواصل سفره ويدخل بغداد يوم ١٧ اكتوبر . ولاشك أنه قد ضمن فى البصرة ولاء الأعيان أو قبولهم التعاون فى ظل هذا النظام ، وإلا لما خاطر بالسفر شمالا . ولما تبجح متسائلا عن السبب الذى يواصل الثوار من أجله ثورتهم .

إذن يمكننا أن نقول بأن « الأعيـان » قد انفصلوا عن العمليات الثورية وعن تأييد الثورة ، نتيجة لمجىء المندوب البريطانى حاملا مشروعه الدستوري . وكان عدد من الأعيان قد خشى على نفسه وعلى ممتلكاته ، وفى داخل المدن ، من اضطراب الأمن ، ومن سيطرة الثوار وخروج الإدارة ، وهى بريطانية. واستند آخرون إلى أن تركيا قد وقعت على معاهدة سيفر فى ١٠ أغسطس ونفضت أيديها من كل البلاد العربية ، وسلمتهم ، بطريق غيرمباشر «للحلفاء» البريطانيين . وأكد كوكس وأتباعه لأعيان العراق أنهم مخلصون فى نياتهم تجاه الإقليم ومستقبله ، وأصروا على ضرورة تعاون العراقيين معهم حتى تعود الحياة إلى مجاريها ، والتجارة إلى أسواقها . وظهر أن كثيراً من الأعيان كانوا من أتباع فكرة التطـــور البطىء ، ويخشون من الطفرة ، فما بالكم بالثورة ؟ لقد كانوا مستعدين للتعاون مع النظـام الجديد لفترة من الزمن ، ورغم علمهم بنقصه وضحالته فقد إعتقدوا أن شيئا خير من لاشىء . وارتفعت بعض أصوات الجبناء قائلة «خذ...وطالب» ، وكانوا يحتمون فى البريطانيين ، وكان البريطانيون يحمونهم لأنهم من أعوانهم .

كانت العملية البريطانية إذن هى عملية تخدير لجسد العراق ، ويزيد تأثيرها على الأعضاء الضعيفة من جسد الأمة بأقوى وأسرع من تأثيرها على الأعضاء القوية النشطة . فيظهر الاختلال بين حركات أعضاء نفس الجسد ، وتسود الفوضى التى تدل على الانقسام ، وهذا ما هدف إليه الاستعمار .

وسرعان ما أعلن كوكس رغبته فى تكوين « حكومة عراقية مؤقتة » ، تشتمل على مجلس من الوزراء العراقيين ، يعاونهم مستشارين بريطانيين ، وفى إنشاء إدارة مدنية عراقية . واشتملت هذه الحكومة على السيد طالب باشا وجعفر العسكرى وساسون حزقايل[١] وعلى غيرهم من « الأعيان » حسب إختيار كوكس . وكان من الطبيعى أن يعترف مجلس وزراء الدولة هذا بسلطة المندوب السامى البريطانى الذى قام باختيار أعضائه ، وبحقه فى التصديق على كل المراسيم . وعلى التعيين فى الوظائف الكبيرة . وأصبح مجلس وزراء الدولة مسئولا ، وتحت إشراف المندوب السامى البريطانى ، عن تسيير أجهزة الحكومة ، فيما عدا الشئون الخارجية ، والعمليات الحربية وكل المسائل العسكرية ، وذلك إلى أن يتم وضع دستور أو قانون أساسى للعراق . أي أن بريطانيا قد استخدمت العراقيين فى كبت العراقيين . وأن هؤلاء العراقيين قد وافقوا على كبت العراقيين وسهلوا بذلك على بريطانيا عمليتها الاستعمارية ، وعلى حساب الوطنيين .

وسرعان ما أظهر وزراء الدولة همة ونشاطا وانكبابا وتفرغا ، فانقلبوا

(١) يهودي عراقى ـ شارك فى مجلس المبعوثان فى القسطنطينية ـ ثم تعاون مع الإدارة البريطانية فى بغداد وكان له نفوذ عالى ضخم فى العراق ، وعلى الحكومة العراقية .

من عناصر وطنية سياسية إلى عناصر ادارية . ولقد جاهد جعفر العسكرى ، مثلا ، لكى يعيد الضباط العراقيين الذين عملوا مع فيصـــــل فى سوريا الى اقليمهم ، وكانوا فى غالبيتهم من العناصر الوطنية التى اشتركت فى جمعية العهد ، ولكن رجوعهم الى العراق أدخلهم ضمن نطاق هذه الأداة الحكومية ، التى بدأت فى العمل ، وحرمهم من العمل فى السياسة . فالنتيجة هى تقليل المعارضة الوطنية الموجودة بالخارج ضد البقاء البريطانى فى العراق . وأظهرت السلطات البريطانية من ناحية أخرى أنها لا تعمل ضد الأمانى الوطنية للعراقيين ، فأطلقت سراح المعتقلين السياسيين فى جزر الخليج العربى . ولكنهم لم يتمكنوا من القيام بحركة ذات قيمة . وتفرغ العمـــل أمام وزراء الدولة من القضية العربية الى المشكلات العراقية ، ومنها الى الشئون المحليـــــة فى زوايا الاقليم وأركانه . واضطروا إلى احترام وجهات النظر البريطانية حتى لا يقضوا على هذا الجهاز الذى بدأ فى العمل . فحينما أصر البريطـانيون على ضرورة تمثيل العشائر فى البرلمان الجديد على أساس قبلى وبمقاعد محجوزة لشيوخهم . منعا لسيطرة المتعلمين على المجلس ، قام الوزراء بالمعارضة ، ولكنهم انتهو بالموافقة والتراجع . وكذلك الأمر فى مسألة تمثيـل الاكراد . فصرفت الجهود فى الدقائق والتفاصيل ، ونسيت الكليات . ولكن من الواجب علينا أن نشير إلى أن الجهاز الحكومى قد بدا ظاهراً واضحا أمام الجميـع . وسارت الأمور فى هدوء باشراف العراقيين ، وبمشورة البريطـانيين الاجبارية ، حتى فى أصغر الأمور ، وأتفهها شأنا . ونظمت الادارة على أسس مشابهة لما كان فى العهد العثمانى . ثم بداؤا فى مشروع انشاء جيش عراقى يحل محل القوات البريطانية عند انسحابها من الاقليم . وكان هـذا الانسحاب يهدف إلى الظهور بمظهر المتحرر ، غير المستعمر ، أمام العراقيين ، كما كان يوفر للخزانة البريطانيـة

مصروفات لا داعى لها ما دام فى قدرة العراقيين أنفسهم المحافظة على الأمن والنظام فى اقليمهم ، وما دام سلاح الطيران الملكى مستعدا للتدخل فى أقرب وقت. ووضعت القوات العراقية تحت اشراف وزير الداخلية إلى أن يتمكن وزير الحربية من تنظيم وزارته بعد سنة وأصبح نورى السعيد ، صهر جعفر باشا العسكرى . رئيسا لأركان حرب هذه القوات . وأنشأت مدرسة حربية فى يوليو سنة ١٩٢١ لامدادها بالضباط . ثم عمدت بريطانيا إلى اتمام عملية التخدير حتى يتسنى لها وضع العراق على المشرحة فى حجرة العمليات وتقوم بتجربتها حتى النهاية . فنقلت شئون العراق إلى ادارة الشرق الأوسط التى أنشأتها فى وزارة المستعمرات سنة ١٩٢١ . وما أن استلم ونستون تشرشل ، وزير الحربيـة السابق منصب وزير المستعمرات ، حتى دعى إلى عقد مؤتمر فى القاهرة لدراسة شئون الشرق الأوسط عامة ، واتخاذ القرارات اللازمة للمستقبل . واجتمع هذا المؤتمر فى ١٢ مارس وشاركت فيه شخصيات قائد القوات العسكرية فى العراق وجعفر العسكرى وساسون خزقايـل . ودرست فيه مسائل اختيار حاكم للعراق ، ومعامـلة الاكراد ومستقبلهم ، وضغط المصروفات البريطانية ، وإنشاء قوات دفاع عراقية تحل محل القوات الامبراطورية .

أما عن مسألة الحاكم ، فلقد فضل البريطانيون الابتعاد عن الشخصيات العراقية نفسها ، مستندين الى أن نقيب بغداد كان متقدما فى السن والى أن السيد طالب النقيب من البصرة كان يمتاز بالطموح ، واتهمـوه فى نفس الوقت باستغلال منصبه الوزارى الذى احتله منذ أشهر معدودة وبعدم التقيد باللوائح والنظم المالية . وكذلك رفضوا فكرة تعيين الأمير برهان الدين العثمانى الذى امتاز بميل الاكراد والسنة اليه ، ورفضوا

أغا خان الذى كان يسيطر على عدد كبير من الشيعه حتى لا يثيروا مشكلات دينية طائفية ، ورفضوا أمير عربستان ؛ وفكرة تعيين عبدالعزيز آل سعود الذى كانت شخصيته مستقلة لا غبار عليها ، ولا يسهل على بريطانيا توجيهها . ولكن أعضاء المؤتمر وجدوا أن الأمير فيصل بن الحسين هو أصلح من يملا هذا المنصب بعد أن فقد عرش سوريا . وكانت معرفة البريطانيين به منذ الحرب . وسيطرته على الضباط العراقيين فى القوات العربية مما يزيد فى قيمة أسهمه . وكان ويلسون قد اقترحه بالاسم منذ اعلان ثورة العراق فى يوليو سنة ١٩٢٠ فوافق عليه أعضاء المؤتمر ، وأمر اللورد كيرزن الكولونيل كورنواليس ، الذي خدم فى السودان ، وصديق فيصل فى الحرب ، أن يعرض عليه عرش العراق . ولقد رفض فيصل فى أول الأمر هذا العرش ، مستندا إلى ان الوطنيين العراقيين قد منحوه لأخيه الاكبر ، الامير عبد الله . ولكن البريطانيين أصروا على عرضهم وشرحوا له أن الأمر سيستند إلى الانتخاب . وشجعوه على زيارة العراق ، واقترحوا عليه أن يعرض نفسه على العراقيين كلك ، وأبلغوه أنهم لن يعارضوا فى انتخابه بعد ذلك ؛ وشرحوا له أن الانتخاب فى مثل هذه الظروف لا يحمل الا عوامل النجاح . وكانت هذه المسألة ، مسألة الملكية ، هى البطاقة الرئيسية التى اعتمد عليها البريطانيون لاتمام تخدير الموقف فى العراق ، ولاتمام تجربتهم فى هذه المنطقة العربية ، التى أرادوا اعطاءها شخصية متميزة منفصله عن شخصية غيرها من الأقاليم ، وشغلها بمشكلاتها الخاصة ، فتنسى مبادىء الوحدة العربية .

وأما مسألة الاكراد فقد صعب على أعضاء المؤتمر الوصول الى حل

لهـــا ، إذ أن العرب قد أصروا على ضرورة ضم مناطق الأكراد للعراق وظهر أمام البريطانيين أنه لايمكن اقامة دولة كردية فى الشمال ، خاصة وأن مصطفى كمال أتاتورك كان قد رفض السماح للاكراد الاتراك بالمشاركة فى مثل هذه الدولة ، وفرض عليهم البقاء داخل الحـدود الوطنية لتركيا الحديثة . فعملت بريطانيا على إمساك العصى من النصف ، وقـررت ضم مناطق الأكراد للعراق ، على أن تقام فى مناطقهم إدارة خاصة بهم. وكان هذا الوضع المعتدل ، أو المائع ، يسمح بوقوع مشكلات جديدة بين العـرب والأكراد ، ويسمح لبريطانيا بالتدخل كحكم بينها . كما كان يسمح لهـا باستمرار الحصول على مواد البترول فى شمال العراق ، مختبئة وراء الدولة العراقية فى بغداد .

ولقد اتخذ المؤتمر قرارات هامة بشأن مسائل الدفاع ، فقرر ضرورة تخفيض عدد الحاميات البريطانية فى العراق وكلف سلاح الطيران الملكى البريطانى بأن يحل محلها . وزاد من عدد القـوات العراقيـة بادخال عنـاصر كردية وآشورية فيها ، ووضعها تحت تصرف المندوب السامى البريطانى ، ثم سلمها إلى القائد العام البريطانى ليشرف عليها . فاصبح لبريطانيا فى العراق قوات عسكرية من « الأقليات » المحلية يمكنها أن تقف يوما فى وجه القوات العربية التى ستقوم حكومة بغداد بتجنيدها .

وانتهى مؤتمر القاهرة فى يوم ٢٥ مارس وعاد السيد برسى كوكس الى بغداد فى أواسط أبريل ، وكانت مسألة اختيار حاكم جديد للعـراق هى ما تشغل الرأي العام . ولم يصر نقيب بغداد كثيراً على معارضته لفيصل . ولكن السيد طالب (من البصرة) حاول أن يثبت وجوده ويصر على أحقيته

بهذا المنصب . وكان قد أعلن أنه سيثير القبائل ويعبيء الآلاف لمنع البريطانيين من فرض مرشح بعينه . فاضطر السير برسى كوكس إلى القاء القبض عليه ونفاه الى سيلان ، إخلاء للجو أمام مرشح البريطانيين . وأعلنت السلطات البريطانية العفو العام عن كل من شارك فى الثورة ، واستعدت العراق لاقامة الأفراح والترحيب بقدوم فيصل ، ملك العراق .

واتفق البريطانيون مع فيصل على تفاصيل الاستقبال والاحتفال . فترك جدة فى يوم ١٢ يونيو مصحوبا بالكولونيل كورنواليس وببعض رجال حاشيته . ورأي سان جون فيلبي هذا الترتيب ، وكان من أنصار ترك الحرية كاملة أمام العراقيين لانتخاب ملكهم ، بل كان من أنصار النظام الجمهورى ومن المعجبين بابن سعود ، فاستقال من منصبه كمستشار للشئون الداخلية فى العراق . وما أن وصل فيصل إلى البصرة حتى أقيمت حفلة كبيرة لاستقباله . وأعلنت بريطانيا أنها لا تضع أى عقبات فى سبيل وصوله الى عرش العراق . وأتمت شخصية فيصل ما بقى من التمثيلية فالتف حولها حتى من عارضها فى أول الأمر ، ورؤا فيها الحصول على شيء ، بدلا من العدم ، ورمزاً لبناء جديد ، بدلا فى العيش فى فراغ تام .

ولم تنتظر حكومة لندن الوصول الى صلح نهائى مع تركيا ، ولم تحاول إقرار الأمر والاتفاق عليه مع الفرنسيين فى سوريا ، ولا مع سلطات الهند البريطانية ، كما أنها صرفت النظر عن اتجاه عصبة الأمم ، وعن موقف الممثل الامريكى فيها . وهو الذى طالب بضرورة تقرير مستقبل العراق دولياً قبل أن تتصرف فيه بريطانيا بمفردها . وكانت كل هذه الاعتراضات مما يرهب فيصل ، خاصة وأنه شعر بأن كل من سلطات الهند ، وفرنسا ،

وأمريكا كانت تحـاول التدخل ، فزاد ميـله بـل واستسلامه للبريطانيين . وكانت خطة السـير برسي كوكس الأسـاسية تتلخص في إنتخـاب مجلس تأسيسي يقوم بدورة بانتخاب الملك . ولكن هذه الخطة كانت تطلبت وقتا ، وخشيت بريطانيا من وقوع مفاجآت أو انقلاب جديد فى الموقف . فقرر مجلس وزراء الدولة فى ١١ يونيو إنتجاب فيصل ملـكا على العـراق وعلى شرط أن تكـون حكومته دستورية انتخابية وحرة فى حدود القـانون . ووافق كوكس على ذلك ودعمه باجراء إستفتاء شعبى .

ووقع الأستفتاء فى نهاية شهر يوليو سنة ١٩٢١.وحاول بعض العراقيين إدخال تعديل على صيغته أو الاضافة عليهـا . فطالبوا بالاستقلال التام ، أو بتكوين مجلس دستورى فى ظرف ثلاثـة أشهر مثلا ، أو باقامـة إدارة لامركزية . وأمتنع البعض عن التصويت ، ورفض آخرون فيصلا كملك . وأعلنت النتيجة بفوزه ٩٦٪ من الأصوات.ورغم إصدار بعض المعارضين على أن بريطانيا هى التى أشرفت على الانتخابات وان هذه النسبة المؤية غير معقولة، إلا انها هى النسبة التى اعلنت بالفعل .

واستلم فيصل عرش العراق رسميـا فى ٢٢ أغسطس كأول ملك للبلاد . وكان وجوده يفرض الطاعة على الضباط الوطنيين والشعب ويحمل معنى النظام والاحترام . فسارت هذه الآلة الجديد وأخذت فى العمل ، وداخل النطـاق الذى رسمهـا لهـا رجال الامبراطورية البريطانية . وانشغلت المملكة العراقية بمشكلاتها المحلية ، وظهرت بشكلها المستقل أو المتميز عن غيرها من الوحدات العربية الأخرى . وصرفت جزءا كبيرا من مجهودها نفسها . وفى علاقاتها مع جيرانها ، ومع السادة البريطانيين. ودخلت العراق فى هذا الدور الجديد من حياته ، طور المملكة .

الفصل السادس

المملكة العراقيه

أعلنت المملكة فى العراق دون أن توضع لها الأسس اللازمة ، فلم تكن السيادة قد انفصلت عن تركيا ، ولم يكن نظام الانتداب قد حظى بموافقة عصبة الأمم بعد . ورغم أن بريطانيا كانت تسعى للحصول على الانتداب على العراق ، فان العراقيين كانوا لايرحبون بمثل هذا النظام . وأعلنت الملكية على انها دستورية ، ولم يكن الدستور قد وضع بعد. وكان من الضروري على هذه المملكة العربية أن ترتبط ببريطانيا بمعاهدة خاصة ، ولم تكن بريطانيا نفسها قد وضعت بنود مثل هذه المعاهدة بعد . ورغم ذلك فقد أخذت الاداة الحكومية فى العمل والتمرن على تصريف امور البلاد. كانت المهمة شاقة على مثل هذه الحكومة وبخاصة أمام ضعف الميزانية ، وقلة الإمكانيات المالية ، فى وقت فكرت فيه حكومة بغداد فى البدء فى إنشاء جيش وطنى ، وأضطرت الى الانفاق على بلاط ملكى . وكان الرأي العام البريطانى يطالب بخفض المصروفات فى الامبراطورية . فوضح أمام حكومة بغداد ضرورة اعتمادها على نفسها وعلى الله وأصبح عليها أن تسير أمورها وفقا لمواردها المحلية .

وكانت الحالة السياسية تجبر الحكومة العراقية على الاحتفاظ بتأييد بريطانيا . إذ كانت تركيا تصر على الاحتفاظ بولاية الموصل ، وحاولت أن تؤيد حركة السيد احمد الشريف السنوسى لطرد حكومة بغداد ولتطهير العراق من المحتلين الاجانب . وحضر هذا المجاهد العربى الى ديار بكر، وأخذ

فى جمع الأعوان ، وحاول أن يخلق المشكلات أمام الحكومة العراقية ومن ناحية أخرى كان نفوذ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود ينتشر ، وأخذ فيصل الدويش قائد الاخوان فى التوغل فى الأراضى العراقية من وقت لآخر . كما نجح السعوديون فى ضم منطقة الرشيد (شمر) الى اقليم نجد . فاى مجهود قام به أبناء العراق للكفاح ضد الاستعمار ؟ وفى هذا الجو المحيط بهم ؟ ومع هذه العوامل الداخلية والخارجية التى أثرت فيهم ؟

١ ـ المعاهدة مع بريطانيا :

كان فيصل قد وافق قبل مجيئه الى العراق على الاقتراح البريطانى الخاص بتنظيم العلاقات بين انجلترا والعراق عن طريق معاهدة . وفضل هذا الوضع على انشاء حكومة تحت الانتداب السافر الواضح. وكذلك وافقت حاشيته على هذا الاقتراح ، الذى بدأ وكأنه يقلل من قبح الحجر الدولى ومهاناته ويوهم الناظر من الخارج بأن للعراق مكانة الدولة المستقلة المرتبطة بتعهدات دولية . وكانت هذه هى الطريقة الوحيدة أمام بريطانيا ، تضمن مصالحها وتحافظ على أطماعها ونفوذها وعلى حساب الغير . ولكن الموقف لم يضلل العناصر الوطنية العراقية ، إذ أنها وجدته مختلفا عن الاستقلال التام الذى جاهدت وكافحت من أجله .

ولقد أظهر فيصل عداءه لنظام الانتداب ، وتحفظه تجاه أى معاهدة تحاول اخفاءه فى الشكل الخارجى ، وبقاءه فى الأساس. وأعلن ذلك صراحة للمستر تشرشل . ولكن بريطانيا كانت قد أحضرت فيصل الى العراق ولكى تواصل سياستها الاستعمارية فى المنطقة ، وبالشكل الذي رسمته هى ، ولم تكن قد استعانت به لكى يوجه سياستها أو يتحكم فى مصالحها.

وقررت عصبة الامم فى ربيع سنة ١٩٢٢ وضع العراق تحت الانتـداب البريطانى . وجعل هذا القرار من بريطانيـــا دولة متحكمة فى العراق وفى الشئون الادارية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والتشريعية . فواصل البريطانيون ممارسة أعمالهم ، وأدعوا أنهم متحررين حيث دعوا الحكومة العراقية الى عقد معاهدة تنظم العلاقات بين البلدين .

وبتلور الجو السياسى بظهور العناصر الوطنية التى كان من بينها كثير من رجال الشيعة وعلمائهم ، ومن رجال فيصل وحاشيته . ورفعت هذه العناصر المخلصة أصواتها ضد « إستعباد » الانتداب ، وطالبت بالجلاء البريطانى التام عن العراق. فعملت السلطات البريطانية على موازنة هذه القوة الاصيلة بقوة صناعية ، أمدتها بالأموال والامكانيات ، وأخذت تعبر عن وجهة نظرها فى ضرورة بقاء الحكم البريطانى الى أن تصل البلاد الى المرحلة التى تتمكن فيها من إدارة شئونها بنفسها . وبين هذين الاتجاهين ، الأصلى والصناعى ، نجد الوطنيين « المعتدلين » ومعهم فيصل ، يعارضون نظام الانتداب ويطالبون بعقد معاهدة وباستمرار تعضيد حكومة لندن للعراق ووقوفها الى جانبه ، أى أنهم يطالبون بما ترغب وزارة المستعمرات البريطانية فى أن تمنحه للعراق حتى تحتفظ بالجوهر وتظهر بمظهر المتحرر وتستخدم العراقيين فى كبت العراقيين ، لمصلحة القوى الاستعماريه .

وأخذت العناصر الوطنية فى المطالبة بالاستقلال التام ، وسارت المظاهرات فى شوارع بغداد وتقدم المتظاهرون بمطالبهم الى فيصل ونشأت المشكلات فى الإقليم حيث رفض بعض المديرين الاستماع الى نصائح المستشارين البريطانيين الاجبارية وتوجيهاتهم ، ثم استقال خمسة من الوزراء إستقالة

جماعية فى مارس سنة ١٩٢٢ ، فاضطررت الوزارة أمام ذلك الموقف إلى قبول المعاهدة فى أواخر شهر يونيو ، واشترطت ـ رغم إحتجاجات السير برسى كوكس ـ أن تصدق عليها الجمعية التأسيسية فى نفس الوقت الذى ستوافق فيه على القانون الأساسى وقانون الانتخابات .

وكان قانون الانتخابات قد نشر منذ شهر مايو ؛ فأخذ العراق يستعد للحملة الانتخابية ، وكان هذا مجالا خصبا لفضح مساوىء المعاهدة والنيات الاستعمارية البريطانية . ورغم أن موقف « الحزب الحر » كان معتدلا ، إلا أن كل من الحزب الوطنى وحزب النهضة أصرا على ضرورة رفض هذه المعاهدة . وارتفعت الصيحات محذرة من الاشتراك فى الانتخابات ، وهددت غيرها بالويل والثبور لكل من يهادن فى إستقلال العراق . وشعرت الوزارة بأنها فى مهب الريح ، وبأن الملك لايؤيدها ، فاستقالت فى ١٤ أغسطس . وبدا أن فيصل يؤيد هذا الاتجاه الوطنى ، فاخذت العلاقات تسوء بين القصر وبين المندوب السامى البريطانى . وأهان أحد الوفود الوطنية ومعها أحد رجال البلاط السير برسى كوكس على سلالم القصر الملكى . ورغم أن الحكومة العراقية قد اعتذرت رسميا عن ذلك إلا أن فيصل رفض معاقبة الوطنيين المشتركين فيه . ولكن فيصل تعرض فى ذلك الوقت لأزمة فى الزائدة الدودية واضطر الى إجراء عملية جراحية [١] ، وقام السير برسى كوكس باستخدام القوة ضد العناصر الوطنية . فشرح للعراقيين سياسة

---

(١) صرح الأطباء الذين أرسلهم والدة الملك حسين بن على من الحجاز بان العملية كانت ناجحة .

الحكومة البريطانية ومسئولياتها وهدد الوطنيين والمتطرفين ، وأصدر الأمر بحل الحزبين الوطنيين (الوطنى والنهضة) وباغلاق صحفهما وبالقاء القبض على بعض الزعماء وبنفيهم من البلاد كما قامت طائرات سلاح الطيران بالقاء القنابل على المناطق التى أعلنت فيها الثورة . فساد العراق جوا من الوجوم ، خاصة وأن العراقيين لم يتأكدوا مما أصاب الملك ، أو ماقد يصيبه . وأعلن فيصل رسميا فى يوم ١٠ سبتمبر شكره للسير برسى كوكس على الاجراءات التى اتخذها . وكانت هذه الاجراءات قد حافظت على « النظام الجديد » من الثورة واحتفظت لفيصل بعرشه بدلا من تفكيره فى إمكانية العزل أو النفى من جديد . وأعلنت حكومة بغداد أن التوصية بقبول العراق فى عصبة الأمم تضع حدا لنظام الانتداب . وبررت بذلك عملها ومهدت للتوقيع على المعاهدة فى يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٩٢٢ .

وكانت بنود هذه المعاهدة متفقة مع فقرات قرار الانتداب مما يسمح لبريطانيا باستمرار السيطره على العراق . وتعهد فيها ملك العراق باستشارة الحكومة البريطانية فى كل الشئون الهامة ، وخاصة فى المسائل الدولية والمالية . وكذلك تعهد باستشارة المندوب السامى البريطانى فى كل ما يتصل بسياسة العراق المالية والنقدية ، وبعدم تعيين موظفين آجانب من غير البريطانيين ، وبعدم قبول أوراق إعتماد ممثلى الدول الأجنبية دون موافقة البريطانيين ، وبعدم التنازل عن الأراضى أو تأجيرها أو تسليمها لدولة أو هيئة أجنبية ، وبتنفيذ النصائح البريطانية فى شئون العدل . وكذلك تعهد بألا يشتمل الدستور على ما قد يتعارض مع هذه المعاهدة ، وذلك بالمادة الثالثة التى جعلت من القانون الأساسى فرعا

للمعاهدة وملحقا بها والتى نصها : « يوافق جلالة ملك العراق على أن ينظم قانونا أساسيا يعرض على المجلس التأسيسى العراق ويكفل تنظيم هذا القانون ، الذى يجب الا يحتوي على ما يخالف نصوص هـــذه المعاهدة » . ونجد أن ملك بريطانيا قد تعهد فى المادة السادسة بالتوصية بدخول العراق فى عصبة الأمم فى أقرب وقت ممكن ، ولم يدخـل العراق فى العصبة الا فى سنة ١٩٣٢ أى بعد احـدى عشـر سنة من التوقيع على المعاهدة .

وقد ألحق بالمعاهدة أربعة ملاحق لتفصيل الشئون التى تهم بريطانيا بنوع خاص وهى الشئون العسكرية، والشئون المالية ، وشئـون الموظفين والخبراء الأجانب ، وشئون العدل .

أما الملحق العسكرى فقد نص على إمكانية وصول العراق فى بحر أربع سنوات الى مرتبة الدول التى يمكنها أن تدافع عن نفسها ، ولذلك فقد فرض على حكومة بغداد أن ترصد مالا يقل عن ربـع ميزانيتها لشئون الدفاع . واحتفظت الحكومة البريطانية بحق اقامة حاميات لهـا فى العراق ، بل وبحق تجنيد العراقيين فى القوات البريطانية . واحتفظت للقائد العام البريطانى بحق التفتيش على الجيش العراقى والقوات العراقية الخاضعة لحكومة بغداد . وتعهدت الحكومه العراقية بالاستماع الى نصائح المندوب السامى البريطانى فى كل مايتعلق بحركات الجيش وتوزيعـه ووسائل تدريبه . واحتوى الملحق على نصوص لاعطاء إمتيـــازات وإعفاءات قضائية ومالية وخاصة بالمواصلات والبريد والبرق ـ للقوات البريطانية فى اراضيها . ولقد تعهدت الحكومة البريطانية بمساعدة العراق

عسكريا لصد كل عدوان خارجى أو اضطراب محلى أو ثورة مسلحة الا اذا ما قرر المندوب السامى البريطانى أن هذا الخطر الداخلى أو الخارجى كان نتيجة لقيام حكومة العراق بعمل مخالف لمشورتة أو باجراءات لا تتفق ورغبات الحكومة البريطانية . أى أن هذا الملحق قد وضع العراق وامكانياته تحت تصرف السلطات العسكرية البريطانية وبشكل يسمح لها حتى بعدم الدفاع عن حكومة بغداد ، اذا ماوجدت أن مصالحها تملى عليها ذلك .

وأما الملحق الخاص بالشئون المالية فقد نص على ضرورة تحمل الحكومة العراقية نفقات الادارة والدفاع الخارجى والأمن الداخلى ، وعلى نقل مرافق الري والجسور والبرق وميناء البصرة الى ملكية العراق ، مقابل ثمنا يبلغ ستة عشر مليون روبية . تعتبر دينا واجب الأداء ، وعلى بقاء السكك الحديدية ملكا لبريطانيا مع نقل ادارتها لحكومة العراق ، الى أن يتفق الطرفان على بيعها وشرائها ، وعلى بقاء جميع الأراضى والأبنية التى يحتلها البريطانيون لشئون عسكرية أو مدنية فى حيازتهم وتحت تصرفهم ، وعلى تعهد الحكومة العراقية بنقل ملكية كل ما قد يحتاج اليه البريطانيون من أبنيه واراض إذا كانت من ممتلكاتها وبنزع ملكيتها من الاهالى إذا كانت من الاملاك الخاصة ، واصدار كل المراسيم والقوانين اللازمة لذلك ، والى أن تنتهى حاجة البريطانيين لهذه الأملاك . وتعهدت حكومة بغداد بعدم التدخل ضد شراء الرعايا البريطانيين للأراضى والاملاك الخاصة من أصحابها .

وأما الملحق الخاص بشئون الموظفين والخبراء الأجانب فقد نص

على عدد ووظائف الموظفين البريطانيين . وألحقت به جداول عديدة بأسماء الوظائف ، وفى كل إدارة ، والتى يجب الاحتفاظ بها للبريطانيين من درجة مستشاري الوزارات ، والمديرين ، والمفتشين المساعدين ، ورؤساء الدوائر والادارات الفنية . وكانت رواتبهم تزيد على ضعف مرتبات العرافيين ، علاوة على منح السفر ، والمساكن الحكومية .

وأما الملحق الخاص بشئون العدل فقد تعهد فيه ملك العراق باستخدام حقوقيين بريطانيين ويمنحهم سلطات قضائية لمحاكمة الرعايا الأجانب الذين يرفضون الخضوع للقضاء الوطنى . وكذلك تعهد بعرض كل اللوائح القانونية ، المتعلقة باختصاص المحاكم وتشكيلها وأصول المرافعة وتعيين الحكام وعزلهم ، على المندوب السامى ، وقبل عرضها على السلطة التشريعية ، وذلك لابداء رأيه فى كل ما يمس مصالح الأجانب . وظلت موافقة المندوب السامى ضرورية لكل ما يمس تعيين رؤساء وأعضاء محاكم الاستئناف والتمييز أو انهاء خدمتهم .

ولكن التوقيع على المعاهدة لم يقض على الحركة الوطنية المعارضة لها . وأخذ كل من العلماء ورجال الاحزاب يدعون الى مقاطعة انتخاب المجلس التأسيسى الذى سيصدق عليها . وظهرت السياسة البريطانية مهددة فى العراق ، خاصة وأن تركيا كانت متصلبة فى مسألة الموصل ورفضت اعتبار هذه المنطقة خارجة عن السيادة والتركية . فاستقالت وزارة النقيب ولكن سرعان ما تألفت بدلها وزارة عبد المحسن بك السعدون التى تضمنت عدداً من ممثلى الشيعة ، مع ساسون حزقايل ، وكل من ناجى السويدي وياسين الهاشمى ونورى السعيد . ولقد وافقت هذه

الوزارة الجديدة على مبدأ المعاهدة ، وتعهدت بالعمل على انتخاب المجلس التأسيسى ، ووجهت انظار الجميع الى ما وراء الحدود والى الخطـر الخارجى التركى على وحدة العراق فى ولاية الموصل . وأفادت بريطانيا من هذا التغيير فى اتجاه الرأى العام لكى تدخل بعض التعديل على علاقتها بالعراق وفى مسألة المعاهدة . وكان ذلك من المرونه ، وانتظارا لتطور الأحداث داخل العراق ، وحـول العراق .

وكانت الحكومات البريطانية قد خشيت من تفاقم الحالة وهـياج الرأى العام العراقى ومن قيام ثورة جديدة تكلفها الأموال والرجـال ووجدت أنه من السهل الحاق بروتوكولا بالمعاهدة ينص على تخفيـض مدتها من عشرين سنة الى أربع سنوات . فيظهر أمام العراقيين الأمل فى قرب الوصول الى الاستقلال وتختفى عوامل الشقاق بينهم وبين البريطانيين وحمل السير برسى كوكس هذا البروتوكول بنفسه عند عودته من لنـدن فى مارس سنة ١٩٢٢ ووقع عليه عبد المحسن بك فى أواخر شهر أبريل وقبل أن يترك كوكس منصبه للسـير هنرى دوبس dobbs كمنـدوب سام لبريطانيا فى العراق تأكد من أن جزء كبيرا من عداء العراقيين لبريطانيا قد اختفى . وكان ذلك نتيجة لتقوية العناصر المعتدلة والتمويه على القوى الوطنية بقرب الحصول عـلى الاستقلال . أما العناصـر التى فشلت بريطانيا فى التمويه عليها ، وعجزت أمـام عمق فهمـــها السياسى وإخلاصها القومى ، فقد أصبح من السهل على السلطات المحلية العراقية أن توقف نشاطها وتقضى على معارضتها أو تنفيها من البلاد . ووافق فيصل على هذه الخطة وتفـذها حيث قام بزياراته « السعيدة » لوسط العراق وجنوبه . ويذكر التاريخ فى هذا الموقف أسماء الشيخ مهدي الخالص وابنه،

اللذين حددت اقامتها فى البصرة ثم أخرجا من العراق وحينما ارتفعت صيحات الشيعة بالاحتجاج وقام عدد منهم بالهجرة إلى فارس واجبروا حكومةطهران على التدخل من أجل رؤسائهم الوطنيين ، أصمت حكومة بغداد آذانها عن نصائح جارتها وعن كل صيحات . وبدا الموقف وكان قادة السنة وعلى رأسهم فيصل ، يحاولون كبت الشيعةالمعارضين للانجليز . ولم تتدخل السلطات البريطانية فى هذا الموقف الذى سمح لها بالقضاء على المقاومة المعارضة لها . بل أن حكومة بغداد قد طلبت من السلطات البريطانية الاهتمام بأمر ولاية الموصل ومحاولة جذب العناصر التركمانية والكردية فيه صوب بقية العراق . وجاء التدخل البريطانى على حساب المقاعد فى المجلس التأسيسى ، إذ أن المندوب السامى البريطانى وعد الأكراد بالاشتراك فى الانتخابات المقاعد العامة علاوة على المقاعد العشرين المخصصة لمنطقتهم .

وحينما استقالت وزارة عبدالمحسن بك فى نوفمبر سنة ١٩٢٢ نتيجة للخلافات مع الشيعة ولسوء التفاهم مع فيصل ، شكل جعفر باشا العسكري الوزارة الجديدة وكانت أول وزاره عراقية لايشترك فيها ساسون حزقايل اليهودي وزادت أسهم فيصل فى أعين العراقيين حين أعلن والده الحسين نفسه خليفة على المسلمين فى شهر مارس سنة ١٩٢٤ . وفى هذا الجو اجتمع المجلس التأسيسى وكان التصديق على المعاهدة مع بريطانيا فى قائمة جدول الأعمال .

وسرعان ما أخذ أعضاء المجلس التأسيسى فى مناقشة المعاهدة وملاحقها . وظهرت فداحة الشروط المفروضة على بلادهم ، وخاصة فى المجلس الخاص بالشئون المالية ، فتبلورت المعارضة من جديد ، وفى مجلس الدستور . وكانت فرصه للتنفيس عما يجيش بالصدور وللتعبير عما يأملون من حرية واستقلال

فعليين . وسارت المعارضة الى المهاجمة، وارتفعت الأصوات لفضح نيات بريطانيا الاستعمارية ، ولشرح موقف الفتور والتخاذل ، وللمطالبة بالتضحيه . وكان أقل الوطنيين جرأه يطالب باتخاذ موقف سلبي على الأقـل وبعـدم التصديق على المعاهدة وعدم تحمل هذا الوزر أمام الوطنيين وأمام التاريخ . ولقدحاول بعض الفاترين أن يدافعوا عن مبدأ خذ وطالب فكادوا أن يقتلوا فى داخل المجلس ، وعجزت الشرطة عن المحافظة على الأمن خارج المجلس ، واضطـر الجيش الى النزول إلى الشارع .

ولقد أخذ ممثلوا الشعب أو المسئولين عن مستقبل الشعب مهمتهم جديا . وكان فى استطاعة كل الوطنيين أن ينضموا إليهم ، وبما فيهم فيصل، فيعلنوا كمجلس تأسيسى إستقلال بلادهم وحريتها وعروبتها . ولم يكـن من السهل على بريطانيا أن تقضى على حركتهم ، وهم المكلفون من الأمة بوضع الدستور ولكن شيئا من هذا لم يحدث . ولم يخرج فيصل من قصـره . وقام المنـدوب السامى البريطانى بالباقى . فشرح أن بريطانيا قد قبلت المهمة التى ألقتها عـلى كواهلها عصبة الامم وفى صالح العراق ، وأن بريطانيا تعد بتعديل المعاهـدة بتعديل المعاهدة فى المستقبل . وادعى أنه لايمكن رفض المعاهدة ، أوتعديلها قبل الموافقة عليها . وأمر بضرورة التصديق على المعاهدة قبل يوم ١٠ يونيو . وهدد بأن تبلغ حكومته الأمر لعصبة الأمم اذا لم يتم التصديق على المعاهـدة فى هـذا التاريخ ، وبأن حكومته ستبحث عن وسائل مختلفة لاتعتمـد عـلى الصـداقه ولا على المعاهـدات الكريمة ، لكى توفى بتعهـداتها تجاه المنظمة الدولية .

وواصل أعضاء المجلس رفضهم حتى النهاية . ولكنهم كانو بغير قيادة أو

امتنعت رأسهم المتوجة عن قيادتهم فى هذه المعركة ، رغم إدعائها بأنها ملكية دستورية . ورفض المندوب السامى البريطانى أن يطيل فى أجل المهلة حتى لمدة أربعة وعشرين ساعة . وأخيرا نجح جعفر باشا رئيس الوزراء فى جمع ٦٩ عضوا من الأعضاء المائه فى المجلس التأسيسى ، وحصل على ٣٧ صوتا الى جانب المعاهدة أمام ٢٤ صوتا فى المعارضة وامتناع ثمانية عن التصويت وحتى مع هذه النسبة الضئيله نجد أن أعضاء المجلس قد أضافوا على التصديق ، واشترطوه بضرورة البدء فى مفاوضات جديدة لتغيير الملحق الخاص بالشئون المالية فى أقرب وقت وفى صالح بلادهم ؛ كما إشترطوا عدم نفاذ المعاهدة بأكملها فى حاله فشل بريطانيا فى الدفاع عن مصالح العراق فى كل ولاية الموصل فكأن العراق قد وافق مؤقتا على المعاهدة وملاحقها وشروطها فى مقابل ماينتظره من أمر الموصل .

ثم انشغل المجلس التأسيسى بوضع الدستور ، وبوضع قانون الانتخاب وتكونت وزارة جديدة برئاسة ياسين الهاشمى . فزاد الانشغال بتفاصيل الشئون الداخلية ، واتجهت الانظار إلى الموصل الذي تعرض للخطر التركى وإلى بريطانيا لكى تساعدهم فى الوصول الى الوحدة الاقليمية للعراق . فخفتت الأصوات المعارضة للاستعمار البريطانى ، وتناسى القادة ، داخل حدود العراق ، بقية بلاد العروبة ، وهم من العرب .

٢ — مشكلة الموصل والبترول :

كانت ولاية الموصل تشتمل على سكان من العرب والاكراد مع بعض العناصر التركية . وساعدت فترة الحرب العالمية الأولى على امتدادا لحركات القومية إلى هذه المنطقة واستناد هذه القوميات الى مبادىء حرية تقرير المصير

الذي موه بها الغرب على الزعماء الوطنيين . وكانت المنطقة فى غاية الاهميـة من الناحية الاستراتيجية ، إذ أنها مخترق الطرق بين العراق–وسوريا وتركيا وايران وجنوب الروسيا . وزاد من أهميتها أن وجد بها البترول ، عصب الصناعة والحرب ، وميدان استغلال واستثمار رؤوس الأموال.

وقامت المشكلة فى الأصل بين الجانبين الوطنيين ؟ العرب والاتراك ، أو بمعنى أصح مملكة العراق والجمهورية التركية . ولكن نظام الانتداب لم يترك للعراق حرية الدفاع عن نفسه ، وعهد بهذة المهمة الى بريطانيا ، التى كانت لها مصالح استراتيجية واقتصادية واضحة فى المنطقة . فأدى الأمر الى نشوء جبهتين ، جبهة تركية ، وجبهـة عراقية ـ بريطانيـة تنافستـا للسيطرة على الموصل .

واستند الأتراك إلى الجنس فادعوا أن الأكـراد يقربون من الاتراك ، وأن عددهم يزيد على عدد العرب فى الولاية. كما إستندوا الى العامل الاقتصادى وأدعو بأن مصالح المنطقة وتجارتها مرتبطة باسيا الصغرى . كما استندوا الى القانون وذكروا أن البريطـانيين قد احتلوا المنطقة بعد الهدنة فى نوفمبر سنة ١٩١٨ . ثم إستندوا الى مبـــدأ تقرير المصير ، وأشاروا الى حركات المقاومة الوطنية التى رفضت سيطرة البريطانيين مع الأرمن والأشوريـين على الولاية كمظهر من مظاهر رغبة الأكراد فى الاتحاد مع تركيا المستقلة ، مفضلين ذلك على الاتحاد مع العراق المحتل .

ولم يكن من حق حكومة العراق فى هذا الوقت أن تتحدث ، كما لم يكن لها من القوة ما يسمح لها بالتدخل . فزاد ركونها إلى بريطانيا ، وأثر ذلك على العلاقات العراقية ـ البريطانية ، وعلى موقف القوى الوطنيـــة فى

العراق من المحتلين المستعمرين . أما بريطانية فانها قد أخذت موقف المدافع عن مصالح العراق ، وكانت فى حقيقة الأمر تدافع عن مصالحها الاقتصادية فى البترول ، والمصالح الاستراتيجية اللازمة لسلامة طـــرق المواصلات الامبراطورية . ولا جدال فى أن بريطانيا كانت تفضل بقـاء هذه المنطقة الحيوية بيد دولة موالية ضعيفة الحول كالعراق ، على بقائها فى قبضة تركيا الناهضة المتحررة . وأثر هذا الموقف على كفاح العرب ضـد الاستعمار فى منطقة الرافدين .

وتبلور الاتجاه المعادى لبريطانيا فى ولاية الموصل وخاصة فى متصرفية السليمانية بشكل واضح منذ أوائل سنة ١٩٢٢ . وفضل الأكراد الانفصال عن حكومة العراق الخاضعة للبريطانيين ، وفكروا فى إقامة دولة خاصة بهم أو فى الانضمام إلى الدولة التركية الحديثة ، التى وقف بها مصطفى كمال رافعة الرأس أمام القوى الاستعمارية المسيحيـة . وساعدت تركيا هـذه الحركة وتدخلت بعض قواتها فى أراضى الموصل . وحاولت بريطانيا أن تكسب من الموقف ، معتمدة على قوات سلاح الطيران ، والمجندين العراقيين . ولكنها اضطرت إلى سحب الموظفين البريطانيين . وإلى إصدار الأمر إلى المجندين بالتقهقر ، وإلى إخلاء السليمانية أمام موقف الشعب العدائى . ثم أشارت على الملك فيصل بتعيين الشيخ محمود متصرفا على المنطقة ، وكان من الاكراد . وظهر أنها ترغب فى أن تدفع بقسم من الاكراد إلى مهاجـة البقية ، باسم العراق فى الظاهر ، ولخدمة مصالح الامبراطورية قبل كل شىء . ولقد وافق فيصل على هذا التعيين . وزود الشيخ محمود بقوة من المجندين وبقيادة عدد من الضباط الاكراد . ولكن سرعان ما أخـذت الشيخ محمود فى معرفة حقيقة الموقف بعد اتصـاله بعناصر السنة الكردية فى الشمال ، وبالعناصر

المعارضة للبقاء البريطانى ، والمؤيدة للاستقلال أو للاتحاد مع تركيا المستقلة فاعلن نفسه فى نوفمبر حاكما ثم ملكا على كردستان . وانقلبت الخطة البريطانية رأسا على عقب ، واتجهت أسلحة مجنديها إلى صدر الاستعمار البريطانى فى بغداد . وساعد هذا الموقف على تدعيم المصالح المتبادلة بين الحكومة العراقية وبين البريطانيين . فأمر فيصل أخاه زيد بالذهاب والاقامة فى الموصل ، ثم ذهب شخصيا فى زيارة ملكيـة للمنطقة فى الوقت الذى والى فيـه سلاح الطيران البريطانى عملية الارهاب المنظم . ولكن هذه العوامل لم تعدل من الموقف ، خاصة وأن الأساس الدولى للمشكلة كان لايزال قائما .

وجاءت هدنة مودنيا بعد انتصار الأتراك على اليونانيين فى أزمير وكانت نقطة حاسمة فى تاريخ العلاقات التركية ـ البريطانية ، ومهدت من ناحيـة أخرى لمؤتمر لوزان الذي شارك فيه كل من اللورد كيرزن وعصمت إينونو وتحدث المندوب التركى كضابط يعود من جبهـة القتـال ، فخوراً بجنوده وبوطنه ، ومحتقراً لقوات الاستعمار . وطالب بضرورة ابتعاد بريطانيا عن الموصل ، وبضم الولاية للجمهورية التركية . ورد عليه كيرزن بأن الاكراد ليسوا من الاتراك ، وذكر له أن تجارة الولاية تقوم مع العراق ومع سوريا وترك مسألة تقرير المصير جانباً ، وطالب بضم المنطقة لمملكة العراق مستنداً إلى أن قرار الانتداب قد رسم ذلك . فرفض الاتراك وجهة النظر البريطانية وانتهى المؤتمر الأول فى ٢ فبراير سنة ١٩٢٣ دون الوصول الى أي حل .

وحاولت تركيا أن تدخل «المصالح» الامريكية ضد المصالح البريطانية فى الموصل ، بأن اعطت إمتيازاً للاميرال شستر لاستغلال بعض الميادين ولمد بعض السكك الحديدية فى المنطقة ، ولكن امريكا كانت قد نفضت أيديهـا من مشكلات العالم القديم . فوافق عصمت اينونو علي العودة الي عصبة الأمم

اذا لم تصل بريطانيا إلى انفاق مع تركيا حول الموضوع فى خلال سنة . وفى خلال ذلك الوقت ظلت الأحوال مضطربة فى الموصل،ودفعت بريطانيا بجندى العراق الى التوغل صوب الشمال ، وجاءت بعدد من الآشوريين لتوطينهم فى المنطقة ، فوقعت الاضطرابات والاشتباكات بينهم وبين الاكراد السنيين . وسرعان ما انتشرت الدعاية ، منادية بأن فرنسا هى التى كانت تشجع الآشوريين على انشاء دولة خاصة بهم ، وأنها هى الدولة التى تعاونهم . وأختبأت بريطانيا وراء ذلك لكى تظهر بمظهر الحليفة للهاشميين ، والصديقة للسنيين أمام «المؤامرات» الفرنسية . فانقض بعض الأعوان من حول الشيخ محمود ، وتمكن الجيش العراقى من دخول السليمانية فى شهر يوليو سنة ١٩٢٤. ودفعت بريطانيا بالآشوريين من ناحية أخرى الى مهاجمة الحدود التركية ، وحينما تعقبت القوات التركية أعوان البريطانيين ، قامت ضجة كبيرة حول الأطماع التركية ، وحول اتجاه الأتراك الاسلامى ، وحول عدائهم للمسيحيين ، سواء أكانوا من الآشوريين أو من الأرمن ، رغم ادعائهم التحرر فوافقت تركيا على ارسال لجنة تحقيق لولاية الموصل ، ووافقت فى أواخر أكتوبر على خط للحدود عرف بخط بروكسل ، لفصل المناطق «البريطانية» عن الأراضى التركية .

ولقد وصلت لجنة التحقيق الدولية الى بغداد فى يناير سنة ١٩٢٥ بعد زيارتها لكل من لندن واستانبول . ثم امضت شهرين فى الموصل حيث استمعت الى وجهات النظر المتباينة . وكتبت تقريرها الى عصبة الأمم فى شهر يوليو ، ونوقش فى أوائل سبتمبر .

ورفض التقرير فكرة تقسيم ولاية الموصل ، واعتمد الى حد بعيد على

الاحصاءات التى قدمتها بريطانيا . وذكر أن العوامل الاقتصادية تربط الموصل بالعراق ، وشرح أن خط بروكسل يصلح من الناحية الاستراتيجية خطاً للحدود ، وأشار الى أن احوال العراق غير مستقرة رغم التقدم الذى اصابه فى ظل الانتداب ، ورفض أى مطالب تستند الى حق الفتح أو الى القانون الدولى ، وذكر أن غالبية أهالى الموصل يفضلون انضمام منطقتهم الى العراق واستمرار الادارة القائمة ، على الانضمام لتركيا . وجاءت توصية اللجنة باستمرار اتحاد منطقة الموصل الواقعة الى الجنوب من خط بروكسل الى العراق ، وذلك بشرطين : الأول هو بقاء العراق تحت الانتداب لمدة خمسة وعشرين عاما ، والثانى هو الاعتراف رسميا بالشخصية المحلية للأكراد ، وذلك باستخدام لغتهم ، وبتعينهم فى المناصب الادارية والقضائية وفى التعليم فى المناطق الكردية .

وجاءت هذه التوصيات أبعد مما تسعى اليه بريطانيا ، اذ أنها ـ علاوة على ضمان المصالح الاقتصادية والاستراتيجية البريطانية فى الولاية ـ عملت على مد اجل الانتداب البريطانى على كل العراق ، ولمدة ٢٥ سنة ، ورغم أنف « المعاهدة » العراقية البريطانية .

ولم تأت المعارضة هنا من العراق ، نظراً لوضعها السياسى من ناحية ، ونظرا لانتصارها فى مسألة ضم الموصل من ناحية أخرى ؛ بل جاءت من تركيا التى رفضت التقرير بأكمله وناقشت سلطة اللجنة فى اصدار القرارات، ودرجة الالزام فى تنفيذ توصياتها . ولكن بريطانيا نجحت فى الحصول على قرار من محكمة العدل الدولية بلاهاى ينص على أن قرار العصبة فى الأمر هو قرار ملزم مادام يؤخذ باجماع الأصوات (عدا صوتى تركيا وبريطانيا) .

وفى غياب المندوب التركى ، قررت اللجنة الفرعية المشكلة من عصبة الأمم فى ١٦ ديسمبر الموافقة على أن تسير الحدود مع خط بروكسل ، وعلى تكليف بريطانيا بأن تقدم فى خلال ستة أشهر معاهدة عراقية ـ بريطانية جديدة ، صالحة لمدة خمسة وعشرين عاما (مالم تدخل العراق فى عصبة الامم قبل هذا التاريخ) ، واقتراحات لتنفيذ توصيات اللجنة المتعلقة باقامة ادارة خاصة للأكراد . وكان هذا القرار بالاجماع ، وأنتهت مهمة عصبة الأمم أو دورها فى تدعيم الانتداب .

وأصدرت حكومة بغداد أوامرها السريعة لتحديد المناطق الكردية ولتعيين الأكراد فى الوظائف الخاصة بهم . ووافق البرلمان فى ١٩ يناير سنة ١٩٢٦ على المعاهدة الجديدة مع بريطانيا رغم معارضة ياسين باشا وحزب الشعب الذى يؤيده. ولكن البرلمان اشترط اعادة النظر فى المعاهدة سنة ١٩٢٨ ثم فى فترات متتابعة مدة كل منها أربع سنوات ، الى أن يدخل العراق فى عصبة الامم أو تنتهى فترة الـ ٢٥ سنة . وأوصى فى نفس الوقت باعادة النظر فى الملاحق الخاصة بالمعاهدة . وكانت الحكومة العراقية قد وجدت نفسها أمام حلين لا ثالث لهما : فاما قبول المعاهدة ، أو التنازل عن ولاية الموصل . فاختارت الحل الاول . ووقفت الامة العراقية الى جانب فيصل ، مظهرة وحدة الصف حول عرشه ، فى الوقت الذى تعرضت فيه الاسرة الهاشمية للغزو السعودي فى الحجاز ، وازدادت الآمال حول فيصل ، والالتفات الى المشكلات المحلية والاقليمية ، وأمام الاتراك ، وامام السعوديين ، زاد التقارب مع بريطانيا .

ونجحت بريطانيا فى عقد معاهدة تركية ـ عراقية ـ انجليزية فى ١٨

يوليو سنة ١٩٢٦ اعترفت فيها بخط بروكسل حدوداً مع العراق ، وتعهدت فيها حكومة بغداد بدفع ١٠ ٪ من حصيلة البترول من ولاية الموصل لتركيا ، ولمدة ٢٥ سنة .

وبقيت مسألة القضاء على قوة الشيخ محمود الذي رفض الخضوع للانتداب البريطانى . فعمل كل من سلاح الطيران وقوات الجيش والبوليس العراقيين على إنهائها ، وانضمت الموصل للوطن الأم العربى . ومهد ذلك لاستخراج البترول ولاستغلال الموارد الاقتصادية للاقليم . وكان هذا أحد موارد العرب ولكن النسبة الكبيرة منه ذهبت الى جيوب المستغلين المستعمرين الأجانب .

وكانت لجنة الحدود العثمانية الفارسية (١٩١٣ - ١٩١٤) قد تركت للدولة العثمانية . وبالتالى للعراق ، النصف النوبى من منطقة النفطخانة الواقعة على الحدود ، الى الجنوب من الخانقين . فوافقت الحكومة التركية ، ثم الحكومة العراقية على أن تعتبر أن هذه المنطقة داخلة فى نطاق الامتياز الذى حصل عليه دارسى فى سنة ١٩٠١ ، ثم بدأت المفاوضات على هذا الأساس بين الشركة الانجليزية - الفارسية ، وبين وزارة الأشغال العراقية ، وانتهت فى عام ١٩٢٥ الى اتفاقية عدلت بأخرى فى مايو سنة ١٩٢٦ . وبدأت الآبار فى انتاج البترول وانشىء خط للأنابيب طوله ٢٢ ميلا لنقل البترول الخام الى الخانقين . وكذلك أنشأت الشركة معملا للتكرير والتصفية ، بتشجيع من الحكومة العراقية ، وكذلك فى شهر يونيو من نفس السنة ، مما ضمن للعراق البترول اللازم للاستهلاك المحلى .

وقامت وزارة الخارجية البريطانية من ناحيتها بتأكيد صلاحية الوعد

الذي أعطته الوزارة العثمانية للشركة التركية للبترول فى ٢٨ يونيو سنة ١٩١٣. وبعد تردد الحكومة الفرنسية التى كانت تطالب بضم منطقة الموصل كلها الى منطقة انتدابها فى سوريا، اتفق برتيلو مع كادمان فى سان ريمو على أن ترث فرنسا نسبة الـ ٢٥ ٪ التى يمتلكها البنك الألمانى فى هذه الشركة. أما الولايات المتحدة التى أخذت تطالب بتطبيق سياسة الباب المفتوح فى الاستغلال الاقتصادي دون خضوع لاتفاقات دولية، فان الحكومة البريطانية قد نجحت فى إرضائها، وذلك بأن تركت نصف نصيب الشركة الأنجلو فارسية، من أسهم الشركة التركية للبترول، لمجموعة من الشركات الأمريكية، وذلك باتفاقية مبدئية فى عام ١٩٢٣، ثم صدق عليها فى سنة ١٩٢٨. وهكذا أصبحت الأنصبة داخل الشركة هى ٥ ٪ لجو لبنكيان و ٩٥ ٪ توزع على أربعة بالتساوى بين مجموعة شل (باسم شركة البترول الانجلو سكسونية) والأنجلو فارسية (وهى شركة دارسى للتنقيب والاستغلال) والشركة الفرنسية للبترول الخاضعة لحكومة باريس والشركات الأمريكية التى تجمعت باسم اتحاد استغلال الشرق الادنى. وظلت هذه النسبة قائمة الا فيما يخص النصيب الامريكى، الذى تحولت ملكيته من ست شركات الى شركتين فقط فيما بعد هما استاندارد أويل (نيوجرسى) وسوكونى.

وتقدمت الشركة التركية للبترول بمطالبها فى أوائل سنة ١٩٢٤ لحكومة بغداد لتنفيذ الوعد الذى أعطاه سعيد حليم سنة ١٩١٤. وتمت الاتفاقية فى فى مارس سنة ١٩٢٥ واشتملت على كل مناطق ولايتى الموصل وبغداد السابقتين. ولما كان العراق بدون أى برلمان فى ذلك الوقت فقد قام كل من مجلس الوزراء والملك بالتصديق على الاتفاقية. ونصت على ضرورة قيام الشركة باختيار المواقع اللازمة للاستغلال فى ظرف مدة معينة، حتى تتمكن

الحكومة من السماح لغيرها بالعمل فى بقية المناطق . وحددت الاتفاقية نصيب الحكومة بأربعة شلنات (ذهب) عن كل طن [1] . وسرعان ما بدأت الأعمال الجيولوجية بكل همـة ونشاط قبل نهاية سنة ١٩٢٥ . ورغم أن الشركة قد حددت استغلالها فى العيون المعروفة سابقاً ، إلا أنهـا توسعت فى التنقيب فى العام التالى . وصحب ذلك عملية إنشاء الطرق ومد أنابيب المياه والبترول ، وبناء المساكن . وشارك فى الأعمال خمسون بريطانيا مع ٢٥٠٠ عراقى ، وبدأ الانتاج بشكل هام منذ سنة ١٩٢٧ . وبطبيعة الحال لم تستمع حكومة بغداد لادعاءات أعضاء الأسرة المالكة العـــثمانية السابقة ، التى أدعت أن بترول الامبراطورية كان ملكاً شخصياً لها . وتأكد العالم من أن العراق هى من بين أكبر المناطق التى تحتوى على البترول فى العالم ، وخاصة بعد أن عـثر على البترول بكميات ضخمة بجوار كركوك فى أواخر اكتوبر .

وصرفت الشركة التركية للبترول السنوات الأربعة التالية فى إعداد آبار كركوك للاستغلال المنظم ، وفى اقامـــة المنشآت والخزانات والورش والمساكن ، كما انها إستغلت نفس الوقت فى المفاوضة مع الحكومة لمـد فترة إختيار المواقع ، التى نصت عليها اتفاقيـة سنة ١٩٢٥ ، مستندة إلى أن معظم مناطق ولاية الموصل لم تكن فى حالة أمن تسمح بعمل الأجانب ، واقامتهم فيها . وانتهت هذه المفاوضات باتفاقية مارس سنة ١٩٣١ التى تنـازلت فيهـا الشركة التى اتخذت لنفسها اسم الشركة العراقية للبترول ، عن المناطق الواقعة

---

(١) الاسترلينى الذهب = ٢٠٠ر٤ فرنك الآن
شلـــنات ذهب = ٤٠ ر ٨ فرنك وهى عن الف لتر
أى أن نصيب الحكومة عن كل لتر هو ٨٤ر٠ من الفرنك فقط

الى الغرب من الدجلة ، والى الجنوب من خط عرض ٣٣ ، ولكنها احتفظت لنفسها بالمنطقة الباقية ، وهى كل شمال شرق العراق ، تقوم بالاستغلال فى أي موقع فيها وبدون أي تحديد ، أو منافسة من شركة أخرى . وتعهدت الشركة بمد خط أنابيب الى سواحل البحر المتوسط قبل سنة ١٩٣٥ وبأن تكون سعتها ثلاثة ملايين طن على الأقل ، وتسير من الفرات صوب حيفا وطرابلس ، وبدفع مبلغ ٤٠٠,٠٠٠ استرليني ذهب سنويا الى الحكومة الى أن يخرج الانتاج بشكل تجاري ، وتبدأ فى دفع نصيب الحكومة المقرر (أربعة شلنات عن كل طن) . ووافق البرلمان على هذه الاتفاقية الجديدة ، وبدأت الشركة فى إقامة خط أنابيب البترول مع محطة مضخات فى وسط الصحراء واستغرقت العملية ثلاث سنوات . ثم بدأ الانتاج التجاري منذ سنة ١٩٣٤ .

واتخذت الشركة كركوك مركزاً لادارتها ، وحيفا مركزاً لادارة أنابيب البترول . وقام بنك انجلترا بتحويل نصيب العراق من الجنيهات الذهبية الى العملة الاسترلينية ، وقدمت العراق لتركيا ١٠٪ من حصيلة البترول طبقا لمعاهدة سنة ١٩٢٦ الخاصة بحدود الموصل وتركيا .

أما منطقة شمال غرب العراق التى انسحبت من استغلالها الشركة العراقية للبترول سنة ١٩٣١ فان حكومة العراق قد منحتها فى العام التالى لشركة... وهى مجموعة من رجال الأعمال البريطانيين ، مع شركاء ايطاليين وألمان وأجانب . وكانت هذه الشركة قد بذلت المساعى للاشتراك مع الشركة التركية للبترول فى سنة ١٩٢٥ ثم اشتكت العراق لعصبة الأمم واتهمتها بانها تحمى الطرق الاحتكارية رغم نص قرار الانتداب على ضرورة استخدام

سياسة الباب المفتوح . ولقد تعهدت هذه الشركة بأن تدفع لحكومة بغداد مبلغ ١٠٠٫٠٠٠ ثم ٢٠٠٫٠٠٠ جنيه استرليني عن كل سنة الى أن يبدأ الانتاج بكمية تجارية ، ثم تعهدت بتصدير كمية لا تقل عن مليون طن فى السنة ولمدة سبعة سنوات ، وباعطاء الحكومة العراقية ، وبدون أى ثمن خمس انتاجها من البترول علاوة على نصيب الأربعة شلفات ذهب عن كل طن يستخرج . ولقد تحولت هذه الشركة فيما بعد الى شركة آبار نفط الموصل .

وأما شركة البترول الأنجليزية الفارسية فانها قد كونت شركة بترول الخانقين لاستخراج البترول اللازم للاستهلاك المحلى ، وأنشأت معامل تكرير افتتحها الملك فيصل فى الخانقين فى مايو سنة ١٩٢٧ . وقام فرع آخر لشركة البترول الأنجليزية الفارسية ، وهو الذى يسمى بشركة بترول الرافدين ، بعملية توزيع البترول داخل العراق ، وخاصة الشمال والوسط ، وأما جنوب العراق فقد اعتمد على عبدان ، المركز الرئيسى لشركة البترول الأنجليزية الفارسية .

وهكذا عملت بريطانية على ضم ولاية الموصل للعراق ، ولكن هدفها الأول فى ذلك كان هو الأستغلال . وأما العراقيون فقد استندوا الى السياسة البريطانية لضمان الوحدة الاقليمية ، واضطروا فى سبيل ذلك الى عدم التشدد أمام المستغلين والى التساهل مع المستعمرين . ورغم ذلك فان العراق لم يكن قد حصل على ما ينشد وكان عليه أن يفاوض من جديد حتى يصل الى الاستقلال .

٣ — المفاوضات من جديد :

اعتمد العراق على تسوية مشكلة الموصل وسار فى تجربته الدستورية ،

لاتمام بناء هذه الدولة العربية الجديدة ، والوصول بها إلى مرحلة الاستقلال التام وبدأ إهتمام البرلمان واضحا بتصريف الأمور والتشريع لها ، ولكن سرعان ماظهرت العوامل الشخصية ووضحت الخلافات السياسية ، وأخذت هذه القوى الوطنية تسير على منهج الحزبية ، وعملت على معارضة ومهاجمة بعضها البعض ، مما أضعف من قوتها وسهل على المستعمر الأجنبى أمر السيطرة عليها

وتعددت الوزارات وتوالت على الحكم ، ويمكننا أن نقول بشكل عام أن تأليف هـــذه الوزارات لم يكن إلا اعادة تصنيف بين أعضائها الذين ينحصرون فى جماعة صغيرة من الساسة المحترفين ومن ثراة مـلاك الأراضى والتجار [١] . وقد ساعدهم على احتكار الحياة السياسية والمناصب الوزارية قلة عدد المتعلمين وتفشى الجهل والأمية فى الاقليم . ومن الغريب أن الحكومة لم تكن تخضع رغم الدستور ، لمجلس النواب ، بل كانت الحكومة هى التى تصنع هذا المجلس وتشكله حسب أهوائها ومصالحها ، أو حسب رغبـــات السادة البريطانيين . ورغم ذلك فقد كان على هذه الحكومة وعلى ذلك البرلمان أن يكافحا ضد الاستعمار البريطانى ، ويكافحا من أجل استخلاص الحقوق الوطنية أو على الأقل استخلاص ما يمكن استخلاصه من أيدي الحماة الغاصبين .

ولقد سقطت وزارة عبد المحسن السعدون فى شهر نوفمبر فى ١٩٢٦ ، نتيجة لفشل رئيسها فى ترأس مجلس النواب . فاستدعى الملك جعفر باشـا العسكرى من لندن ، حيث كان يشغل منصب الوزير العراقى المفوض هناك

---

١) جورج كـيرك ، موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمـة عمـر الاسكندرى . القاهرة ، مركز كتب الشرق الأوسط . ١٩٥٧ . ص ٢٧١ .

وكلفه بتأليف وزارة ائتلافية ، ونجح فى هذه المهمة وجاءت هذه الوزارة تشتمل على كل من ياسين باشـــا الهاشمى ورشيد عالى الكيلانى ورؤوف الجادرجى ، والفريق نوري السعيد ، وأمين على باش أعيان ، ومحمد أمين زكى وغيرهم . ورغم اشتراك هؤلاء الأعضاء المهمين فى الوزارة فانها كانت ضعيفة ، نظرا لعدم انسجام الأعضاء فى داخلها وارتباط كل وزير بمصالح حزبه مثل ارتباطه بمصالحة وبمصالح الوزارة نفسها . وعلى أي حال فان هذه الوزارة قد استمرت فى الحكم طوال سنـــة ١٩٢٧ وثار فى عهـدها خلاف حاد بين السنة والشيعة ، هدد مستقبل العراق . وارتبط هذا الخلاف الطائفى المذهبى من ناحية أخرى بقانون التجنيد الأجبـاري ، الذي وقفت منه الحكومة البريطانية موقفا مثبطا . فادى ذلك إلى تسوية الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة لمواجهة المستعمر الدخيل ، ولكن بعد أن ضعفت الوزارة

ذلك أن حكومة بغداد حاولت أن تتخذ من التجنيد الأجباري وسيلة فعالة للوصول إلى مرحلة القدرة على الدفاع عن البلاد ، أى إلى التخلص من بقاء الحاميات البريطانية على أرض الوطن . ولكن المندوب السامى البريطانى أجاب بأنه يفضل عدم فرض مثل هذا القانون الا إذا كان الأهالى يوافقون عليه ، وأنه يجب عدم الاصرار عليه إذا كانت النيـة تتجه إلى طلب تأييد القوات البريطانية للقوات العراقية الناشئة ، إذ أن قوات الأمبراطورية سترفض القيام بمثل هذا الدور . فظهر أن بريطانيا تحاول الاحتفاظ بالعراق فى وضع التابع الضعيف ، وأخذت الصحف فى فضح النيات الاستعمارية البريطانية . فقضت هذه الحركة على الخلافات المذهبية واتجهت الأعين إلى الخطر الجاثم على قلب البلاد والمتحكم فى مصائر أبنائها .

وشعرت الحكومة البريطانية أنها قد خسرت أكثر مما كسبت بمثل هذا الموقف وخشيت من أن يؤدي تطور الرأى العام وموقف الساسة العراقيين إلى المساس بأسس نظام الانتداب ودعائم نفوذها فى المنطقـة . فعمدت إلى تدعيم نفوذها مع العراق عن طريق استرضائه . وذلك بعقد معاهدة جديدة معه . وضمنت لها هذه المعاهدة الجديدة بقاء سيطرتها على العراق حتى سنـة ١٩٣٢ . فأصابت هدفين بحجر واحد ، دون أن يفطن ساسة العراق للموقف

ذلك أن معاهدة يناير سنة ١٩٢٦ كانت قد نصت على اعادة النظر فى أمر عضوية العصبة الأمم فى عام ١٩٢٨ ، وبعد ذلك فى فترات كل منها أربع سنوات فأبلغت الحكومة البريطانية العراق فى يوليو سنة ١٩٢٧ أنها ستوصى عصبة الأمم بقبول العراق عضوا فيها فى سنة ١٩٣٢ ، وليس فى سنة ١٩٢٨ فأخذ العراقيون فى الاستفسار والتساؤل ثم فى محـاولة التفاهم ، فبدأت المفاوضات وظهر فيها الانقسام بين « الوطنيين » وبين « المعتدلين » وعلى رأسهم فيصل . وشارك فى هذه المفاوضات كل من المندوب السامى ووزارة المستعمرات البريطانية ، وأظهر البريطانيون فيها التشديد وعـدم الرغبة فى التساهل ، واتخذوا ذلك وسيلة للضغط على العناصر المعتدلة . وخشيت هذه العناصر من أن تلجأ بريطانيا إلى تعطيل دخول العراق فى عصبة الأمم أربع سنوات أخري أي البقاء حتى سنة ١٩٣٦ خارج « المجتمع الدولى » فاضطر جعفر باشا فى ١٤ ديسمبر سنـة ١٩٢٧ إلى التوقيع على هذه المعاهدة التى كفلت المصالح البريطانية فى العراق ، دون أن تقـدم للعراقيين مكاسب ذات قيمة .

حقيقة أن هذه المعاهدة قد أشارت إلى التقدم الذى أصابه العراق ممـا

يجعل كل من معاهدات سنة ١٩٢٢ و ١٩٢٦ غير ذات موضوع ، والى رغبة العراق فى الوصول الى مرتبة الدول المستقلة ذات السيادة ، والاشراف على كل شئونها الداخلية والخارجية ، ونصت فى ديباجتها على ضرورة تعديل الاتفاقيتين ، المالية والعسكرية ، كما انها نصت على أن بريطانيا ستؤيدالعراق للدخول فى عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ ولكنها اشترطت ذلك الدخول بأن يحافظ العراق على نفس السرعه التى يسير عليها فى تقدمه وفى طول مدة هذه الفترة الانتقاليه . وكان هذا الشرط سيفاً مسلطاً على عنق الحكومة العراقية، وسببا فى أن يقف معظم ساسة العراق ضد هذه المعاهدة . فنجد أن كل من ياسين الهاشمى وزير المالية وزعيم حزب الشعب ، ورشيد عالى الكيلانى وزير الداخلية وزعيم حزب الوسط لم يوافقا جعفر باشا العسكري رئيس الوزراء والموقع على المعاهدة ، على رأيه فيها جملة ، ولم يوافقا أيضا على التعديل الذى أدخله على الاتفاقيتين المالية والعسكرية . وتصلب جعفر باشا فى موقفه ، فاستقالت الوزارة وألف عبد المحسن السعدون وزارة جديدة فى ١٤ يناير سنة ١٩٢٨ . ولكن الائتلاف السابق كان قد إنتهى . فاضطرت وزارة السعدون الى اجراء انتخابات جديدة لمجلس نواب جديد ، يمكنه أن يوافق على المعاهدة ويصدق على التعديل الذى أدخل على الاتفاقيتين المالية والعسكرية وكانت هذه الانتخابات وسيلة لشحذ الروح الوطنية واظهار الأخطار السياسية ، وازدادت روح العداء لبريطانيا ولمثل هذه المعاهدة . وحاول الوزراء أن يصلوا مع المندوب السامى البريطانى إلى وضع اشتراطات وقيود على ملاحق المعاهدة ، ولكن الرفض كان مستمراً من جانب الممثل البريطانى ، وفى كل التفاصيل ، رفض مطالب العراقيين بالاشراف على شئون الدفاع العراقية ، ورفض اقتراحهم القاضى بالتخلى عن الشرط الذي يضع القوات الانجليزية

العراقية المشتركة تحت القيادة البريطانيه. واقتراحهم الخاص بانهاء الامتيازات التي تمنح للقوات البريطانية والتي تقضي بعدم دفع أي رسوم جمركية على مستورداتهم . وكان معنى هذا الرفض هو البقاء دون معاهدة تنظم العلاقات بين البلدين . ولكن هذا التصلب البريطاني ساعد ، من ناحية أخري ، على تدعيم العلاقات بين العناصر الوطنيه ، وعلى تناسي الخلافات المذهبية وترك المشاحنات التافهة .

وظهر أمام الجميع أن الوضع فى العراق هو « وضع شاذ » ، فكانت دولة مستقلة ولكنها تحت الانتداب ، وكانت الوزارة مسئولة ولكنها تخضع لرقابة المستشارين الأجانب ، وكانت البلاد تحاول الدفاع عن نفسها وتمنعها بريطانيا من سن قانون التجنيد ، وكانت الحكومة العراقية تدير شئون الميناء فى الجنوب والسكك الحديدية ، ولكن هذه المرافق كانت ملكا للأجانب ، وكان الأجانب يتمتعون بامتيازات فى العراق فى الوقت الذى لا يمنح فيه أي امتياز للعراقيين أنفسهم فى الخارج . فاضطر السعدون الى تقديم استقالته فى يناير سنة ١٩٢٩ بعد أن استمر هذا الوضع الشاذ سنة كاملة وفشل فى القضاء عليه ، أو فى أقناع البريطانيين بالتقليل من تشددهم . وظل الرأي العام محتفظاً بعدائه المعلن تجاه هذه المعاهدة ، وكان من الصعب إقناع أي زعيم عراقى بتشكيل وزارة فى مثل هذا الجو السياسى ؛ فظل السعدون يصرف الشئون الوزارية الى أن تألفت وزارة توفيق السويدي فى شهر أبريل .

وجاءت الأخبار من لندن معلنة تغيير المندوب السامى البريطانى فى العراق وتعيين السير جلبرت كلايتون بدلا من السير هنرى دوبس فى بغداد . فشخصت أنظار الساسة العراقيين إلى لندن وكأنها تنتظر مجيء الغيث مع

المندوب السامى الجديد . وكانت السير جلبرت كلايتون سمعة طيبـــة فى الأوساط السياسية العراقية منذ أن تحدث باسم العـراق فى المفاوضات التى دارت مع سلطان نجد ، وأصبح عدد من العراقيين ينظرون اليـه وكأنه من أنصارهم المدافعين عنهم . ولكنه لم يفعل شيئا أكثر من توصيـة الحكومة البريطانية « بالاعتدال » مع العراقيين . وتولى حزب الأحرار السلطة فى بريطانيا . وأعلنت حكومة لندن أنها ستنتهج سياسة جديدة مع مصر ، فازداد الشعور بالأمل فى بغداد . وتلت الحكومة البريطـانية ذلك بتصريح أعلنت فيه للحكومة العراقية أنها ستخلصها من قيود معاهدة سنة ١٩٢٧ . وأنها قد قررت تأييد دخولها عضوا فى عصبة الأمم فى سنة ١٩٣٢ ، وأنهـا تأمل فى تنظيم العلاقات البريطانية فى المستقبل بمعاهدة جديدة .

وتهيأ الجو للمفاوضات بـين العراقيين والبريطانيين . وأعلن السعدون أن التصريح البريطانى يحقق جانباً هاماً من المطالب العراقيـة ، وإن كان العراقيون لا يرضون عن الاستقلال بديلا . ولكن موت السـير جلـبرت كلايتون فى بغداد فى سبتمبر سنة ١٩٢٩ جاء معطلا لبدء المفاوضات. ومرت بضعة أشهر قبل أن يستلم السير فرانسيس هامفريز مكانه . وكانت وزارة توفيق السويدى قد سقطت وعاد عبد المحسن السعدون الى الحكم . وظهر أن المندوب السامى الجديد أقل حماسة من سابقه لتسوية العـلاقات مع العـراق وتنظيمها . فازداد ضغط الرأى العام العراقى على السعدون وطالب بالاستقلال التام غير المشروط أو المقيد . واكفهر الجو السياسى فى بغداد ، وظهر عجز السعدون عن التوفيق بين الوطنين والمستعمرين . وهاجم فريق من النواب الحكومة السعدونية أثناء مناقشة خطاب العرش ، وكانت حملتهم شديدة على

رئيس الوزراء ، وبلغ الأسى فى نفس الرئيس مبلغاً كبيراً ، وتنازعته عوامل متعددة ، وكان يري أنه ليس فى إمكانه أن يتراجع أو أن يتقدم ، وتقطعت فى صدره أوصال العزم والايمان ، وأقلقه العجز ، واستولى عليه القنوط ، حتى وصل به اليأس حدا آثر معه الموت ، [1] فانتحر فى نوفمبر سنة ١٩٢٩ ، « وفقد العراق فيه رجلا أرستقراطياً ممتازا » .

والف ناجى السويدي الوزارة هذه المرة ، وكانت هى نفس الوزارة السابقة باضافة وزير واحد عليها من الخارج . ولكن هذه الوزارة حظيت بتأييد الملك فيصل لها أكثر من سابقتها ، وكان يسعى بلا شك الى الحصول على أقصى ما يمكن الحصول عليه من البريطانيين . فنشطت الوزارة ، بتأييد من القصر ، وأصرت على ضرورة تسليم معظم المراكز الرئيسية لأبناء البلاد ، استعداداً للاستقلال . وطالب كل من الملك ، والوزراء والصحافة بعدم تقييد المديرين والمسؤولين العراقيين بالنصائح والارشادات البريطانية الاجبارية فى أعمالهم . ولما نصح المندوب السامى بالتأنى إشتعل الحماس من جديد وأخذت الصحافة تضرب على نغمة « الوضع الشاذ » من جديد. ثم قامت المظاهرات وارتفعت الهتافات وتبلورت الحركة فى شكل وطنى لا يؤمن بأنصاف الحلول ، ولا بمبدأ الأخذ ثم المطالبة ، فاستقالت وزارة ناجى السويدى بعد أربعة أشهر فى مقاعد الحكم .

---

(١) الريحانى ، أمين ، فيصل الأول . بيروت سنة ٩٣٤ . ص ١٢٧ — عن — أحمد طربين ، الوحدة العربية . القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية . ١٩٥٩ . ص ١٠٦ .

وألف الفريق نورى السعيد الوزارة الجديدة فى مارس سنة ١٩٣٠ وامتازت برضاء كل من العراقيين، والقصر والبريطانيين عنها ودارت المفاوضات من شهر أبريل الى شهر يوليو وانتهت بعقد المعاهدة فى آخر يوم من هذا الشهر. وهى المعاهدة التى أوصلت العراق الى مرتبة الاستقلال.

٤ — الاستقلال :-

لقد صيغت معاهدة سنة ١٩٣٠ فى شكل وثيقة تحالف وثيق بين دولتين صديقتين، وأشتملت على تعهدات متبادلة بالتعاون فى حالات الحرب، وكذلك بالتشاور بين الحليفين، وفى كل الأمور. وأصبح العراق مكلفا بالدفاع عن نفسه ولكنه اعترف فى نفس الوقت بأهمية المواصلات البريطانية فوق أراضيه، ووافق على احتلال البريطانيين، وبقوات يتفق على وحداتها، لقاعدتين جويتين . الأولى الى جوار البصرة والثانية غرب الفرات. وهما قاعدتى الشعيبة والحبانيه. وتعهدت العراق بحماية هاتين القاعدتين بقواتها ولكن على نفقة بريطانيا. ووافقت على أن يبدأ البريطانيون فى استخدامها بعد خمس سنوات من تاريخ التوقيع على المعاهدة. وحتى ذلك الوقت سمحت العراق لبريطانيا بالاحتفاظ بمطار الهنيدي والموصل. أما نزول أي قوات بريطانية فى هذه القواعد وبقائها فيها فقد نصت المعاهدة على أنه أمر لا ينقص أبداً من استقلال العراق ولا من مظاهر سيادته. وتعهدت بريطانيا بمساعدة القوات العراقية بالأسلحة والمعدات والمدربين، وفى نظير ذلك تعهدت الحكومة العراقية بتقديم كل المعونات والمساعدات للقوات البريطانية فى زمن الحرب. بالسماح لها بحرية التنقل بريا وبحريا وجويا. أما ممثل بريطانيا فى العراق فقد حددت المعاهدة منصبة وهو السفارة. ولكنها فرضت أن يكون عميداً لرجال السلك السياسى فى بغداد. وكانت المعاهدة

سارية المفعول لمدة خمس وعشرين سنة من يوم التصديق عليها ، واعترفت بحق الطرفين لإقتراح معاهدة جديدة بعد عشرين سنة ، على أن تتضمن هذه المعاهدة الجديدة حقوق الحكومة البريطانية الخاصة بالنقل والمواصلات .

وأضيف إلى المعاهدة ملحق خاص بالشئون العسكرية شرح تفاصيل وجود القوات البريطانية . ونص على الامتيازات والتسهيلات التى تمنح لها ، وعلى حق القوات الامبراطورية فى المرور عبر أراضى العراق ، واستخدام طرقه وموانئه ومطاراته ، وكذلك حقها فى إقامة القواعد والمخازن للاسلحة والمهمات الحربية فوق أرض العراق .

ولم يلحق البريطانيون بالمعاهدة أي اتفاق مالى ، ولكنهم تبادلوا مذكرة بهذا الشأن مع العراقيين ، نصت على ضرورة تسوية المسائل المالية المعلقة ، وهى الخاصة بالسكك الحديدية وبميناء البصرة ، وذلك فى أقرب فرصة ممكنة ، وباعتبار هذا الاتفاق جزء متمما للمعاهدة .

وكذلك تحاشى البريطانيون إرفاق ملحق خاص بشئون الموظفين بالمعاهدة ولكنهم تبادلوا كذلك مذكرة بهذا الشأن مع العراقيين ، إستندت إلى الصداقة والتحالف بين البلدين لكى تتعهد فيها الحكومة العراقية باستخدام الرعايا البريطانيين عند حاجتها إلى الموظفين الأجانب ، وعلى أن تقوم الحكومتان باختيارهم . وكان من حق حكومة بغداد أن تستخدم غير البريطانيين ولكن هذا الحق كان مقصوراً على حالة عدم تيسير البريطانيين . ونصت المذكرة على أنها لا تمس صحة العقود القائمة بين الحكومة العراقية والموظفين الموجودين فى خدمتها .

وتبادلت الحكومة البريطانية مذكرات أخري مع حكومة نورى السعيد ،

بشأن مسالة وضحت خطورة وضعها فى الملحق العسكري ، وهى السيطرة التامة على الجيش العراقى عن طريق « البعثة العسكرية البريطانية » وشرحت هذه المذاكرات نية الحكومة العراقية ورغبتها فى تحسين كفاءة قواتها البرية والجوية واستندت بريطانيا إلى ذلك لكى تجبر الحكومة العراقية على طلب بعثة عسكرية بريطانية ، يتفق على عددها قبل البدء فى تنفيذ المعاهدة وتكون شروط خدمتها ، وبالتـــالى سلطاتها وهيمنتها مماثلة لشروط البعثة العسكرية الموجودة قبل عقد المعاهدة . أى تظل بريطانيا مسيطرة على جيش العراق .

وهكذا نجد أن ما حارب أبناء العراق وكافحوا من أجل التخلص منه فى المعاهدة السابقة قد انتقل من مواد المعاهدة وملاحقها إلى مذكرات متبادلة بين نورى السعيد والحكومة البريطانية . هذا من حيث الشكل . أما من حيث الجوهر والأساس فيمكننا أن نقول الكثير . ذلك أن المعاهدة السابقة كانت قد نصت على أن مدتها عشرون عاما (المادة ١٨) وأنه يمكن دراسة الحالة عند نهايتها ، ويمكن للطرفين أن يتفقا على انهائها . وجاءت هذه المعاهدة لمدة أطول (المادة ١١) وأوجبت عقد معاهدة جديدة بعد إنتهائها أو بعد مرور عشرين عاما عليها ، وفرضت على المعاهدة المقبلة أن تشتمل على نص يضمن حقوق الحكومة البريطانية الخاصة بالنقل والمواصلات . فالارتباط قد إمتد من عشرين سنة إلى خمس وأربعين ، أو إلى أربعين سنة على الأقل . حقيقة أن العراق قد حصل بهذه المعاهدة على بعض المكاسب السياسية والدولية ، بل يمكننا القول بأن هذه المعاهدة كانت الأساس الدولى لاستقلاله . ولكن ظل مرتبطا بعجلة التحالف والموصلات البريطانية ، والى فترة طويلة ، هـذا علاوة على إباحة أرضه لاقامة قوات وقواعد جوية دائمة ، وتمتع أفرادها

بالامتيازات ، وإستباحة نفس الأرض لمرور القوات الامبراطورية، وتخزين المؤن والذخائر والمهات فى وقت السلم والحرب ، ووضع الطرق والمطارات والموانى والمرافق فىخدمة الامبراطورية التى لاتغيب عنها الشمس، وتعريض البلاد وأبنائها لأخطار الحرب ودمارها . ولقد فرضت المعاهدة على العراق ضرورة التشاور مع بريطانيا فى جميع الشئون السياسية ، ورغم أن أسلوب المذكرات المتبادلة كان أخف عبئاً من أسلوب الملاحق السابقة ، إلا أن هذه المذكرات قد احتفظت لبريطانيا بنفس « المصالح » ، ولا يغنى الشكل كثيراً ، إذ أن لهذه المذكرات قوة المعاهدة نفسها ، وإن كانت لا تنشر على الشعب .

ولقد اتفق كثير من ساسة العراق على أن هذه المعاهدة لم تحقق الأمانى القومية والوطنية للبلاد ، وأنها تتضمن الاحتلال الأبدي ، وأن ذيولها تكبد العراق أضراراً جسيمة ، ورؤا أن بريطانيا قد احتفظت بسطلتها كما كانت من قبل على كل شئون العراق . وارتفعت الأصوات الحرة معلنة أن بريطانيا تهدف من وراء ترك الانتداب وتدعيم العلاقات عن طريق مثل هذه المعاهدة، الاستقلال فى التسلط على مرافق العراق وشئونه دون مراقبة عصبة الأمم[١] ولكن نوري السعيد دافع عن المعاهدة التى عقدها ، ودافعت عنها معه بعض الشخصيات السياسية العراقية ، فاعتبروها وثيقة إستقلال تام ، تدعم شرف العراق وتسمح له بادارة شئونه. وأدعوا أنها تلغى الاتفاقات المالية والقضائية واتفاقية الموظفين التى كانت تحد من إستقلال العراق وتنقص من سيادته ؛ وأشاروا الى أنها تنقل المرافق التى كانت تحت يد إدارة البريطانيين وإشرافهم

(١) محمد جميل بيهم: الانتدابات على سوريا والعراق. صيدا ١٩٣١ . ص ٧٥ .

الى ادارة العراقيين وتمهد بالتالى لتملك السكك الحديدية وميناء البصرة ، وكأن انتقال هـــذه الملكية هى معركة ومكسب وطنى أو أمل قومى . ورفض أحرار العراق اخضاع رقابهم الأبية لهذا « الاستعباد » يفرضه عليهم أحد أبناء البلاد وفى تعاون مـع الاستعمار . فقرر نوري السعيد اجراء انتخابات جديدة لكى يستند اليها ويدعى موافقة ممثلى الأمة على المعاهدة ولقد وقعت حوادث يؤسف لهـا فى اثناء هذه الانتخابات . وشرح نورى السعيد ، فيما بعد طريقته فى اجراء هذا الانتخاب حين قال : « تعمل الترشيحات للعضوية بحيث تشمل أسماء جميع رؤساء الوزارات السابقين ، وجميع الوزراء الذين تولوا الوزارة أكثر من مرتين ، ورؤساء البرلمان ، والبارزين من الموظفين السابقين المحالين إلى المعاش ، وكبار رؤساء الطوائف وأصحاب المهن الحرة ، ورؤساء القبائل الخ . وهؤلاء جميعا تبلغ عدتهم ٦٠ فى المائة تقريبا من جمله أعضاء المجلس ، أما باقى الأعضاء فيتوقف أمرهم فى الغالب على إرادة الوزارة الموجودة فى الحكم ، وإن كان العراقيون الراغبون فى شق طريقهم الى المجلس يستطيعون أيضا ترشيح انفسهم »[١] . كان هذا يعنى خضوع مجلس النواب للوزارة لا خضوع الوزارة لمجلس النواب كما ذكرنا . وكان يحدث تحت ضغط المندوب السامى البريطانى أو عن طريق أعوانه داخل البلاد . فكانت النتيجة معروفة بمجرد إعلان نوري السعيد نتيجته لاجراء الانتخابات . وبطبيعة الحال صدق مجلس النواب العراقى على المعاهدة ، وباغلبية ، ورغم أنف الجميع .

أما الملك فيصل فقد كانت دائرة سلطته تتسع فى كل يوم ، وإستخدام

---

(١) جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط . ص ٢٧٢ .

نفوذه لتوجيه الجهود فى طريق « الاعتدال » لا نجاز التصديق على المعاهدة رغم أنه كان فى حالات أخرى قد شجع العناصر الوطنية والمعادية للبريطانيين. وبعد أن كان قد أعلن انسحابه من الاشتراك الفعلى فى شئون الحكم ، بعد صدور الدستور ، عمل بمشورة البريطانيين ، ولم يكتف بالعودة إلى شغل مركزه كرئيس للقوة التنفيذية للدولة ، بل تخطى حدودة الدستورية. فاضطر الوزراء إلى مراعاة رغباته الشخصية ، فى الوقت الذي حسبوا فيه كل حساب لعلاقاتهم مع بريطانيا . فأصبح نقطة التوازن بين بريطانيا وشعبه. وشجعه البريطانيون على تخطى المراد الحقيقى من أحكام الدستور، حتى يتاح لهم التغلغل فى شئون الحكم[1] . وباختصار تم التوقيع والتصديق على المعاهدة. ورغم كل شيء ، وضعت الأسس لاستقلال العراق ، وعلى هذه الصورة .

وتكاتفت الشخصيات المناهضة لنوري السعيد ولمعاهدته مع بريطانيا ، وأسست حزب « الاخاء الوطنى » الذى ضـم ياسين الهاشمى ، وناجى السويدي ورشيد عالى الكيلانى وعلى جودت . وطالب هذا الحزب بضرورة حل مجلس النواب الذى لا يمثل الأمة ، وتأليف حكومة تتعهد باعادة النظر فى العلاقات الخارجية للعراق ، وكدس نورى السعيد أعوانه من ناحية أخرى تحت اسم حزب العهد. ونجح حزب الاخاء الوطنى فى تنظيم الاضرابات والمظاهرات فى معظم مدن العراق ، وبشكل قوى . ولكن نورى السعيد اتهمه بالعمل على اسقاط الوزارة وبنشر الفوضى وتشجيع التجار على عدم دفع الضرائب واثارة الخلافات المذهبية بين الشيعة والسنة . وفترت هذه

---

(١) أنظر المرجع السابق . ص ٢٧٣ .

الحركة بعد بضعة أشهر نتيجة لتحول الأنظار إلى جنيف وإلى قصر عصبة الأمم الذى ستدخله مملكة العراق المستقلة .

ورغم دخول العراق عصبة الأمم سنة ١٩٣٢ فانه قد عاش فى ظل معاهدة ١٩٣٠ التى سمحت للبريطانيين بالتدخل وبالسيطرة والتسلط ، وإن كان ذلك من وراء الستار وخلف أعوان من أبناء البلاد ، ومن قادة العرب .

٥ — المملكة وجيرانها :

وأخذت العراق تحسب حساباً لجيرانها بمجرد ظهورها كوحدة دولية قائمة بذاتها بعد الحرب العالمية الأولى، أى حتى قبل أن تحصل على الاستقلال وكانت بريطانيا هى التى تشرف على علاقاتها الخارجية مع جيرانها طبقاً لنص الوصاية . ولذلك فاننا نلاحظ النفوذ الأجنبى البريطانى يصبغ العلاقات الخارجية للعراق ، كما أنه أثر وتحكم فى دقائق السياسة الداخلية . فكان من الطبيعى أن تتأزم الأحوال بين العراق وبين من قل ودهم وصداقتهم مع بريطانيا ، والعكس صحيح . وحتى بعد الاستقلال اضطرت العراق إلى أن تحسب حسابا لاتجاهات السياسه البريطانية فى المنطقه ، خاصة وأن الوضع كان قد ارتكز فى منطقه الرافدين على حكومة ، وأسرة مالكة ، ومصالح إقتصادية وبترولية ، وخطوط مواصلات واستراتيجية إمبراطورية .

أما مع فارس فقد كانت العلاقات سيئة نظراً لالتجاء بعض مجتهدي الشيعة إليها واثارتهم القلاقل من هناك ضد حكومة بغداد ، وضد المتحكمين الأجانب فى هذه الحكومة . وحتى بعد أن قام رضا شاه بهلوي بالاستيلاء على الحكم سنة ١٩٤٢ بقى الجاريين دون أن يعترف أى منهما بالآخر . وكان رضا شاه يمتاز بمعارضته لإمتداد النفوذ البريطانى وانتشاره من الخليج العربى

شمالا فى منطقة البترول الايرانية ، ويعارض كذلك فى قيام العلاقات بين سلطات الهند الاستعمارية وشيخ المحمرة فى عربستان. تلك العلاقات التى كثيراً ما دفع الفرس ثمنها نتيجة لميل شيخ المنطقة إلى أنصاره البريطانيين بشكل يتعارض واستقلال (فارس) . وسرعان ما نجد أن رضا بهلوى قد أرسل القوات إلى منطقة عربستان وقضى على القوة الاقطاعية فيها وساق شيخها شبه المستقل إلى طهران وحول اسم المنطقة من عربستان إلى خوز ستان التى اصبحت مجرد ولاية ايرانية . فلا يرضى هذا البريطانيين بطبيعة الحال ، وبالتالى لايرضى حكومة بغداد التى إستندت إلى أن شيخ المحمرة كان من السنة وكان من العرب ، وتناست أنه حليف للاستعمار . وظهرت المسألة أمام غير المتعمقين وكأنها صراع بين العربية والفارسية أو بين السنة والشيعة رغم أنها كفاح بين الوطنيين المتحررين وبين أعوان الاستعمار. وكان الوزير المفوض البريطانى فى طهران هو الذي يرعى المصالح العراقية ويدافع عنها ، وكان يمثل أيضا همزة الوصل بين الجارين فظلت العلاقات سيئة بين الجارين إلى أن سمحت بريطانيا بتحسنها، وعلى أساس تعاون السلطات الايرانية والعراقية لاستتباب الأمن والنظام فى منطقة الحدود ، والقضاء على العصابات التى لها نزعات إستقلالية وكانت تحارب كل من الحكومتين وتهدف من وراء ذلك القوة الاستعمارية التى سيطرت على المنطقة ، فاعترفت الحكومة الايرانية بالعراق وتبادلت العاصمتان التمثيل القنصلى ثم التمثيل السياسى فيما بعد .

وأما تركيا فان علاقات العراق معها كانت مرتبطة أشد الارتباط بمشكلة الموصل والبترول . وما أن سويت هذه المشكلة حتى عادت المياه إلى مجاريها وعقد الطرفان اتفاقية خاصة بالحدود وبدأ التمثيل السياسى ، وكان الأمير

زيد هو سفير العراق فى انقرة لمدة سنوات طويلة .

ولكن إذا كان فقهاء القانون الدولى رأوا فى ظهور شخصية العراق وتبلورها تجاه جيرانها ، وخاصة إيران وتركيا ، مكسبا للمنطقة ، فان رجال العروبة رأوا فى تبلور الشخصية العراقية وانفصالها عن جيرانها العرب فى سوريا وشبه الجزيرة خطوة إلى الوراء ، ولا تخدم الا الروح الاقليمية ، والسادة الأجانب المتسلطين .

وعلى أى حال فقد أثرت السياسة والنصائح البريطانية من ناحية ، والبناء السياسى والاقتصادى الذي أقيم فى العراق بعد الحرب العالمية الأولى من ناحية أخرى فى علاقات هذه المملكة مع جيرانها العرب ، أما مع سوريا فيمكننا أن نضيف عوامل جديدة هى وجود الاستعمار الفرنسي وتحكمه فيها ، ودرجة تضارب المصالح الفرنسية مع المصالح البريطانية فى المنطقة , وأما مع وسط الجزيره فقد تأثرت علاقات العراق بحوادث الاخوان ، وهم من المجاهدين المسلمين ، وبعلاقات عبد العزيز بن عبد الرحمن بالحجاز وإستيلائه على هذه المنطقة من الملك الحسين وابنه الملك على ، وهما والد وأخ الملك فيصل .

ولقد نظر السوريون دائما إلى فيصل على أنه رجل العروبة ومحرر دمشق وأول ملك عربى لهم . ونسوا أو تناسوا موقفه من المظاهرات السورية ومن يوسف العظمة قبل ميسلون . وكانت أنظار فيصل تتجه دائما من بغداد الى دمشق التى كان يحن إليها . ولم يحاول البريطانيون أن يوجهوا أنظاره جهة أخرى ، خاصة وأن إمتداد النفوذ الفيصلى سيكون على حساب الفرنسيين فى سوريا ولحساب البريطانيين ولقد أحاط الملك فيصل نفسه بحاشية من السوريين فى بغداد ، واستمع إليهم وعمل من أجل سوريا مرات عديدة .

وكثر عدد المدرسين والأطباء السوريين فى العراق وأرتفعت من بغداد بعض الاصوات تنادى بالوحدة العربية ، وظهر فيصل الأول وكأنه أملا .

ولقد تدخل فيصل فى حوادث جبل الدروز سنة ١٩٢٥ ؛ ولو أن جزءاً كبيرا من الأسلحة التى ضبطها الفرنسيون فى المنطقة كانت من صناعة انجليزية وكان السوريون ينادون فيصلا كلما تأزمت الأمور مع السلطات الاستعمارية الفرنسية فى بلادهم ؛ ولكن بناء الدوله العراقية نفسه كان يمنع فيصلا من التدخل السافر فى شئون سوريا . وسرعان ما وجدت الدول الاستعمارية الفرنسية والبريطانية أن مصالحها غير متضاربة فى المنطقة ، فعمدا إلى تحديد الحدود بين سوريا والعراق وبدأت السلطات فى إنشاء الطرق بين الجاريين العربيين وأصبحت سوريا مخرجا للعراق على البحر المتوسط ، وتعاونت السلطات الاقليمية فى كل منها فى القضاء على العصابات التى تحوم حولها ، وتساعد على نشؤ شخصيتين متجاورتين ومتعاونتين فى الميدان الدولى . ولكن تقدم وسائل النقل والمواصلات ساعد على سرعة تبادل الآراء ، وعلى التقارب بين أبناء الأمة الواحدة وإن كانت تخضع لحكومتين ، وأفاد العراق كثير من الروح العربية الاستقلالية التى جاءته من سوريا ، قلب العروبة .

وأما مع وسط الجزيرة فان العراق قد عمل على توكيد شخصيته الدولية رغم اختلاف الحكومتين فى الاتجاه وفى التكوين وفى الوسائل التى يستخدمها للوصول الى أهدافه .

ولم ترض العراق بهجوم الاخوان بقيادة فيصل الدويش على أراضيها ، ولم ترض بريطانيا أيضا عن ذلك . فقامت المحادثات ثم المفاوضات بين

الطرفين منذ سنة ١٩٢٢ فى عقير ، وصمما على التعاون سويا لرسم حدود ثابتة . وحين بدأ عبد العزيز بن عبد الرحمن فى مهاجمة الحجاز ، لم تتدخل العراق فى الامر . ولكن البريطانيين لفتوا أنظار سلطان نجد إلى اغارة الاخوان من جديد على أراضى العراق . وجاء جلبرت كلايتون للتحدث مع ابن سعود سنة ١٩٢٨ ثم تعاون العراقيون مع السعوديين فى القضاء على قوات فيصل الدويش التى كانت قد خرجت عن طاعة عبد العزيز بن عبد الرحمن . ونجحوا فى ذلك العام التالى .

ثم تقابل فيصل مع عبد العزيز آل سعود على ظهر بارجة بريطانية فى مياه الخليج العربى فى يناير سنة ١٩٣٠ ، وخرجا متصافين من هذه المقابلة ، وكانت بريطانيا هى حمامة السلامة للتوفيق بين رؤساء العرب !! وفى ابريل من السنة التالية ذهب كل من نورى السعيد رئيس مجلس الوزراء العراقى مصحوباً بطه الهاشمى الى زيارة لمكة حيث وقعا على اتفاقية صداقة وحسن جوار وتسلم للمجرمين بين الدولتين المجاورتين . ورد الأمير فيصل ، النجل الثانى لعبدالعزيز الزيارة لبغداد بعد ذلك . وحينما أعلن ابن سعود توحيد نجد والاحساء والحجاز تحت اسم المملكة العربية السعودية ، اعترفت به حكومة بغداد .

واما العلاقات مع شرق الاردن فكانت أخوية قبل كل شىء وتزاور الملك العراقى والامير الاردنى فى عمان قبيل وبعد وفاة والدهما الملك الحسين فى هذه المدينة سنة ١٩٣١ .

وهكذا تدعم الوضع الجديد فى العراق . وعلى أسس معينه . ولكن شخصية الحكام والمحكومين كانت عربيه : وعربية قبل أن تكون عراقية أو

أو أقليمية . وتسبب ذلك فى بعض القلقلة حين إضطر ابناء الرافدين إلى التفريق بين عراقيتهم وعروبتهم .

وتوفى الملك فيصل فى سنة ١٩٣٣ وتولى الملك بعده إبنه غازى وكانت له شخصية أخري تختلف عن شخصية والده ، وأثر ذلك بالتالى على سياسة العراق : والاوضاع الموجودة فى العراق .

الفصل السابع

سوريا والوحدة والاستقلال

كانت سوريا قلب العروبة النابض ومبعث روحها ووحيها . وكانت على رأس الحركة العربية ودل ذلك على عمق شعورها بشخصيتها وشخصية أبناء البلاد قبل غيرها من الأقاليم العربية . واحتفظت سوريا من ذكريات العروبة والاسلام بعاصمة الأمويين مع ما اشتملت عليه من تراث وعز . وكانت أقرب الأقاليم العربية الى الحضارة الغربية فاستجابت قبل غيرها وتحركت . ولكن فى أى اتجاه ؟ والى أى نتيجة بلغت ؟

١ — النمو الاقتصادى والاجتماعى

ان شعور السوريين بشخصيتهم أمر لاشك فيه . ولكن المسألة ليست مجرد شعور أو عواطف بل إن الظروف الاجتماعية الإقتصادية التى مرت بالمنطقة هى التى دفعتها إلى الشعور بشخصيتها المتميزة ، وبالشكل الذى شعرت بها وقبل غيرها من الأقاليم العربية . لقد كانت سوريا ، مثل بقية أقاليم الدولة العثمانية تخضع للحكم التركى ، ولكن قربها من أوربا ساعدها على الاحتكاك بحضارة الغرب قبل غيرها من الاقاليم ، وجاء القرن التاسع عشر لكى يزداد النفوذ الغربى فى المنطقة نتيجة لتركز الاستعمار الغربى فى الهند والشرق الأقصى وسلوكه طريق سوريا والشرق الأدنى للوصول منه الى ميدان الإستعمار والاستغلال ، فى الشرق الأقصى . وقعت سوريا على طريق المواصلات الامبراطورية ، ومرت فيها التجارة بين الشرق والغرب ، فساعد هذا على معرفتها بالشرق وبالغرب فى نفس الوقت . وجاءت مع خطوط مواصلات

الامبراطورية مبادىء الثقافة من بلاد أكثر تقدما وحضارة . ويمكننا ان نزيد على ذلك تغيرا إجتماعيا - إقتصاديا حدث فى المنطقة، نتيجة لاشتغال بعض أبنائها بالتجارة وإثرائهم منها ، أي بمعنى آخر ، نمو طبقة تعمل بالتجارة ، وهى الطبقة البورجوازية ، أو الوسطى ، فى المنطقة . وازدياد الأموال فى أيديها مما يسمح لها بتعليم أبناءها محليا فى أول الأمر ، ثم فى أوربا بعد ذلك إن هذه الطبقة قد عملت مع نموها ، على محاولة إيجاد مجال حيوي لها، فاصدمت بالتالى بالطبقة الاقطاعية القديمة التى احتفظت بالأرض، وبحلفاءها الحكام العسكريين والمدنيين من الاتراك والمتتركين . وشعرت هذه الطبقه بشخصيتها واضحة متميزة عن شخصية الحكام . فقد كانت طبقة عربية ، وكانوا من الأتراك ، وفى هذا مايكفى كبداية لتبلور كل من الطبقتين ، وانفصالها عن الأخرى مع مايحمله هذا الانفصال من الاحتفاظ بروح عدائية ، أو على الأقل تنافس على المجال الحيوي اللازم لكل منها . وكان من الطبيعى أن تنجح هذه الطبقة الوسطى فى كسب أبناء الأقاليم أكثر من نجاح الطبقة العليا التركية .

ومع هذا العامل يمكننـــا أن نرى عاملا ثانيا مساعد على تبلور كل من الشخصيتين ، ذلك أن الأتراك قد إعتمدوا على الاسلام كأساس لوجودهم فى سوريا ، وبدأ السوريون يؤمنون بمذهب جديد، نتيجة لاحتكاكهم بالغرب وهو مبدأ الدين لله والوطن للجميع ، أي مبدأ فصل السلطة الدينية عن السلطة الزمنية فى الدولة أو علمانية الدولة . ورأو فى هذا الفريق انفساحا للمجال أمامهم ، وتوحيدا لصفوف أبناء البلاد ، وفيهم عدد من الأقليات المسيحية ، ونموا وتحضرا على الطريقة الغربية الحديثة . واقتباسا من مبادىء القوميات وحقوق الشعوب.

ساعد النمو الاقتصادي مع الاحتكاك الفكرى اذن على ابتعاد السوريين عن العثمانيين رغم مجاورة اقليميهما الواحد للاخر ، واتحاد مصالحها فى منطقة الشرق الأدنى . ونضيف الى ذلك عامل خارجى ، هو ازدياد النفوذ الغربى بشكل عام والنفوذ الفرنسى بشكل خاص فى الاقليم السورى. فلقداحتفظت فرنسا — منذ عهد فرانسوا الأول وسليمان القانونى — بالامتيازات الأجنبية التى سمحت لها بحماية ورعاية الأجانب والمسيحيين الكاثوليكيين فى الامبراطورية العثمانية وفى الشام ، وكان هذا هو الأساس الذي قام عليه ارسال بعثات التبشير الى المنطقة وبداية اهتمام المبشرين بالعرب السوريين .

ساعدت بعثات التبشير على نمو الشخصية العربية وذلك بقيام عدد من رجالها بدراسة أحوال المنطقه ودراسة التراث العربى والاهتمام بالمسائل العربية وخاصة بعد أن تعددت هذه البعثات ، وأصبحت تنافس كل منها الأخرى . وبعد حملة الجنرال بونابرت ثم امتداد الحكم المصري الى الشام ، بدأ المبشرون البروتستانتيون فى المجىء الى سوريا ، وفى العمل فى أرجائها ، وساعد على ذلك قيام حكومة مدنية لاتفرق بين المسلم والمسيحى أمام القانون. وعمل البروتستانت على محاولة كسب العرب اليهم واحياء التراث العربى أكثر من الجزويت الكاثوليك فاضطر ذلك الكاثوليك الى النزول الى نفس الميدان . وساعد هذا التنافس ، فى الجيل التالى ، على اهتمام العرب بتراثهم ، وشعورهم بشخصيتهم العربية متميزة عن شخصية الحكام الاتراك والمتتركين.

ثم زادت بعثات التبشير وتعددت ونشطت وأثمرت بين شباب الجيل الأول وكان معظمه من المسيحيين الذين يفضلون الدراسة لدى المبشرين على الدراسة فى المدارس الإسلامية ، ودفع هذا النشاط الاغلبية العربية ، وهى مسلمة ،

الى منافسة هذه الأقلية العربية المسيحية فى الاعتزاز بالعروبة، فنشأ الجيل العربى الثانى مسلما فى غالبيته العظمى ، ولكنه اضطر الى ابعاد الدين عن السياسة ، حتى يوحد بين طوائف الأمة المتعددة ، ويكتلها جميعا فى وجه الاتراك .

ولقد ازداد النفوذ الأوربى وتعددت مصادرة وأصوله ، فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فالى جانب الفرنسيين والبريطانيين والأمريكيين والروس، إزداد عدد الايطاليين ثم عدد الألمان . وانعكس النفوذ الثقافى والعامل الدينى على الميدان السياسى، وأصبح رجال التبشير من كل دولة ينافسون رجال الدول الاخرى، وحاولوا الافادة من انقسام المعسكر الوطنى الى طوائف لكى يحاولوا الارتكاز عليها كدعائم لهم فى المنطق ، فاذا كان الفرنسيين يحتضون المارونيين فلا أقل من أن يشجع الأمريكيون البروتستانت ، وإذا كان الروسيون يعطفون على الأرثوذوكسيين فى بيت المقدس فلا أقل من أن تقوم بريطانيا بالعطف على الدروز أو حماية اليهود . هذا العامل الخارجى أفاد من انقسام المعسكر الاقليمى وحاول بناء سياسته على أشلاء العرب ، ولذلك فان زعماء الحركة العربية الحديثة قد شعروا بخطورة الانقسام الدينى بين أبناء الأمة الواحدة ، فازداد تمسكهم بمذهب «الدين لله والوطن للجميع» . وأبعدهم هذا العامل كذلك عن إخوانهم الاقليميين ، اخوانهم فى الدين ، الأتراك العثمانيين ، وساعد على زيادة تقربهم من المبادىء الحديثة المتحررة ، وإن كانت قد جاءت من الغرب الذى لايضمر للمنطقة إلا الاستعمار والتسلط ، والاحتلال والاستغلال.

لقد حاول الأتراك العثمانيون أن يحتفظوا بالشرق الأدنى عامة ، والاقاليم السورية خاصة تحت نفوذهم ، وكانوا مخلصين فى محاولاتهم الاحتفاظ بأرض الاسلام موحدة أمام ، أطماع الاستعمار الغربى ، ولكن تشبثهم وتصلبهم

بآرائهم في الوقت الذي استمر فيه التطور فى المنطقة ، نتيجة لعـوامل داخلية وخارجية ، أثبت أنهم كانو أ كثر جمودا من أي عناصر أخرى . وتسبب هذا الجمود فى زيادة انقسام المعسكر الاقليمى ، وابتعاد العرب عن الاتراك ، فى الوقت الذي زاد فيه تقرب العرب من الاوربيين .

وحاولت الدولة العثمانية ، نتيجة للتدخل الغـــربى فى شئونها ، أن تمنع رعاياها دستورا عصريا تسوى فيه بين جميع المواطنين ، وعلى أساس رعويتهم للدولة ، دون نظر إلى معتقداتهم وأديانهم . فجاء دستورمدحت باشا،ولكنه تناسى الاختلاف الاقليمى ، ورغبة العربى فى الاحتفاظ بشخصية إقليمية . ولقد وجد هذا الدستور بين جميع سكان الامبراطورية العثمانية ولكن على أساس المركزية . ومادامت السلطة قد ظلت مركزة فى القسطنطينيةفان الباب كان مغلقا فى وجه أبناء الأقاليم . وهم يجتازون مرحلة النمو والتطور . ثم تعطل هذا الدستور ، فساعد ذلك على مطالبة العرب باعادة العمل به أو بمنح غيره ورفضت الدولة العثمانية إجابة هذه المطالب ، فوقف العرب فى جانب ، والدولة فى الجانب الآخر.

ومع تطور ألاحداث فى الشرق الادنى ، ومع ماوقع من حروب خارجية إزداد شعور العرب بتضارب مصالحهم مع المصالح العثمانية ، فكانوا،يشاركون فى حروب فى خارج مناطقهم ، وربما استخدمتهم الدولة فى حروب فىمناطق عربية أخرى ، مثل اليمن ، فيضرب العرب بعضهم بعضا ولصالح الاتراك ولذلك فان العرب قد طالبوا بجعل الخدمة العسكرية محصورة فى أقاليمهم ، كما طالبوا بالاعتراف بشخصيتهم ، والاعتراف بلغتهم ، وإذا كان المبشرون والاجانب المسيحيون، يشجعون الدراسات العربية ويهتمون بالتراث العربي

فلا أقل من أن تقوم دولة الخلافة الاسلامية بالاهتمام بلغة الضاد لغة القرآن . ولقد شعر عدد من العرب بأنهم أقرب إلى الاسلام والخلافة من المسلمين الأتراك ، إذ أنهم عرب ، وبعضهم ينتسب الى قريش ، بل وينتسب الى الرسول عليه الصلاة والسلام . فاذا كانت الخلافه قد جمدت ، فهناك من العرب والقرشيين والاشراف من أن يدافع عنها ، ويعيد إليها عزها ومجدها. ولكنهم إضطروا الى عدم الاصرار على هذا العامل ، نتيجة لوجود طوائف مسيحيا متعددة فى أرض العروبة ، وخاصة فى الشام . وجاء الدستور العثمانى سنة ١٩٠٨ ، ولكنه تناسى التطور المنطقى للاقاليم ، وكان عبارة عن عودة دستور مدحت باشا بشكل جديد ، ومع الأحرار على تناسى عوامل اللامركزية التى نمت فى المنطقة . فظهر أن الدستور لا يتمشى مع مصالح أبناء المنطقة ، كما ظهر أن الدولة العثمانية تخضع للجمود ، ويزيد فيها النفوذ التركى والعنصرى

ومع إنتشار مذهب « الدن لله والوطن للجميع » تحولت الانظار الى أوربا تنشد الحرية والمساواة ، نتيجة اشعورها بالكبت فى العالم العربى والاسلامى ، ونتيجة لتبلور الانشقاق بين أبناء الوطن الواحد .ولاغرو فقد انعقد المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ ،وجاءت قراراته مثبتة لهذا النمو الاجتماعى والاقتصادى والفكرى فى منطقة الشرق العربى عامة ، والشام خاصة . واذا كانت الدولة العثمانية قد تظاهرت بمحاوله ارضاء هذه الشبيبة العربية الناهضه ، الا أن وسائلها وامكانياتها والظروف المحيطة بها قد منعتها من وضع خطة عملية للتوحيد بين الجميع .

ومع ازدياد النفوذ الالمانى فى الدوله العثمانية ازداد ميل العرب الى جانب الحلفاء الغربيين ، ومع اعلان الحرب انضم العرب الى البريطانيين والفرنسيين،

وأشهروا السلاح فى وجه الاتراك العثمانيين . ولقد أفاد المعسكر الغربى الاستعمارى من هذا الموقف وأفاد منه فى تقسيم العالم العربى واحتلاله واستغلاله .

اطماع الاستعمار وغدره : —

كانت الأطماع الاستعمارية الفرنسية فى سوريا هى أقوي الاطماع الموجودة، ومنذ القرن الثامن عشر . واتخذتها فرنسا أساسا لخلق المصالح فى المنطقة والتفوق فيها .

فرغم فشل الجنرال بونابرت فى إقامة قواعد ثابتة فى منطقة الشرق الأدنى يستخدمها فى ضرب الأستعمار البريطانى فى الهند ، نجد أن فرنسا قد نظرت الى مشروع محمد على لتوحيد سوريا مع مصر كشروع يهدف الى تنمية النفوذ الفرنسى فى المنطقة كلها ، وعلى حساب بريطانيا . ورغم تخلى فرنسا عن محمد على فى حرب سنة ١٨٣٩ ومعاهدة لندن فى السنة التالية ، نجد أنها تعمل على منع نمو أى نفوذ أجنبى فى المنطقة ، سواء أكان هذا النفوذ بريطانيا أو روسيا . وكان التنافس مع روسيا حول حماية الأماكن المقدسة فى الشام هو السبب المباشر لحرب القرم . ونجحت فرنسا مع بقية الدول الاوربية فى منع ازدياد وتضخم النفوذ الروسى فى هذه المنطقة . وجاءت معاهدة باريس سنة ١٨٥١ لتقرر استقلال الدولة العثمانية وتضمن سلامة أراضيها ولكنها لم تعرقل نفوذ فرنسا فى الشام .

ولكن النزاع قد بدا واضحا بين النفوذ الفرنسى والبريطانى فى مسألة قناة السويس . وعارضت بريطانيا المشروع حتى لا تضع طرق مواصلاتها الامبراطورية تحت تحكم الفرنسيين . وعارض السلطان العثمانى فى التصديق

على إمتياز حفر القناة ، وتوتر الموقف بين لندن وباريس . ولاشك أن عملاء هاتين الدولتين الأوربيتين قد نشطوا فى منطقة الشام ، التى تفصل منطقة القناة عن مركز الدولة العثمانية . فنجد أن أصدقاء الفرنسيين ، وهم الموارنة يصطدمون بأصدقاء بريطانيا ، وهم الدروز . ووقعت المذابح وثار ضمير الانسانية الحى ، وطالبت فرنسا باجتماع الدول لبحث الموقف واسرعت باظهار استعدادها لارسال حملة الى بيروت، منتصف الطريق تماما بين القسطنطينية والسويس . ورغم أن الدول قد اشترطت عليها سحب هذه الحملة بعد ستة أشهر ، إلى أنها بقيت لمدة سنة كاملة ، ولم تسحبها إلا بعد تدخل بريطانيا فى الأمر . ولقد شعر السلطان بأنه يمكن لفرنسا أن تفصل بينه وبين منطقة القناة ، وكان هذا من بين عوامل ضغط العملية التى إستخدمتها فرنسا لاجبار تركيا على التصديق على إمتياز قناة السويس .

وتم حفر القناة سنة ١٨٦٩ ، ولكن العام التالى شاهد انهيار فرنسا أمام قوات بسمارك ، واجتاحت فرنسا إلى فترة من الزمن لتضميد جراحها واستعادة مركزها . وماأن أفاقت من كبوتها حتى وجدت أن بسمارك هو الذى يدير كل السياسة الدولية . واضطرتها ظروفها وظروف الدول العظمى الأخرى الى عدم الاصطدام بأية دولة أوربيه . كما أنها إضطرت نتيجة لازدهار الحركة الصناعية فيها من ناحية ، ولشعورها بالضعف على القارة من ناحية ثانية ـ الى ترجمة ذلك بحركة توسع استعمارى فيماوراء البحار .

ولقد عارضت بريطانيا فى شرا فرنساء لأسهم الخديو اسماعيل فى شركة القناة وحصلت عليها لنفسها سنة ١٨٧٥ ، وتقهقر النفوذ الفرنسى أمام النفوذ البريطانى فى مصر . ورغم اشتراك فرنسا مع بريطانيا فى المشكلة المالية

المصرية فان فرنسا لم تكن لتقدر على الالتحام مع بريطانيا فيما يتلق بهذا الميدان ، مادامت القوات الألمانية مرابطة فى الألزاس واللورين . وحصلت بريطانيا على جزيرة قبرص سنة ١٨٧٨ فعملت فرنسا على توسيع أملاكها فى شمال افريقية بفرض حمايتها على تونس ، ولكن أنظارها ظلت شاخصة الى الشام ، ترقبها وتعمد إلى التوسع فيها ، وفى أول فرصة سانحة . وكان من الطبيعى كذلك أن تبدأ بتونس القريبة منها ، والمهددة بازدياد النفـــوذ الايطالى فيها ، ثم تثنى بالشام ، وهى بعيدة نسبيا ، ولايهدد فرنسا فيهامهدد.

وتعرف عملية التوسع الاستعمارى التى شاركت فرنسـا فيهـا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، والتى لعبت فيها دورا هاما فى جميع انحاء العالم تعرف فى التاريخ باسم حركة التسـلط . وهى تختلف عن حركة الاستعمار الأولى ، إذ أنها لاتعتمد على الاستيلاء على أرض الوطنيين ، ولـكنها تحتفظ بالاقليم بأكمله وبما عليه من أهالى ، ميدانا للاستغـلال الاقتصـادى لصالح الدول المتسلطة . وهى مرتبطة بالتطور الذي أصاب الاقتصـاد الاوربى مع إختراع الآلة البخارية وقيام الثورة الصناعية ثم ازدهار الصناعة الأوربيـة . واعتمد الاوربى على الآلة وهى سريعة الانتاج ويلزمهـا الـكثير من المواد الأولية وتحتاج الى الاسواق المهمة لبيع المنتجات هذا من ناحية ، وساعدت هذه الصناعة أصحاب رؤوس الأموال على سرعة دورة رؤوس أموالهم وحققت لهم بالتالى أرباحا طائلة من ناحية أخرى . وساعد كل ذلك على سرعة دورة رأس المال وتحقيق أكبر ربح بأسهل طريقة وفى أقرب وقت . ولذلك فان الدول التسلطية قد قامت بالبحث عن أسواق وموارد للمواد الخام فى نفس الوقت الذي عملت فيه على امداد الدول المتخلفة بالقروض فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وذلك بشروط مجحفة ، مادامت العمليـة هى مجرد

استغلال رأسمالى . أى أن تقديم القروض لمصر أو لتونس وبأرباح باهظة تخصم سلفا ودون نظر الى قوة الانتاج الوطنية ، هى عملية تسلطية تحكمية فى أساسها . وكانت تنتهى دائما باحتلال الاقليم واستغلاله بطريقة سافرة .

هذا هو ماقامت به الدول الرأسمالية ويهمنا منه هنا ماأصاب الدولة العثمانية بشكل عام وإقليم الشام بنوع خاص . لقد شاركت فرنسا مشاركة فعالة فى تمويل المشروعات الانشائية فى شرقى البحر المتوسط فاشتركت فى عمليات بناء الموانى ومد السكك الحديدية ، ولعبت دورا كبيرا فى تقديم القروض للدولة العثمانية والسيطرة على ادارتها من الناحية المالية ومهد ذلك لها الطريق لإنشاء المصارف وتسويق بضائعها فى المنطقة . وكان من الطبيعى أن تؤدي هذه السياسة الى وضع المنطقة تحت التحكم الاجنبى . أى الفرنسى بعد فترة من الزمن وبعد أن كانت فرنسا تتكلم باسم الرعايا الكاثوليك ورجال التبشير نجدها تفرض الشروط على ميزانية الدولة وتتحكم بالتالى فى رواتب الموظفين وتسيطر ماليا وفنيا على الموانىء والسكك الحديدية وهى أسس الاقتصاد ودعائم الاستراتيجية .

ولكن تفوق النفوذ الفرنسى فى منطقة الشام لايعنى أمنه من منافسة دولة أوربية أخرى خاصة وأن هذه المنطقة كانت هى التى توصل بريطانيا بمستعمراتها فى الهند والشرق الاقصى من ناحية . وكانت من ناحية أخرى مطمع آمال روسيا القيصرية . ولكن إذا كانت بريطانيا تهتم بمنطقة الشرق بدرجة أقل من إهتمامها بمنطقة قناة السويس . أى بالطريق المائى فان الامر لم يكن كذلك بالنسبة للروس . ذلك أن روسيا كانت تهدف إلى الوصول عن طريق أرمينيا ومنطقة الاسكندرونة إلى مياة البحر المتوسط الدافئة :

وزاد هذا الطمع وضوحا وبدأت روسيا فى وضع الخطة له وخاصة بعدأن قررت الدول التحكم فى حركة مرور السفن الروسية من البحر الأسود عبر البسفور والدردنيل . فروسيا اذن تطمع فى الاسكندرونة فى نفس الوقت الذي تحاول فيه التوغل فى بلاد الفرس للوصول الى الخليج العربى، وإذا كان وصولها الى الخليج العربى يهدد الاستعمار البريطانى فى الهند ، فان سيرها صوب الاسكندرونة يهدد فرنسا فى الشام ، خاصة وأن للروسيا بعض الارثوذكسيين تتحدث باسمهم فى منطقة القدس . هذا هو أول خطر هدد الأطماع الاستعمارية الفرنسية فى الشام .

ويأتى بعد ذلك الخطر الألمانى ، وهو وأن كان قد جاء متأخرا إلا أنه كان أقوى من الخطر الروسى . ذلك أن المانيا قد جمعت قواها بعد الحرب السبعينية وظلت تتظاهر فى عهد بسمارك بعدم رغبتها فى النزول إلى ميدان التكالب الاستعمارى مع بقية الدول الأوربية ، ولكن ذلك لم يمنعها من إتخاذ قفزة سريعة مع مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤ — ١٨٨٥ للحصول على مستعمرات لها فى شرق إفريقية وفى غربها وفى جنوب غربها فى نفس الوقت . وظهر الإتجاه الاستعمارى الألمانى واضحا بعد تخلص الإمبراطور ولهلم أو غليوم الثانى من بسمارك وإشرافه بنفسه على إدارة الدول . ويهمنا هنا أن ألمانيا قد نزلت إلى ميدان الشرق الأدنى نتيجة لتطبيقها سياسة الاتجاه نحو الشرق ، أو الجنوب الشرقى .

ولقد بدأ الامبراطور ولهلم الثانى فى تشجيع سياسة التوسع فى آسيا الصغري ، وهدف منها الوصول عبر بلاد الرافدين إلى مياه الخليج العربى والهند . وكانت هذه السياسة تتعارض بطبيعة الحال مع إتجاه روسيا صوب

صوب الاسكندرونة ، كما كانت تتعارض مع المصالح الاستعمارية والبريطانية فى الهند ، وتهدد الأطماع الفرنسية فى الشام . عمد الامبراطور ولهلم الثانى إلى زيادة النفوذ الألمانى فى الدولة العثمانية عن طريق بعثاته العسكرية وقواده وضباط أركان حربه ، ثم جاءت بعد ذلك المشروعات الاستغلالية الضخمة ، وخاصة لإنشاء ومد الطرق والسكك الحديدية . ويعتبر مشروع سكة حديد بغداد والبصرة من أهم هذه المشروعات ومن أخطرها . نظرا لتأثيره على خطوط المواصلات البريطانية ، وعلى مشروعات كل من الروسيا وفرنسا فسكة حديد بغداد تمنع روسيا من الوصول الى الاسكندرونة ، ويمنع فرعها الموصل إلى الاسكندرونة فرنسا من ربط سكك حديدها فى آسيا الصغرى مع مشروعات سكك حديدها فى الشام . فلا عجب أن تعمد كل من بريطانيا وفرنسا من ناحية ، وفرنسا وروسيا من ناحية أخرى ، إلى تسوية مشاكلها والوصول بعلاقاتها إلى مرتبة الصداقة أو التحالف أمام الخطر الجرمانى المشترك .

وزاد شعور الروسيا بضعفها ـ وخاصة بعد حربها مع اليابان ـ فى قيمة تحالفها مع فرنسا ، وعمدت فرنسا بالاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ إلى إنهاء الخلاف مع بريطانيا حول مصر والمغرب الأقصى . وظهرت خيوط التجمعات الجديدة ونكن الامبراطور ولهلم لم يسلم للامر بسهولة قرار القدس وأعلن أنه صديق السلطان العثمانى وصديق ثلاثمائة مليون مسلم ؛ ثم عاد إلى طنجه سنة ١٩٠٥ وأعلن أنه صديق لسلطان مراكش المستقل . ولكن هذه المقاومة الألمانية هددت بعزل المانيا بعد تكتل الدول الثلاث الكبري ضدها . وكانت المانيا ، مثل غيرها . لاترغب فى حل المشكلات عن طريق الحروب العالمية ،

إلا فى حالة الضررة القصوى . ولذلك فانها قد اضطرت إلى اخفاء نشاطها فى الشام والشرق الأدنى ، وعمدت الى العمل هنـاك باسم السلطان العثمانى ، وان كانت قد حافظت دائمـا عـلى مشروعاتها الاقتصـادية وخططها الاستراتيجية فى المنطقة . فالسلطان عبد الحميد هو الذى يشرف بنفسه على عملية مد السكة الحديدية إلى الحجاز ، وهى سكة حديدية تخدم مصالح المسلمين ، وتساعد الحجاج الى زيارة قبر الرسول . وعـلى هذا المستوى يصعب عـلى أى ناقد أن يتهمها بالعمل ضد المصالح البريطانية مثـلا ، وإن كانت فى حقيقة الأمر تهدد هذه المصالح بالفعل .

وجاء تدعيم العلاقات بين فرنسا وبريطانيا وروسيا من ناحية ، يعنى معاداتهم لألمانيا من ناحية أخرى ، ويعنى بالتالى تدعيم العلاقات العثمانية الألمانية مادامت هذه الدول تهدف تقسيم منطقة الشرق الأدنى فيما بينهما، إلى مناطق نفوذ ، اي مناطق استغلال .

هذا عن الأطماع الاستعمارية . وبقى علينا أن نتحدث عن غدر الاستعمار.

واذا كانت الاطماع رغم تعددها فى منطقة الشام ترجح كافة فرنسا على غيرها . فان الغدر الاستعمارى الذي أصاب الشام يخص فرنسا كذلك ويخصها مع بريطانيا.

وعلينا أن نرجع هنا الى ذلك الدور الذى لعبته دار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة مع شريف مكه وهو مايعرف باسم مراسلات السيرهنرى مكماهون مع الشريف حسين بن على . فقد كانت البداية فيما يصح تسمية دون مغالاة أو دعاية باسم الغدر . اذ أن بريطانيا قد تعهدت فى هذه المراسلات بالاعتراف باستقلال البلاد العربية وبقيام حكومة فيها وبمساعدتها

لهذه الحكومة وهو الأساس الذى بنى عليه الشريف حسين أمر إعلانه الثورة العربية على الاتراك وقيامه بتجنيد العرب ووضعهم فى خدمة الحلفاء . ويظهر الغدر واضحا فى إسراع بريطانيا إلى عقد إتفاقية مع فرنسا عمدت بها إلى تقسيم العالم العربى فيما بينهما إلى مناطق نفوذ لكل منهما ، سواء أكانت هذه المناطق تخضع لحكم مباشر أو لحكم غير مباشر . وتم التوقيع على هذه الاتفاقية المعروفة باسم اتفاقية سايكس بيكو منذ شهر أبريل سنة ١٩١٦ .

واذا كانت المادة الأولى من هذه الاتفاقية قد أظهرت إستعداد كل من فرنسا وبريطانيا للاعتراف بالدوله العربية المستقلة ، أو مجموعه الدول العربية التى ستقوم فى المنطقة تحت رئاسة أمير عربى ، واستعدادها لحماية هذه الدوله فان هاتين الدولتين قد حددتا لها داخلية سوريا (المنطقة ا) وداخلية العراق (المنطقة ب) . واحتفظت بريطانيا لنفسها فى منطقتها ، وكذلك فرنسا فى منطقتها الأخرى ، بالأولوية فى المشروعات والقروض المحلية ، بل وبانفراد كل منها فى منطقته بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب الذين سيخدمون فيها . وكان هذا التقسيم يتعارض تماما مع المبادىء التى وافقت بريطانيا عليها مع الشريف حسين .

أما المناطق القريبة من السواحل والتى يمكن للدول الاستعمارية أن تسيطر عليها بسهولة فقد احتفظت بها هاتان الدولتان الاستعماريتان لنفسها ، فاحتفظت فرنسا وأباحت لنفسها فى المنطقة الساحلية من سوريا ، كما إحتفظت بريطانيا لنفسها فى منطقة جنوب العراق حتى بغداد ، بحق إنشاء مانرغب فيه من حكومات سواء أكانت هذه المناطق خاضعة للحكم غير المباشر . وكان هذا التحديد فى الاتفاق على مصير هذه المناطق بعد الاتفاق مع الشريف

حسين على تسوية أمورها فيما بعد ، عاملا ثانيا من عوامل الغدر .

ولقد عدلت المادة الثالثة من مستقبل فلسطين اذ أنها نصت على انشاء ادارة دولية فيها ، يحدد شكلها بعد استشارة روسيا وبالانفاق مع بقية الحلفاء فقسمت الشام أو سوريا دون موافقه المفاوض العربى وبشكل يتعارض مع عهودهم ووعودهم له .

ولقد دعمت إتفاقية ساكس بيكو المصالح الاستعمارية البريطانية الفرنسية المشتركة فى سوريا . ونصت المادة الخامسة منها على بقاء ميناء الاسكندرونة ميناء حرا لتجارة الأمبراطورية البريطانية ، وذلك لفتح الطريق إلى داخل سوريا والى العراق . ووافقت بريطانيا فى نظير ذلك على أن تكون حيفا ميناء حرا لتجارة فرنسا ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها . واتفقت الدولتان الإستعماريتان على انشاء خط حديدي يصل بغداد بحلب ويمر بوادى الفرات . وكان هذا التعاون الاستعمارى تأكيدا للغدر بالشيخ العربى الذى اتفق فى مكة على وضع إمكانياته ورجاله فى خدمة حلفائه . وكانت فرنسا مستعدة للتساهل مع بريطانيا فاذا نشأت صعوبات فى شان سكة حديدية بريطانية من حيفا الى العراق ، فيمكن لهذا الخط أن يمر فى أراضى الاقليم الذى سيخضع لفرنسا قبل أن يصل الى المنطقة الداخلية فى العراق.

ولقد تعهدت بريطانيا بعدم الدخول فى مفاوضات مع دول أخرى للتنازل لها عن قبرص إلا بعد إستشارة الحكومة الفرنسية ، وتعهدت فرنسا بعدم إجراء مفاوضات للتنازل عن حقوقها لدولة أخرى . إلا للدولة العربية وإلا بعد أن توافق الحكومة البريطانية على ذلك .

واتفقت الحكومتان البريطانية والفرنسية ، فى المادة العاشرة ، على ألا تمتلكا أو تسمحا لدولة ثالثة بتملك أقاليم من شبه جزيرة العرب أو بانشاء قاعدة بحرية منها ، واتفقا على ذلك بصفتهما حاميتين للدولة العربية . واتفقا على استمرار المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين ، لتعيين الحدود معهما كما اتفقا على ضرورة إتخاذ الوسائل اللازمة لمراقبة ومنع وصول الأسلحة النارية الى البلاد العربية . والغدر الاستعمارى واضح فى كل هذه المواد من الاتفاقية .

ولقد رأت وزارة الخارجية البريطانية ، لاسباب مختلفة، إلا تطلع الحكومة الفرنسية على شروط اتفاقيتها مع الشريف حسين . وأخفت عنها تماما نبأ عقدها لمثل هذا الاتفاق ، وهذا النقص فى الصراحة جعل المفاوضات تقوم منذ البدء على أساس واه فاسد ، وأثار استياء عميقا عند الفرنسيين فيما بعد . وكانت العملية الاستعمارية كلها غدر ، فى مجموعها وفى جزئياتها .[١]

٣ — الحرب والصلح : .

مر الحلفاء بفترة من أخطر فترات تاريخهم فى الوقت الذى دارت فيه مراسلاتهم مع الشريف حسين بن على ، إذ كانت قواتهم فى موقف لاتحسد عليه فى الدردنيل ، وكانوا لايستطيعون تقدما من مصر صوب فلسطين وعمد الاعراب على مناوشتهم فى شبه جزيرة سيناء ، وكان السنوسيون قد توغلوا فى صحراء مصر الغربية واحتلوا الواحات وساء الحال فى السودان وفى جميع مناطق الشرق الأدنى ، وأوربا نفسها ، وجاء تعاون الشريف حسين مع الحلفاء كقدمة لتغيير الموقف ولمساعدة البريطانيين والحلفاء على الخروج من المأزق العصيب الذي كانوا فيه .

---

(١) أنظر جورج أنطونيوس : يقظة العرب ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد بيروت . دار العلم للملايين ١٩٦٢ — ص ٣٤٩ .

وجاء إعلان الثورة العربية فى الحجاز وخروج العرب زرافات ووحدانا ينشدون الحرب تحت قيادة أبناء الشريف ضربة شديدة لخطوط المواصلات العثمانية وللاستراتيجية الألمانية فى الشرق الأوسط . فوضح أنه من الصعب على الاتراك أن يسيطروا على البلاد العربية أو أن يمروا منها ويهددوا عدن. وكذلك الأمر بالنسبة لمصر ، فلم يكن من السهل على الاتراك أن يتقدموا هذه المرة للالتحام بالقوات المصرية الانجليزيه مادام جناحهم الأيسر معرضا لهجمات الحجازيين . وكانت هذه الضربة تشجع البريطانيين فى جنوب العراق على التقدم شمالا ، فى خط يتوازي مع خط هجوم الحجازيين ينشدون أعلى العراق ومنطقة الجزيرة .

كما أن إعلان الثورة من العرب وفى الأراضى المقدسة كان ضربة قويه من الناحية النفسية للسلطان العثمانى ، بصفته خليفة للمسلمين . وكان السلطان قد اعتمد على نفوذه الدينى لتكتيل العالم الاسلامى حول العالم العربى ، ولخلق المشكلات أمام الدول الاستعمارية ، سواء بريطانيا أو فرنسا أو الروسيا وفى مستعمراتها ، وفى المناطق الاسلامية التى تخضع لها فى وادي النيل وشمال أفريقية ووسط آسيا . وظهر بعد إعلان الثورة أن العرب بأنفسهم لايرغبون أبدا فى العيش تحت سلطة خليفة المسلمين . وكان على رأسهم عربى قريش شريف لايقل حقا عن العثمانيين فى تولى الخلافة . فظهرت الدولة العثمانية فى صورة المحتل الغاصب للبلاد العربية ، المتحكمة فيهم من الناحية السياسية والادارية المحتفظة بالخلافة على أساس القوة ، رغم وجود من يستحقها من بين العرب ، أكثر من الاتراك .

وأما من الناحية الاقتصادية فقد كانت الدولة العثمانية تمر بفترة عصيبه

فى تاريخها نظرا لضعفها وقلة إنتاج أبنائها وتخلف سكانهـــا ولسيطرة أساطيل الحلفاء على البحار وعلى سواحلهـا . ومع ازدياد اهتمام الدولة العثمانية بالتعبئة وتجميع قواها ووضعها فى خدمة الحرب قل التفاتها الى أي مشروعات إنشائية . وكان من الصعب عليها أن تقوم بمثل هذه المشروعات حتى فى وقت السلم مادامت خزانتها خاوية . وساعدت الطبيعة على اضعاف الدولة العثمانية فى هذه الفترة ، فرغم قلة مواد التموين والأقوات ، جاءتها هجمات الجراد لكى تقضى على البقية الباقية من الخضرة فى البـــلاد ، وخاصة فى الأقاليم السورية . وكان الجندي العثمانى يحارب فى ظروف صعبة ، فكانت تنقصه الملابس ووسائل النقل والامدادات ، ولكنه كان يتسلح بسـلاح الايمان ويعلم أنه يحارب ويجاهد من أجل الاسلام ، وكان يعتقـد أن تضحياته ونتيجة عملياته هى القضاء على الاستعمار وإخراج الدخلاء المسيحيين خارج أرض الاسلام . ولكن إعلان الثورة العربية جعله يفكر فى انقســام المسلمين ، ووضعه فى موقف لايحسد عليه ، وهو محاربة المسلمين العرب ، وباسم الاسلام . وهذه الناحية النفسية صعبة على كل محارب وكل مجـاهد وكان من نتيجتها إضعاف الروح المعنوية لمن وقفوا أمام قـــوات الاستعمار . وكان هذا العامل بالتالى كسبا كبيرا للحلفاء . . . المستعمرين

تقدمت القوات العربية من الحجاز شمالا بعد أن سيطرت على الموقف فيه ، وسهل عليها احتلال الوجه ، ثم دخلت العقبة . وأصبحت هذه النقطـة الأخيرة رباط الصلة أو القاعدة المشتركة للتعاون العربى ـ البريطانى ، ونقطة الالتقاء بين الاشراف فى الحجاز والبريطانيين فى مصر . وما أن دخلها الأمير فيصل حتى وجدها قد تحولت الى قاعدة حربية هامة ، وخاصة بعد أن أنشأ فيها البريطانيون المعسكرات ، وبنوا فيها المطارات ومخازن المهمات والإمدادات

كان الأسطول البريطانى راسيا فى مياهها داخل الخليج ، وكانت الطائرات البريطانية تحلق فى سمائها ، وخطوط التلغراف والهاتف تصلها بالقواعد البريطانية فى شبه جزيرة سيناء . ومنذ هذا الوقت أصبحت العمليات الحربية مكملة للعمليات البريطانية فى الشرق الأوسط ، بل أصبحت جزءا هاما من عمليات الحلفاء وسارت فى توافق تام معها. فلقد كان على قوات الامير فيصل أن تشكل الجناح الأيمن لقوات الجنرال اللنبى الزاحفة من مصر مع سواحل البحر الأبيض شمالا فى فلسطين ، وكان على هذه القوات أن تشغل الأتراك وتبعدهم من أمام البريطانيين وتفتح بذلك الطريق أمام الحلفاء . ولولاها لما تمكن البريطانيون من التوغل فى الأقاليم السورية .

دارت الحرب فى الشام بين قوات غير متكافئة : العثمانيون فى جانب والعرب والبريطانيون فى الجانب الآخر. وكان على العثمانيين أن يحاربوا كل من البريطانيين وقوات الأمير فيصل ، وكان عليهم أن يحاربوا فى أرض غريبة عنهم ، وبين أهالى صمموا على الثورة وعلى التحرر من العهد التركى وكانت ظروف امداداتهم وتموينهم صعبة وافتقروا الى الجمال ووسائل النقل اللازمة ، وكانوا يحاربون فى معركة خاسرة مادام العرب قد وقفوا ضدهم. وفى الجانب الآخر كانت القوات البريطانية مستريحة مزودة بوسائل النقل ومسلحة أحدث تسليح ، مع مايتبع ذلك من تموين وإمداد . ورغم ذلك فلم يصب البريطانيون نجاحا إلا بالقدر الذى تعاونت فيه معهم القوات العربية. وبعد دخول بيت المقدس احتفظ العرب بقوة كبيرة من الاتراك أمامهم فى شرقى الأردن ، شغلوها عند عمان ومعان ، وسمح ذلك للبريطانيين بالتوغل شمالا فى سوريا .

وإذا كانت قوات الحلفاء قد دخلت دمشق مع قوات العرب إلا أنهم

لم يدخلوها إلا بعد أن إتصل الأمير فيصل برجالها ، ورتب معهم أمر ثورتهم على الأتراك. فلقد دخل الحلفاء دمشق ، عاصمة الأمويين ، ليجدوا المظاهرات الشعبية تملأ الشوارع ، وأعلام الثورة العربية ترفرف على الشرفات والمنازل وصيحات العروبة تدوي بوحدة العرب وباستقلالهم. كان ترحيبا عربيا كريما بالحلفاء ، وسارت القوات البريطانية في نفس العرض العسكري مع قوات الأمير فيصل . وأنسى هذا الحماس المتأجج والشعور المتدفق العرب وجود إحدى الوحدات الفرنسية إلى جانب الوحدات البريطانية فى العرض العسكرى ، أو أنساها معنى وجودها .

ولقد واصل العرب عملياتهم بعد دمشق ، فكان عليهم أن يسيروا شمالا ويدفعوا الاتراك ويتعقبونهم خارج بلاد العرب. وعند حلب ، قام العرب بالعمليات الحربية بمفردهم ، ووقفوا عند هذه المدينة فى مواجهة صلب القوات التركية التى كان يقودها الضابط القدير والعنيد مصطفى كمال ، وتمكنوا من إجلاء قوات الاتراك . ذلك أن مصطفى كمال كان قد وجد نفسه فى موقف لايحسد عليه ، ووجد أن لامناص من التقهقر عن أرض العرب ، مادامو ا قد صمموا على الانفصال . وخرج الأتراك من سوريا تشيعهم اللعنات، وصمموا على نفض أيديهم من العرب ومن مشكلات العرب ، ماداموا قد تحالفوا مع المستعمرين .

وكان الأتراك مخلصين فى كفاحهم ضد الاستعمار وباسم الاسلام ، فى نفس الوقت الذي كان فيه العرب مخلصين فى كفاحهم ضد الحكم التركى ومن أجل الحريه والاستقلال. وكان جمال باشا قد أرسل نسخة من اتفاقية سيكس بيكو الى الأمير فيصل فى العقبة فى أول العمليات السورية بعد أن قامت الثورة

الشيوعية فى روسيا ، وقام البلاشفة بنشر هذه الاتفاقية التى وجدوهـــا فى الأرشيفات السرية فى بلادهم . وشرح جمال باشا للأمير فيصل خطورة الموقف وأظهر له بوضوح أن البريطانيين والفرنسيين لا يهدفون إلا فصل العرب عن الأتراك وهم مسلمون ، وتقسيم البقية الباقية من العالم العربى المستقل، وتوسيع نظامهم الاستعمارى من وسط آسيا وشمال أفريقية ووادى النيل حتى يطبق على منطقة الشرق الأوسط بأكملها ، وينهى حكم الاسلام ويقضى عليـه . وشرح جمال باشا أيضا لفيصل ضرورة التفات العرب والمسلمين حول الخلافة وتوحيد الجهود ووقف الاستعمار بل وإخراجـه من الأراضى العربيـــة والاسلامية التى تئن تحت وقع أقدامه ، وأظهر جمال باشا تسامحا ، من وجهة نظر الدولة ، حين عرض على فيصل نسيان الماضى والتوقيع على تحالف عربى تركى لتكتيل قوات العرب والمسلمين والنزول الى ميدان المعركة صفا واحدا مسلمين مجاهدين ، من أجل الوطن والاسلام ، وعرض عليه استعداد الدولة العثمانية للاعتراف باستقلال البلاد العربية ، وبضمان المانيا لهـذه القرارات ، واعترافها أيضا باستقلال العرب . ولا يمكننا هنا أن نشك فى إخلاص الأتراك أدنى شك .

ولم يتمكن فيصل من إتخاذ أى قرار فى هذا الموضوع الهام ، خاصة وأن الأمور بحلها وربطها كانت بين يدى والده فى الحجاز . فأرسل له هذه المراسلات دون تعليق . وتصرف الشيخ العربى تصرف كريم ، إذ أنه حول هـــذه المراسلات إلى دار المندوب السامى البريطانى فى القاهرة , وطلب منه تفسيراً ، دون أن يشك فى نيات حلفائه المحترمين . وجاء الرد البريطانى ماكراً مائعا . جاء بألفاظ مرنه ودون أن يقطع بوقوع هذه الاتفاقية التى تقسم العالم العربى أو توقيعها من جانب الحلفاء . وجاء بأسلوب يشتم منه أنها خدعة تسعى اليه

الوقيعة بين العرب وحلفائهم الغربيين ، واستمراراً لحكم ولتحكم العثمانيين في العرب بصفتهم مسلمين . وهنا أيضاً لا نتمكن من إتهام العرب بأنهم غير مخلصين ، ولكن إخلاصهم لحلفائهم كان كبيراً ومطلقا ، ودل هـــذا على ضحالتهم السياسية ، وعدم تمكنهم من فهم الألاعيب الاستعمارية والاطماع الغربية في البلاد العربية . فاذا تركنا الإخلاص جانبا ، تبقى لنا صلاحيـة القيادة العربية للنزول إلى ميدان المعركة أمراً يحتمل كل شك . ويحتمل كل نقد .

كانت الأطماع الإستعمارية الغربية واضحة وبخاصة في الأراضي السورية وكان رجال الجمعيات العربية ، جمعية الفتاة وجمعية العهد ، يعرفونها ويخشونها وكان من اللازم ألا يتناسى العرب خطر إنقسام المعسكر الإقليمي في الشرق الأدنى ، وبخاصة وأن جيرانهم الأتراك كانوا يشتركون معهم في رباط عميق أو في جملة روابط لا يمكن تجاهلها . فهناك الاسلام ولا مزيد عليه ، وهناك إلى جانبه خطر تعرض البلاد لنفس المصير الذى لقيه المسلمين في آسيا على أيدي القــوزاق ، والعرب في مصر وفي السودان عـلى أيدي البريطانيين ، وعرفها شمال إفريقية على أيدى الفرنسيين . ولكن الأتراك كانوا قد نزلوا المعركة باسم الاسلام ولتحرير المسلمين ، في الوقت الذي نزلها فيه العرب على أساس أن الدين لله والوطن للجميع ، وأن هذا المبدأ الذي يفرق بين المواطن وأخيه على أساس الدين . أو يوحد بين المسلم والمسيحى على أساس الأرض هو الذى قرر نتيجة المعركة .

وعلى أي حال فان انسحاب الأتراك من حلب ڪكان هـو بداية لنهاية الحرب ، إذ أن تركيا وافقت في اليوم التالى على هدنه مودروس ، وتبعاً

العالم السلم والصلح .

ومع الترتيبات اللازمة لتسويات الصلح إرتفعت نشوة الإنتصار فى البلاد الغربية ، وردد العرب صداها فى الشرق . وأصبح العرب لا يشكون فى إمكانية إعتراف العالم بحقوقهم الطبيعية من وحدة واستقلال .

وتهيأ فيصل للسفر إلى باريس حتى يشترك فى مؤتمر الصلح ، ويجلس إلى جانب كل من ساهم فى نصرة الحلفاء وهزيمة دول الوسط . فترك سوريا على ظهر إحدي البوارج البريطانية ووصل بها إلى فرنسا . وكانت فرنسا قد صممت على ضرورة تطبيق إتفاقية سايكس بيكو والحصول على سوريا . فرأت فى مجيىء هذا الأمير العربى مطالبا بالاعتراف بحريه بلاده واستقلالها إخراجا لها من المناطق التى تهيأت لاحتـــلالها ، وإمتداداً لنفوذ منافستها بريطانيا . فرفضت فرنسا الاعتراف به كممثل للدولة العربية أو للعرب ، كما رفضت استقباله بصفةرسمية كأمير لدولة الحجازالعربية ، دولة الملك حسين ، التى كانت قداعترفت بها . وأصرت على منعه من النزول فى فرنسا إلا بصفته الشخصية ، ومجرداً من كل صفة رسمية . وكانت هذه هى أول صدمة عملية تجابه الأمير فيصل وتشعره بحقيقة القوة الموجودة فى الميدان ، وموقفها منه ومن العرب .

ومع تشبث فرنسا ضد فيصل إضطر الأمير إلى الإلتجاء إلى بريطانيا ، وهى الدولة التى قطعت على نفسها العهود وأعطت الوعود للعرب بالاعتراف باستقلالهم وبضمان حريتهم ووحدتهم وتقدمهم ، فذهب فيصل إلى لندن ، وشعر هنالك بوحدته وغربته وبعجزه عن فهم السياسة والدبلوماسية وحملات الصحف، خاصةوأنه لم يكن متمكنا من اللغةالانجليزية ، ولا يفهم اللغات الأوربية.

وجد فيصل نفسه فى لندن محاطا برجال الإمبراطوريه البريطانية الذين عرفهم فى مدة الحرب فى الشرق العربى ، وكانوا مستعدين دائما لاعطائه النصائح ، وفى صالح الامبراطورية البريطانية . فأشاروا عليه بضرورة عدم الاصطدام مع فرنسا ، وبضرورة التفاهم مع الصهيونيين ، إذ أن هذا الخط كان هو خط السياسة البريطانية ، وخط سائر حلفاء البريطانيين ، ونصحوه بضرورة التفاهم مع الفرنسيين حتى لا تعرقل فرنسا المشروعات العربية ، ولا تستخدم القوة ضده ولا زالت قواته وإمكانياته ضعيفة .

ولقد وجد فيصل أن فى استطاعته أن يتفاهم مع الصهيونيين ، خاصة وإنهم قد أقنعوه بعدم وجود اى خطر من الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وبالعلاقات الوطيدة التى تربط بين العرب واليهود ، وبامكانياتهم المتفوقة لتأييد المطالب العربية فى الأوساط السياسية والدبلوماسية ، وللمساهمة فى مشروعات التقدم والاستقلال الاقتصادى فى البلاد العربية . ونتج عن هذا التفاهم اتفاقية عرجاء لا تستند الى سند قانونى ، بين فيصل والدكتور حاييم وايزمان ، سنناقشها عند التحدث عن فلسطين فى الباب الثالث . والمهم هنا هو أن فيصل قد نفذ رغائب البريطانيين رغم أنه قد وضع على هذه الإتفاقية شرطا يلغيها تماما فى حالة عدم إرضاء المطالب العربية :

وحينما ذهب فيصل الى فرساى لم يتعرض للهجرة اليهودية الى سوريا الجنوبية ، أي فلسطين الا بهذا القرار الذى يشتم منه أن اليهود هم أبناء أعمام العرب ، وأن الكرم العربى يحتم عدم إقفال الأبواب فى وجه اللاجئين المستجيرين . فما بالك بالمشردين والتائهين ؟

كان خطاب الأمير فيصل أمام مجلس الصلح خطابا هادئا رزينا ، وكأنه خطاب شيخ ينشر بعض المبادىء . ولا يؤمن الا بالانسانية . ويعتقد فى عدالة مطالبه ولا يري للأطماع الاستعمارية وجوداً . فأصر على ضرورة استقلال البلاد العربية ووحدتها وتعاونها مع الغرب للوصول الى مراتب التقدم والسير مع ركب المدنية ، ولكن هذه المبادىء التى تحدث عنها فيصل كانت ـ رغم جمالها وبساطتها ـ تتعارض تمـــام التعارض مع الأطماع الاستعمارية فى سوريا . ورغم تعلق الشعوب بالمبادىء التى نشرها الرئيس ويلسون ، والتى قررت حقوق الشعوب فى تقرير مصيرهـا . فقد ثبت أن المبادىء شىء . وأن تقريرها وتنفيذها هو شىء آخر . وأن هذا التنفيذ . أي التطبيق العلمى . يحتاج الى قوة . وقد أعوزت هذه القوة كل من العرب ومؤتمر الصلح .

٤ — المؤتمر السورى .

لم يشك العرب فى أى وقت من الأوقات فى عدالة مطالبهم اذ أنها كانت طبيعية علاوة على أن بريطانيا قد اعترفت بها وتعهدت بتنفيذها وبالمساعدة فى تشييدها . ولذلك فان العرب قد واصلوا ابتهاجهم باستقلالهم وأخذوا يحاولون تنظيم ادارتهم . وادارة شئون بلادهم وفى انتظار الاعتراف الرسمى بهذا الاستقلال وبتلك الوحدة وبمساعدة الحلفاء . والحصول على المركز القانونى الدولى الذى يستحقون . ولكن سرعان ما خابت آمالهم فى حلفائهم الذين عمدوا الى مواجهة المشكلة بطريقة استعمارية : ولتحقيق أطماعهم فى البلاد العربية دون التفات الى أي اعتبار آخر .

فلقد اجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو . وقرر وضع البلاد العربيه

فى ظل نظام الانتداب وتحت تحكم البريطانيين والفرنسيين ودون التفات الى مصالح أبناء البلاد .

ولا يمكننا أن نتناسى ذلك المجهود الذى قام به الرئيس ويلسون لدفع الدول الأوربية الى الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها . ولكن هذا المجهود كان . هو أيضا . مجهوداً نظريا دون أن يستند الى قوة لتنفيذه . ولقد أصر الرئيس ويلسون على ضرورة ارسال لجنة دولية للتحقيق الى البلاد العربية . لكى تتصرف على رأى الأهالى وتتعرف على رغباتهم . وأراد أن يستند الى نتائج هذا التحقيق لتقرير سياسة دولية تتمشى مع حقوق الشعوب ومبادىء الحرية . واقترح أن تتشكل اللجنة من مندوبين عن كل دولة من الدول الأربع العظمى . بريطانيا وفرنسا وايطاليا والولايات المتحدة الأمريكية وهنا جاء الفشل . اذ أن اتجاه الدول الأوربية الثلاث كان استعماريا واضحا . ورغم تنافسها فيما بينها . فانها لم تكن لتسمح للعرب بأى حق . خاصة اذا كان هذا الحق يتعارض مع الاطماع الاستعمارية .

وهكذا تطورت فكرة التعرف على رغبات العرب . متأثرة بعاملين : الأول هو عدم رغبة الأكثرية فى الالتفات الى مطالب العرب . والثانى هو عدم استناد فكرة الرئيس ويلسون الى قوة مادية لتنفيذها .

كانت فرنسا تخشى من أن تستند بريطانيا مع بقية الحلفاء الى رغبات العرب للبقاء بعيدا عن النفوذ الفرنسى لكى تخرجها من المناطق السورية ، فعارضت مشروع لجنة التحقيق ، وزاد من معارضتها موقف بريطانيا التى رأت أن فرنسا لم تقم بدور فعال فى الحرب فى البلاد العربية ، أو بدور يسمح لها بالحصول على منطقه لنفوذ كبيرة هناك . فلقد أظهرت بريطانيا

نيتها واضحة لعدم تطبيق اتفاقية سايكس بيكو بدعوى أن روسيا القيصرية —وهى إحدى الدول التى وقعت عليها — لم تنفذ تعهداتها . ثم أشارت على فرنسا بضرورة تغيير النظام الدولى المقترح لفلسطين إلى نظام بريطانى. مادام بلفور قد وعد اليهود بتسهيل انشاء وطن قومى لهم فى فلسطين ، وأما عن الموصل فهى منطقة لم يحتلها الحلفاء إلا بعد التوقيع على اتفاقية المدنة مع الاتراك فى مودروس ، وهى بعيدة عن السواحل السورية التى تهم فرنسا وليس لفرنسا فيها نفوذ دينى أو أدبى ، ومن الواجب ربط اقتصادها باقتصاد العراق . البريطانى ، بدلا من ربطها بالمنطقة السوريةالتى تهم فرنسا.

زاد هذا التنافس الاستعمارى البريطانى — الفرنسى فى المنطقة من خوف فرنسا من إرسال لجنة التحقيق الدولية الى البلاد العربية . فاشارت بضرورة ارسال هذه اللجنة لفلسطين والعراق أيضا ، حتى يعرف العالم ان كان العرب يفضلون البريطانيين على الفرنسيين ، أو يقبلون خضوع مناطقهم لادارة حكومة لندن .

أما بريطانيا فانها قدرفضت الاعتراف بوجهات النظر الفرنسية،واستندت الى ارتباطها بتعهدات مع العرب من ناحية ومع اليهود من ناحية ثانية ؛ كما استندت الى أن فرنسا لم تقم بدور فعال فى الحرب فى العالم العربى، وأصرت على موقفها . والمهم هو أن فرنسا لم تعين مندوبين عنها فى لجنة التحقيق وكذلك بريطانيا ، وأما ايطاليا فانها قد تأخرت فى تعيين مندوبيها . وأمام هذا الموقف سافرت اللجنة وهى لا تشتمل الا على المندوبين الامريكيين كينج و كراين . وأصبح عليها أن تدرس الموقف فى البلاد العربية ، وتعرف رغبات العرب وتعطى تقريرا عن مهمتها الى عصبة الامم .

شعر العرب بأن العالم الغربى يناقش فى الحقوق الطبيعية لأمتهم وبعد أن تعهد الغرب بالاعتراف باستقلالهم وبوحدتهم . وكانت دمشق تغلى فى ذلك الوقت . لقد كانت ممتلئة بالضباط وبزعماء العرب ومن كل المناطق ، فهناك رجال جمعية الفتاة والضباط جمعية العهد وهم الذين قادوا الثورة وقادوا العرب فى ثورتهم ومن أجل استقلالهم. ورغم احتفاظ البريطانيين بالادارة العسكرية فى كل من العراق وفلسطين ووجود بعض القوات الفرنسية على السواحل السورية فى لبنان ، فان ذلك لم يمنع العرب من اقامتهم لادارات مختلفة فى بقية المناطق لتسيير شئون البلاد .

أما فى المناطق الأخرى فان العرب كانوا يسائلون الاجانب عن ميعاد الجلاء وتسليم الادارات لأبناء البلاد . وكان رأيهم واحدا لا انفصال فيه ويتلخص فى استقلال البلاد العربية ووحدتها . ولكن الحديث عن الأطماع الفرنسية من جهة ، والاطماع البريطانية من جهة أخرى ، دفع بهم الى التمعن فى خريطة البلاد العربية ، وأظهر عاملا قديما طالما طلب العرب به فى ظل الاتراك : الا وهو ضرورة تطبيق النظام اللامركزى فى أقاليمهم ، أى تخفيف الروابط الموجودة بين الأقاليم وجعل علاقاتهم متوازية مع بعضها بدلا من تركها خيوطا تتجمع فى مركز واحد . وهى نقطة هامة ستعطى نتائجها الحاسمة بعد قليل .

اجتمع رجالات العرب فى المؤتمر السورى وضجت الشوارع بالصرخات مناديه بالوحدة والاستقلال . وقرر الزعماء أو القادة أمر سوريا بمفردها ، وان كانت بحدودها الطبيعية ، وأمر العراق بمفرده . لقد اتفق الزعماء على وحدة سوريا واستقلالها من ناحية ، وعلى وحدة العراق واستقلاله من ناحية

أخرى . وكان هذا نتيجة لانقسام جمعية العهد وتحت تأثير كل من العوامل الدولية والعوامل الاقليمية فى العالم العربى

قرر المؤتمر السورى انشاء حكومة ملكية دستورية فى الشام عاصمتها دمشق ورأسها فيصل ، تتولى أمر السوريين من رفح الى طوروس ، وباسم السوريين ، ما دامت حكومة دستورية مسئولة أمام ممثلى الشعب ، فلا فرق ولا فاصل بين سوريا الجنوبية ، فلسطين ، وبقية الشام . أما جبل لبنان فيمكنه أن يحتفظ باستقلال ذاتى ، ولكن فى نطاق الوحدة السورية فلأهل لبنان أن يديروا شئون منطقتهم كما كانوا فى العهد العثمانى ، ولكن عليهم أن يسيروا بسياستهم فى نطاق الوحدة السورية العربية ، ما دامت المملكة العربية تجمع بين المسلم والمسيحى فى نطاق العروبة . وتترك كل منهم يعتقد ويؤمن بالله كما يشاء . أى ما دامت الحكومة العربية تترك الدين الله وتقرر أن الوطن للجميع . فوجد هـذا العامل بين لبنان وبقية الأقاليم السورية بعد أن كان أساس فرقة بين أبناء الوطن الواحد فى ظل الادارة العثمانية . وجاء هـذا التحرر من جانب السوريين فى دمشق أكبر دليل على تسامحهم وصدق عروبتهم . بل حتى وعمق اسلامهم

لقد قرر المؤتمر السورى اعـــلان فيصل ملكا دستوريا للمملكة سوريا العربية . كما اجتمع رجالات العراق فى عاصمة الأمويين وأعلنوا قيام حكومة عربية للعراق . ملكية دستورية . وتنصيب الأمير عبد الله بن الحسين وأخا فيصل ملكا عليها .

وكان من الطبيعى أن يقتنع الغرب ودول الحلفاء العظمى بصدق هذه القرارات وبتوافقها مع رغبات الشعب العربى وفى حدود إمكانياته . ولكن الغرب كان قد صمم على تنفيذ سياسته هـــو واخضاع العالم العربى لحكمه

وتحكمه . واستغلال المنطقة بما لها من موارد وما عليها من قوى بشرية حسب رغائبه وفى صالح جيوب المستعمرين . بل يمكننا أن نرى تضامن الدول الغربية الاستعمارية فيما بينها ، وتكوينها لجبهة استعمارية ، تقضى على الخلافات وتسوى المشكلات ، وتستعد لاستخدام القوة .

وجاءت لجنة التحقيق الدولية الى سوريا لكى تجدها شعلة من الحماس والرغبة فى التضحية ومن أجل المبادىء التى ثاروا لها وحملوا السلاح وحاربوا وانتصروا من أجلها . وطافت لجنة التحقيق جميع أرجاء سوريا وعدداً كبيراً من مدنها وقراها ، ووصلت إلى فلسطين ، واستمعت الى رجال المؤتمر السورى والى الزعماء والقادة وأبناء الشعب ثم كتبت تقريرها ورفعت صورة منه إلى عصبة الأمم ، وقدمت الصورة الأخرى لحكومة الولايات المتحدة الامريكية .

ولقد نص هـذا التقرير على تمسك العرب بوحدتهم واستقلالهم ، فليس هناك ما يسمى سوريا وما يسمى بفلسطين ، بل هناك الدولة السورية من رفح الى طوروس . هذا عن الوحـــدة ، أما عن الاستقلال فهناك حكومة ملكية دستورية ، وطنية تمثيليه ، تدين بالمبادىء الغربية فى فصل السلطات وتعلن مبادىء الحرية ومساواة الجميع أمام القانون .

أما مسألة انشاء وطن قومى لليهود فى منطقة فلسطين ، فان العرب كانوا قد شعروا بخطر هذا على بلادهم وعلى مستقبلهم ولم يكن لهم دخل فى تبرع بريطانيا بمنح اليهود أرضا يقيمون عليها ولكنهم عارضوا فى أن تكون هذه الأرض هى أرضهم ومورد رزق أبنائهم . ولم تكن المسألة مجرد كرم فى الضيافة ما دامت اللجنة الصهيونية قد أظهرت من الاطماع فى فلسطين ما يثبت أنها لا ترضى بأقل من اقامة دولة يهودية فى هـذا الجزء الهام من

سوريا ، وأنها تحاول تسيير البريطانيين ، واجبارهم على خدمتها لتهيئة الجو اللازم لهـا لانتزاع الارض من العرب ولا عادة إنشاء مملكة سليمان . ولذلك فالمؤتمر السورى لم يعترف بوعد بلفور ، ورفض كمجلس تأسيسى الاعتراف بالاتفاقية التى وقعها فيصل مـع وايزمان ، وإنتهت هذه النقطة بوحدة سوريا بأكملها ، ودون الاعتراف بأى حق دولى للصهيونيين ، وهو ماشرحه العرب للجنة التحقيق .

بقيت مسألة رابعة مرتبطة بالانتداب وهى مسألة المعونات الفنيه والاقتصادية التى إشترطت بريطانيا على العرب ألا يقبلوها فى بلادهم من سواها . والتى اتفقت عليها مـع فرنسا على أن تكون فرنسية فى منطقة النفوذ الفرنسى . لقد قبل العرب هذه المعونة على أساس أن تكون بريطانية فى كل من مملكتى العراق وسوريا ، وعلى أساس الا تتعارض مع مبادىء الوحدة والاستقلال . ولكنهم رفضوا اي معونة فنية أو اقتصادية من جانب فرنسا فى سوريا . واذا كان من الصعب على بريطانيا أن تقدم هذه المعونات إلى سوريا ، علاوة على معوناتها للعراق ، فان العرب قـد وافقوا على أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بتقديم هذه المعونة لسوريا . ونظروا إلى الولايات المتحدة على أنها دولة غنية وليست لها اطماع استعمارية ، سياسية على الأقــل ، فى المنطقة . ولكنهم أصروا على رفضهم كل معونة فرنسية واشترطوا خضوع هـذه لمبدأ الوحدة والاستقلال . وبعدم تعارضها مع هذين المبدئين . ولكن سرعان ما نفضت الولايات المتحدة الامريكية يديها من مشكلات العالم القديم ، ولم تكن مبادىء حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها إلا مثلا عليا ألقيت فى الجو لضمان تأييد البسطاء المخلصين لقضية الحلفاء ، أى أنها كانت جزءاً من استراتيجية الحلفاء . وعاد ولسون إلى بلاده لكى يجد أعضاء الكونجرس

يطالبون بضرورة الاستمرار فى تطبيق مبدأ منرو . فأبعد العامل الامريكى من المشكلة . وكذلك إنتاب إيطاليا شعور بأن فرنسا و بريطانيا قد اقتسمت الغنائم فيما بينها ، فانتابها نوع من التسامى ، وأعلنت أنها إحتفظت بأيديها نظيفة . وبقى على فرنسا وبريطانيا أن يقررا الامر فيما بينها ، مستندين فى ذلك إلى قواتهم المـــادية وتنظيمها وامكانياتها ، لكى يفرضوا على من حالفهم فى فترة الحرب وشارك الى جوارهم فى ميدان العمليات ، وفى معركة الحرية ، يفرضون عليه الذل والهوان ، بالقوة الغاشمة وبرصاص البنادق وقنابل الطائرات ، وباسم إدخال المدنية والحضارة ، وتحت ستار قرارات عصبة الأمم والمجتمع الدولى .

كانت المعركة غير متكافئة ، وسخر العالم الغربى بالمبادىء التى صرح بهـا وأعلنها على الجميع . وتأهب الاستعمار ورتب قواته وظهر على حقيقته . الحق للقوة ، وعلى المبادىء أن تشكل نفسها وتضع امكانياتها فى خدمة هذه القوة حتى وإن كانت استعمارية . وتحولت المسألة الى معركة صريحة بين الدول الغربية ، دول الحلفاء ، وبين من تحالف معهم فى الأمس .

(٥) الاحتلال .

يمكننا أن نقول بشكل عام أن إزدياد الخطر الفرنسى على سوريا كان قد ألقى بزعماء الحركة الوطنية إلى جانب بريطانيا دون أن يقدروا الروابط التى تجمع بين الدول الغربية وبين حركة الاستعمار وبين رجال الاستغلال الاقتصادى للشعوب فيما وراء البحار . إعتقد العرب أنه يمكنهم بالتفاهم مـع بريطانيا أن يبعدوا الخطر الفرنسى . وكانوا يعتقدون علاوه على ذلك فى « الشرف البريطانى » وفى اعتدال اخلاق البريطانيين وسموها . وكان هذا هو الخط الذى سار عليه فيصل ، وهو التلويح أمام بريطانيا بخطر التوسع ...

الفرنسى فى سوريا عليها حتى يحصل منها على التأييد والمعونة . وذهب فيصل الى اوربا لكى يعرض « قضية » بلادة . ولم يكن الأمر بالقضية ، إذ كان حقاً واضحاً ، والحرية تنتزع ولا تمنح . فقد كان رجال الاستعمار أنفسهم يعلمون أن من حق الشعوب أن تصل الى استقلالها وأن تحقق أمانيها القومية . ولكن المسألة كانت مسألة مصالح واستغلال رأسمالى وسيطره على نقط وقواعد عسكرية ، وتسخير الشعوب الأخري فى خدمة الامبراطوريات الاستعمارية . ومهما ذكرنا من أهمية الدعاية فلم يكن على فيصل أن يغير التكوين العقلى لقادة الاستعمار فى أوربا . بل كان من المنطق عليه وعلى رجاله بعد أن اعلنوا ثورتهم وحملوا السلاح وصوبوه الى الأتراك أن يواصلوا الاحتفاظ بنفس السلاح ، ويواصلوا نفس المعركة ، أمام المستعمرين الاجانب ، حتى يصلوا الى ما قرروا الوصول إليه ، وخاصة بعد أن ظهر حنث الحلفاء بوعودهم وتراجعهم فى وعودهم . فلم يكن أمام العرب إلا الجهاد دون تراجع . ولكن هذا لم يقع .

وعاد فيصل مرة ثانية الى اوربا وشرح « قضية بلاده » وحاول الاستعطاف والتفاهم ، وكان موقفه يحمل ـ رغم عزته ـ معنى التوسل ، وهى لغة لايفهمها الاستعمار ، وخاصة وأنهم يعلمون أنها معركة . وأن فى استطاعتهم كسبها بالحديد والنار .

واضطر فيصل الى التفاهم مع فرنسا ، فيمكنها أن تعترف باستقلال سوريا فى نظير ترك فيصل لها على السواحل السورية ، ويمكنه أن يستعين بها فى الخبره الفنية والاقتصادية ، وفى نظير اعترافها باستقلال العرب فى الداخل تحت رئاسته وفى ظل تاج ملكه ، وكان قد رأى التقارب بين

بريطانيا وفرنسا وموافقة حكومة باريس على الخط البريطانية القاضية بتحويل الادارة الدولية فى سوريا الجنوبية الى ادارة بريطانية مباشرة، تسهل إنشاء الوطن القومى لليهود، ورأي التفاهم بين لويد جورج وكليمانصو لترك ولاية الموصل تضم الى منطقة النفوذ البريطانى فى العراق نظير احتفاظ فرنسا بـ٢٥٪ من بترول هـــذه الولاية، وهى الحصة التى كانت لألمانيا فى نفط العراق. رأي فيصل كل ذلك وحاول الاستعانة بالبريطانيين على الاطماع الاستعمارية الفرنسية فى سوريا، وأشار عليه البريطانيون بضرورة الاتفاق مع فرنسا، وإتفق فيصل ونفذ بهذا أمنية حلفائه وهم مرتبطين بالاستعماريين الفرنسيين أكثر من ارتباطهم بالعرب.

وحاول فيصل أن يدخل الولايات المتحدة الامريكية فى الموضوع ،أى أنه حاول بمعنى آخر عرض المسألة على بساط البحث أمام الدول العظمى. ولكن الولايات المتحدة كانت قد ولت وجهها شطر الغرب، مشكلات الشرق ورغم كل ذلك فقد احتفظ فيصل بفكرة دعوة مؤتمر دولى لبحث القضية العربية.

عاد فيصل الى سوريا لكى يجدها على آخر من الجمر، والمظاهرات فى الشوارع ورجالات العرب فى كل مكان يتباحثون ويتساءلون ويقلبون الامر على أوجهه. ولم يجد فيصل من الشجاعة ما يسمح له بابلاغ الشعب السورى بالاتفاقات التى إتفق عليها مع كليمانصو. فلم يعلم بها الا بعض خاصته، وظل الشعب يشك فى أن هناك شيئا فى الجو، شيء غير واضح، ولكنه يخيم على مستقبل العرب الصناديد. وتحمل فيصل بذلك مسئولية أمام التاريخ ورغم كونه ملكا دستوريا، وحل نفسه ذلك العبء دون أن يشرك معه

الشعب فى مسئولية حملة ، أو فى إقرار رفضه ، مع ما يترتب عليه من نتائج وكان هذا الموقف يعتبر التصرف الثانى ، بعد اتفاقه مع وايزمان لإدخال اليهود إلى فلسطين ، والذى يدل على أنه كان لايؤمن بأن السلطات الدستورية تستمد من الشعوب .

وأثبت التاريخ عدم جدوي محاولات فيصل ، اذ أن الغرب كان متضامنا، على أساس مصالحه ، ومستعداً لاستخدام القوة ، وفى كل الميادين . فاجتمع مجلس الحلفاء الأعلى فى سان ريمو وقرر تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ وعهد بمنطقتى سوريا ولبنان الحاليتين الى فرنسا طبقا للمادة ٢٢ من معاهدة فرساى ، وعلى أساس أنها بلاد متخلفة ولكنها ليست همجية ، فيمكنها أن تصل الى الاستقلال بعد مرحلة من الحجر الدولى أو الوصاية أو الانتداب ، باسم عصبة الأمم ، وتنتدب لها العصبة احدي الدول العظمى للوصول بها الى هذه النتيجة ، أى الى مرحلة الاستقلال والقدرة على تصريف شئونها بنفسها . فارتفعت درجة الغليان فى دماء العرب وتتالت مظاهراتهم وتوالت صيحاتهم واحتجاجاتهم. كانوا مصممين ـ أشد التصميم ـ على رفض قرارات المجلس الاعلى للحلفاء ، وكان فى إستطاعة فيصل أن يستند الى هذا الشعور الوطنى والى هذا الانصهار القومى العربى ويبدأ عملية تنظيمه وينزل به الى ميدان المعركة . ولكن فيصل كان لا يزال يعتقد فى إمكانية تدخل بريطانيا أو الولايات المتحدة الامريكية أو مجموع الدول الغربية فى المشكلة وايقافهم للاطماع الفرنسية عند حدها . وحاول السفر إلى اوربا مرة ثالثة ولكن رجالات العرب قرروا ضرورة بقائه مع رجاله فى الميدان ، فهو ملك دستوري وعليه أن يتصرف وفقاً لرغبات الشعب أو لقرارات ممثليه . وبقى فيصل فى سوريا وظهر إختلافا واضحا بينه وبين معظم القادة إلى جواره ،

فلقد كان يؤمن بامكانية التفاهم مع الغـرب وكانوا يرون ضرورة حمـاية الاستقلال والوحدة بأسنة الرماح . بل وبدمائهم الغالية. وكان هذا انفصالا واضحا بين موقف فيصل وموقف القاعدة الشعبية أو الوطنية فى سـوريا . وبقى فيصل فى الميدان ، ولكن طريقته كانت تختلف فى أسسها عن طريقة الوطنيين المجاهدين . فلقد تحول إلى سياسى . وهو لا يصلح للقيـام بدور الديبلوماسى . وكانوا هم من المكافحين المجاهدين . وهذا الاختلاف الواضح سيعطى نتائجه على المعركه .

ولقد حاول بعض السوريين فى هذا الوقت العصيب أن يخرجوا فيصل من سوريا ، ويتولوا أنفسهم أمر الجهاد ، ولكنه قرر أمامهم أنه دخل هـذه البلاد فاتحاً ، وأنه لن يخرج منها إلا بالقوة « فاذا كانت لديكم القوة الكافية لاخراجى فافعلوا ، ودمى ودماؤكم فى الشارع » . وكان هذا القرار يعنى الاصطدام بين العرب أنفسهم ، وبين المجاهدين وقيادتهم ، والعـــدو على الأبواب .

بقى فيصل فى الميدان وعلى رأس حكومة ضعيفة ، أعمالهـــا متناقضة وقراراتها متضاربة وتحاول إنشاء شىء من لا شىء ، وبوسائلها هى ، وقد صممت على تناسى القوة الشعبية أو إجبار هذه القوة على اتباع طريقها وخط سيرها . وأمام ضعف الحكومة كان الوعى العربى فى أعلى مراتبه والحمـاس الوطنى لا يطلب إلا التضحية والبذل .

كان من الطبيعى أن يصل الأمر ، عاجلا أو آجلا ، إلى اصطدام بين القوة الوطنية الحقيقية وبين الاستعمار الفرنسى المرابط على السواحل السورية فى لبنان . فما هى القوى فى كل معسكر ؟ وما هى مسئولية القيـادة الموجودة

على رأس المعسكر الوطنى ؟ مادام الشعب مستعد لكى يموت من أجل الحياة .

كانت قوات الأمير فيصل عبارة عن قوات من المتطوعين الذين انضموا إلى الحركة العربية منذ إعلان الثورة ، وساروا بقيادة فيصل حتى دمشق ، كانوا جنوداً أكثر منهم مواطنين عرب ، أما قادتهم فكانوا من الشبان المتحمسين الذين يشتغلون بالسياسة مثل اشتغالهم بفنون الحرب ، إن لم يكن أكثر ، وكانت طبيعة تكوينهم تختلف من فرد إلى آخر تبعا لتجاربه ودراسته واستعداده . وكان فى استطاعة هـذه القوات أن تحارب ما دامت الذخائر تصل إليها ، مع الرواتب . وكان كل ذلك يصل عن طريق بريطانيا . واحتفظت بريطانيا بهذه القوات فى حالة تسمح لهـا بالسيطرة عليها فكانت مسلحة بالبنادق فى الوقت الذى يحتفظ به البريطانيون بالمصفحات والمدفعية والطيران والألغام ، وكانت قوات من المشاة ولا يمكنها أن تنزل المعركة إلا إذا قررت قيادتها ضرورة تعضيدها بالقوة الوطنية الشعبية ، وهى وحدها الكفيلة بوقف الحركة الاستعمارية أو تحرير البلاد .

أما فى الجانب الآخر فاننا نرى أن القوات الفرنسية كانت كبيرة العدد ، منظمة ومدربة ، ولها خبرة كبيرة اكتسبتها فى الحرب العالمية الأولى ، وأمام الألمان . فهناك رجال الفرقة الأجنبية ، وهناك القناصة الجزائريين ويمكنا أن نضيف إليهم سود السنغال ، ثمانون ألفا غيرت الحرب العالميـة نفسيتهم من آدميين إلى وحوش ينزلون الى ميدان المعركة أو الى الشوارع عند صدور الأوامر ، ويطهرونها تماما من كل كائن متحرك . ويضاف الى ذلك المدفعية والمصفحات والطيران . وكان من السهل تدارك عدم تكافىء القوة فى حالة إعلان الحـــرب على فرنسا ، وقرار التعبئة العامة ووضع كل عربى أمام مسئولياته . ولكن شيئا من هذا لم يحدث .

وكانت المناوشات والاشتباكات مستمرة بين جماعات العرب غير النظامية وبين القوات الاستعمارية الفرنسية فى لبنان ، كما كانت مستمرة كذلك ضد الادارة البريطانية فى منطقة دير الزور . وبدأت المشكلة حين قرر الفرنسيون وضع حد لهذه الاشتباكات ، والسيطرة على كل سوريا ، والقضاء على الحكومة العربية فيها . وحدث ذلك فى أوائل شهر يونيو سنة ١٩٢٠ حين أبلغ فيصل القائد العام الفرنسى فى المشرق بأنه ينوى السفر إلى فرنسا للتفاهم مع حكومة باريس فى شأن العلاقات المقبلة بين البلدين . وكانت بريطانيا قد لعبت فى الأمر لعبتها ، فأبلغت كل من فيصل والفرنسيين أمر انسحابها من داخل سوريا والى فلسطين ، فأصبحت القوة العربية وحدها فى مواجهة القوة الفرنسية . وكانت المشكلات قد بلغت مرحلة خطيرة بين البريطانيين والعرب العراقيين فى منطقة الجزيرة ، فقررت بريطانيا ترك العرب وحدهم فى الميدان . وكانت الدلائل تدل على قرب مهاجمة عبد العزيز آل سعود للملك حسين فى الحجاز ، فأصبح المعسكر الهاشمى ينتظر هبوب العاصفة ومن كل مكان . وفى ذلك الوقت قررت بريطانيا منع المعونة الفنية والاقتصادية عن فيصل ورجاله فى سوريا ، بدعوى أنهم خارج منطقة النفوذ البريطانى . ثم وجاء رد القائد العام الفرنسى إلى فيصل بضرورة تأجيل سفره لبضعة أيام إذ أن مراسلات هامة ستصل له من باريس .

ووصلت هذه المراسلات الى القائد الفرنسى الجنرال غورو الفاره القامة العريض المنكبين ذى اللحية الكثيفة ، الذى تمرن فى المغرب العربى مع ليوتى على عجم عود العرب ، وجاءت به فرنسا الى المشرق لايجاد مجال حيوي لنشاطه بعد أن قرر ليوتى أن السياسة تكفى دون الرماح للسيطرة على المغرب وحول غورو هذه المراسلة الى فيصل فى يوم ١٤ يوليو ، عيد الحرية عند

الفرنسيين . وكانت عبارة عن انذار صريح لا يقبل الرد ولا مد المهلة ولا يطلب إلا الطاعة والتسليم والتنفيذ . وإذا نفـذ فهو الاحتلال ، وإذا رفض فهى المعركه . طلب الانذار من فيصل تسليم مواصلة السكة الحديدية فى حلب وتسريح الجيش السورى ونزع سلاحه واستخدام العملة الفرنسية فى كل سوريا وكبت كل حركه تناهض النفوذ الفرنسى أو تحاول نقده وتجريحه وفى ظرف عدة أيام ، وان لم تجب هذه المطالب ، مع السماح للقوات الفرنسية باحتلال النقط والمواقع اللازمة لضمان أمنها ، فستتقدم القوات الفرنسـية ، ولقد أعذر من أنذر .

كان هذا الإنذار صدمة قوية لفيصل ، كما كان صدمة عنيفة لكل من كان يعتقدم فى إمكانية التفاهم مع قوي الاستعمار الغاشم . ومن طبيعة الصدمات أن تهز الموقف هزاً فيؤثر ذلك على العناصر الموجودة فيه ، فتتجمع الحبوب الثقيلة فى جانب والقشور فى جانب آخر من المنخل . وهذا هو ما حدث فى سوريا .

ولقد ساد رجال سوريا اتجاهان كانا يختلفان فى وسائلهما وفى نظرتهما إلى الاستقلال ونظرتهما الى الكفاح . الاتجاه الأول يحاول استخدام السياسة والتظاهر بارضاء الرغبات الفرنسية حتى يمنع فرنسا من الهجـوم على المنطقة الداخلية من سوريا ، منطقة دمشق ، التى يمكن أن يبقوا حكومتهم العربية فيها ويتخذونها نواة للتنظيم والكفاح من جديد . وكان فيصـل على رأس هذا الاتجاه خاصة وأنه كان يعلم ضعف قواته العسكرية الموجودة أمام القـوات الفرنسية وكان لا يؤمن بتوزيع الأسـلحة على الرجال فى الشوارع ولا على رجال العشائر والقبائل ، مما يصعب عليه حكمهم فى المستقبل . ولاشك

أنه كان يفكر فى طلب المعونة من أصدقائه البريطانيين فى الجنوب ، فى فلسطين مادام امتداد الحكم الفرنسى يعتبر منافسا قويا للنفوذ البريطانى فى المنطقة . أما الاتجاه الثانى فكان أكثر صراحة وبساطة وأعمق ايمانا ، وكان يتلخص فى ضرورة رفض الإنذار الفرنسى ، وإعلان الحرب على فرنسا وإعلان التعبئة العامة وتكتيل القوى الشعبية الوطنية والقيام بحركه جهاد عامة ومن أجل نفس المبادىء التى قامت من أجلهـــا ثورة العرب . فلا جدال ولا نقاش ولا مفاوضة ولا مساومة ، وإن يكن هناك تحالف فعلى الغرب أن يعترف بحق العرب فى الوحدة والاستقلال ، وإن كانت القوي ضعيفة ، فليعرف الأبناء أن آباءهم قد ضحوا بأنفسهم فى سبيل مبادئهم ، وأن عليهم أن يحملوا الراية ويواصلوا الكفاح . وكان على رأس هذه المعركة أو هذا الاتجاه شاب عربى آخر هو يوسف العظمة وزير العربية السورية .

الكل شبان والكل عرب والكل وطنى ومجاهد ، ولكن البعض كان قد ترك السلاح جانبا واعتز بنسبة وعقد الأهمية للعروش والتيجان وأصبحت له مصالح ، وتطور من مجاهد عربى على رأس رجاله الى مفاوض فسياسى وملك . أما الآخر فقد كان جنديا ، وظل جنديا ، ورأي أن المعركه كانت مستمرة فصعب عليه الانسحاب من الميدان . ما دام واجبه يحتم عليه البقاء .

التف حول كل من فيصل ويوسف العظمة بعض الرجال . فشاهدت دمشق انقساما واضحا فى القيادة . وفى وقت عصيب . وفكر بعض رجالات العرب فى استبدال الملكية الدستورية بدكتاتورية عسكرية . يصبح فيها يوسف العظمة مسئولا عن مصائر البلاد . مع تزويده بكل السلطات ، وتكليفه بالدفاع عن البلاد . ولكن الفوضى ضربت أطنابها بين صفوف الوزراء . وعين

فيصل أخاه . الشريف زيد . قائداً عاماً . وكان هناك اتجاه لسيطرة الهاشميين وتدعيم نفوذهم على القوات المسلحة بدلا من تركها تحت النفوذ الوطنى السورى. وتقمص فيصل شخصية المجاهد العربى من جديد . ودخل الى الثكنات وألقى الخطب فى الجنود . ويقول أسعد داغر فى مذكراته «على هامش القضية العربية» . أنه لايذكر سماعه أو قراءته لما هو أبلغ منها وأشد وقعا . « ولعل المحيط الذى ألقيت فيه ضاعف تأثيرها فى نفسى التى كانت حينئذ مستعدة للتأثر بكل مظاهر الحماسة . ولكن ذلك وحده لايعلل تأثيرها العظيم فى نفوس الجنود . وهـذا ما حملنى على الاعتقاد بأن الملك فيصل كان حتى تلك الساعة عازما على الموت على رأس الوطنيين فى سبيل الدفاع عن البلاد . وان ما قاله فى خطبته كان صادرا من أعماق قلبه فبلغ الى أعماق قلوب السامعين » [1] .

وجمع الملك أعيان دمشق وألقى عليهم خطبة حماسية وكلفهم بالمحافظة على الأمن . وخاصة وقت انهماك الجيش فى الدفاع عن البلاد وجعلهم مسئولين عن كل حادثة تقع . ثم جمع الملك بعد ذلك المجلس الحربى لتقرير الإمكانيات ولاتخاذ الوسائل اللازمة . وشرح يس الهاشمى فى هـذا المجلس حالة الجيش من الناحية الفنية العسكرية وأشـار الى عدم توفر الذخائر . ولاسيما قنابل المدفعية . وذكر أن الاعتماد عليه وحده لايسمح الا بالمقاومة لبضعة أيام فقط وقل بين الحاضرين من آمن بأن الأمة يمكنها أن تعتمد على نفسها علاوة على اعتمادها على الله وعلى الجيش . وعلى أى حال فقد استند فيصل الى تصريح

(١) أسعد داغر : مذكراتى على هامش القضية العربية . القاهرة . دار القاهرة للطباعة . ص ١٣٦ — ١٣٧ .

يس الهاشمى لكى يصر على رأيه بضرورة التروى قبل اعلان الحرب على فرنسا .

ثم اجتمع مجلس الوزراء . وظهر فيه الانقسام واضحا بين من يقبل الإنذار ويحاول انتهاج سياسة التفاهم للمفاوضة على أساسه . وبين من قرر رفض الانذار وخوض غمار الحرب الى النهاية . أى بين الملك فيصل الذى رأس الاجتماع وأنصاره من ناحية وبين يوسف العظمة الذى أصر على موقفه من ناحية أخرى . وكانت الأغلبيــة تحترم فيصل وتحاول الاحتفاظ به . فوقفت الى جانبه . خاصة وأنه ملك البلاد. ووجد يوسف العظمة أنه يكون الأقلية رغم أصالة رأيه وبساطته . فقرر الاستقالة بدلا من أن يقبل الانذار .

وكانت استقالة يوسف العظمة تعنى أن العرب السوريين قد أصبحوا فى جانب ، وأن الحكومة الفيصلية الهاشميــة فى جانب آخر ، وكان فى هذا إحراج لرأس الدولة ولحكومتها ، وفى وقت عصيب . بل كان هذا الموقف يهدد بتعريض البــلاد لخطر الثــورة . وقال فيصل أنها ستكون الفوضى ، وكلف وزير حربيته بالتضحية بشخصه وبالموافقة على رأي الأغلبية فى مجلس الوزراء حتى يخرج الحكومة من هذا المأزق . وكان يوسف العظمة شعلة من نار ومن الوفاء ، فتراجع فى أمر استقالته ، وبقى مسئولا عن الحربية السورية .

ثم أرسل فيصل الأمير عادل أرسـلان إلى فلسطين لمعرفة موقف البريطانيين من الهجوم الفرنسى ، والامدادات التى يمكن لبريطانيا أن تمد بها أبناء سوريا .

ثم دعى المؤتمر السورى ، وكانت له صفة جمعية تأسيسية ، إلى الاجتماع فى قصره الملكى ، واعتقد البعض أنها كانت دعوة لتأييد قرار إعلان الحرب

على فرنسا ، وكانت فى حقيقة الأمر تهدف حمل المؤتمر على تأييد قرار الحكومة . وبدأ فيصل فى وصف الحالة العامة بشكل يدعو إلى اليأس ، وأبلغهم أن المجلس الحربى والوزارة قد قررتا على التوالى قبول الانذار . وكانت صدمة للجميع ، وأسرع رجال الادارة بابلاغها إلى الأقاليم وإلى منطقة حلب حتى لاتقاوم الفرنسيين ، وصدرت الأوامر بتسريح الجيش العربى ، واتخذت كل هذه القرارات فى جو من العصبية ، وفى إطار من اليأس . ووصلت هذه الأوامر إلى الجيوش فى ثكناتها دون تحديد لشروطها أو النص على طريقة تطبيقها ، فانفجرت العواطف وخرج الجنود من ثكناتهم يحملون أسلحتهم ، ونزلوا إلى الشوارع ، بعضهم ينادى بالجهاد والبعض ينادى بالثورة . فانتشرت الفوضى فى كل مكان ، وأصبحت سوريا فى حقيقة الأمر بدون حكومة . وخرج الأهالى فى مظاهرات صاخبة ودوت طلقات الرصاص فى الهواء إنها الثورة ، ولكنها كانت غير منظمة ، وبدون أية قيادة .

كان فى استطاعة رجل واحد أن ينظم هذه الثورة ويضعها فى خدمة وطنه وأن يقف أمامهم ويشير باصبعه فى اتجاه الفرنسيين ، ويذكر لهم أن واجبهم يقضى عليهم بأن يدافعوا عن استقلالهم وكرامتهم وبلادهم . ولكن أحداً لم يقف هذا الموقف ، وساد الاعتقاد بأن الحكومة ترغب فى تسليم البلاد للفرنسيين دون أية مقاومة . وصرخ الثانى بأن هناك مؤامرة . ونادي الثالث بضرورة تغيير الحكومة . وهتف الرابع بسقوطها . وصدرت الأوامر من الحكومة إلى رجال الشرطة بتفريق المظاهرات وإخلاء الشوارع ، ونزلت قوات البوليس لكى تؤدى واجبها . وكان موقفا ذليلا بائسا . أجبرت فيه الحكومة رجال شرطتها على اطلاق النار على الوطنيين . وسقط ثلاثمائة قتيل من الطرفين وبرصاص العرب دون الاقتصاد فيه لاستقبال المستعمرين

الفرنسيين . وقوات الاحتلال الأجنبيـة . وتلطخ علم الثورة العربية ذى الألوان الأربع بدماء الشهداء . وبرصاص العرب أنفسهم .

أبلغ الملك فيصل الفرنسيين بأنه قد قبل الانذار وسرح الجيش وأنه مستعد لارضاء فرنسا . وأن حكومته لا تزال قائمة تسيطر على الموقف فى دمشق . وترغب فى التفاهم مع القيادة الفرنسـية حول العلاقات المقبـلة بين الطرفين

وكان ردا ضعيفا ذليلا لايدفع أحد الى احترامهواحترام من كتبه. وكان هذا هو موقف الجنرال غورو . الذى أصدر أمره الى قواته بالتقدم صوب دمشق ، وكأنه لم يستمع الى أى صوت يأتيه من دمشق ، وادعى فيما بعد أن رد فيصل قد تأخر فى الوصول اليه ، زيادة فى الامتهان وعـدم احترام من لايحترمون أنفسهم .

تقدمت القوات الفرنسية صوب دمشق بجحافلها ومعداتها وإمكانياتهـا القوية ، واستماتت بعض الحاميات فى الدفاع عن مواقعها ، ولكن مقاومتها لم تكن لفترة طويلة . وسلمت الحاميات الأخري وظهر أن الفرنسيـــين سيدخلون عاصمة الأمويين لامحالة وبدون مقاومة .

وفكر فيصل ورجاله فى الخروج من دمشق والانسحاب منهـا ، حتى لايقعوا فى أيدى الفرنسيين ، وبدعوى تنظيم الوطنيين ، ومحاولة الحصول على شىء من لاشىء . وخرج يوسف العظمة من وزارة الحربيـة ولكن فى طريق مخالف ، خرج صوب قوات الفرنسيين الزاحفة خرج مسرعا وعلى رأس بعض الرجال ، لايزيد عددهم عن ألفى رجل ، وتقـــدم على رأسهم الى ميسلون ، مدخل دمشق ، لكى يقف على رأسهم ويلقى المهاجمين .

ولقد قرر مع رجاله ألا يمر الفرنسيون إلا فوق أجسادهم . وكان ماقرروا. لقد ثبتوا فى مواقعهم حتى آخر رجل ، ولم يعدمنهم أحدا، وسجلوا إسمهم بحروف من نار فى سجل تاريخ كفاح العرب ضد الاستعمار ، وفى مكان من أعز الأماكن على كل عربى .

لقد أصبحت ميسلون رمزا لكفاح حفنة من الرجال من أجل حرية بلادهم ، ورمزا للتضحية وللجهاد . وأظهرت هذه الموقعة موقف فيصل وحكومته فى ضوء باهت وفى شكل صعب . وماأن وصلت أنباء الهزيمة الى دمشق حتى خرج منها فيصل مسرعا فى قطار خاص ، وحمد أعوانه الله على أن الطائرات الفرنسية لم تقم بتعقب هذا القطار . وماأن استقر الحال لقوات الفرنسيين فى دمشق حتى قرر فيصل العودةاليها والتفاهم مع الفرنسيين. ولكن الفرنسيين رفضوا التفاهم معه ، وعلى أى شىء ؟ معاونتهم فى إدارة البلاد والاحتفاظ بجزء من سوريا تحت ملكه ؟ الاصرار على موقف لايحمل للفرنسيين إلا المشكلات والعقبات ؟ إن فرنسا لم تكن بحاجة الى فيصل ، خاصة وأنه ملك ، وملك هاشمى ، ومن الأشراف ، وصديق لبريطانيا ، ولفرنسا قواتها وأسلحتها ، ويمكن لهذه القوة أن تقرر الوضع النهائى ، وخاصة بعد أن قررت الحكومات الحليفة أن تعهد إلى فرنسا بادارة الاقاليم السورية وبادخال الحضارة والمدنية فى أرجائها ، والوصول بأبنائها الى مرحلة الدول المستقلة .

بدأ بهذاعهد جديد هو عهد الاحتلال الفرنسى ، وانتهت صفحة سوريا الفيصلية .

وهكذا تطورت مسألة الوحدة والاستقلال فى سوريا نتيجة للعوامل

الداخلية والخارجية ، وتأثرت بالاطماع الاستعمارية كما تأثرت بظروف الحرب وبشروط الصالح . واذا كان المؤتمر السوري قد إتخذ قرارات هامة فى شأن مستقبل بلادة ، ووقف مواقف حازمة لم يتزحزح عنها. إلا أن القوة الاستعمارية تفوقت فى الميدان ، وحاولت القيادة العربية أن تلعب ورقة بريطانيا ضد ورقة فرنسا ، وأن تقوم بدور مفاوضى سياسى بدلا من نزولها إلى ميدان الجهاد وقررت التفاهم فى الوقت الذى كان عليها أن تدعم القيادة وتدعم القوى الوطنية وتتحدمع القاعدة الشعبية . ثم حاولت أن تلقى قوات الاستعمار فى هذا الموقف الضعيف المتردد الضحل . وكان من السهل معرفة نتيجة المعركة سلفا: ولكن اخلاص السوريين لبلادهم وايمانهم بوطنيتهم وبعروبتهم , أبى أن تمر هـذه المرحلة دون أن يسجلوا فى التاريخ أنهم عرب ، ومن خير العرب .

خرج فيصل من سوريا لكى يعيش فى المنفى . إنه ملك فى المنفى بعد أن كان جنديا ثائرا . وأقام فى قصر على ضفاف بحيرة ماجيوري ومعه عدد كبير من الأتباع والحاشية . ولاشك أن بريطانيا قد فكرت فيه وقدرت له مرونته واستعداده للتفاهم . لذلك فانها قامت باستدعائه لكى تخدر به الثورة العراقية التى شبت عاليه والتهمت قوات الاستعمار فى بلاد الرافدين بمجرد إحتلال الفرنسيين لدمشق . وقبل فيصل هذه المهمة الجديدة على أساس تنحية البريطانيين لمطالب أخيه عبد الله فى عرش بغداد . وأظهر مقدرة فى التعاون مع البريطانيين وإن كانت أنظاره قد ظلت شاخصه إلى سوريا ، وإلى رجالاتها العرب .

الفصل الثامن

سوريا والإنتداب الفرنسى

وقع عبء الكفاح ضد الإستعمار الفرنسى على كاهل العرب السوريين الذين أصبحوا بدون قيادة بعد إنهاء حكم الملك فيصل واحتلال القوات الفرنسية لسوريا ولبنان . ولقد كان هذا الكفاح صعبا عسيراً وخاصة لأنه وقع دون قيادة موحدة تجمع العرب وتوحد صفوفهم فى المعركة . وظهر الإنقسام واضحاً بين عناصر الأمة السورية ، سواءاً منهم من سكن الإقليم الساحلى وجبل لبنان ، أو سكن الداخل وامتدت ديارهم حتى البادية . وأفادت السياسة الفرنسية من هذا الإنقسام ، ولعبت عليه لكى تطبق سياسة إستعمارية قديمة تمكنها من سيادة الموقف ما دامت القوى الوطنية منقسمة على نفسها . وإذا كانت فرنسا قد توصلت إلى فرض نفسها عسكريا على الإقليم، وتمكنت من تقسيمه وارضاء أطماعها فيه ، فان الثورة السورية سنة ١٩٢٥ جاءت نقطة تحول خطيرة فى التاريخ السورى وتاريخ الإمتداد الفرنسى لهذا الإقليم . وعملت على تحويل وتغيير أسس سياسة المستعمرين . وهكذا يمكننا أن نقسم الفترة الواقعة بين عامى ١٩٢٠ ، ١٩٣٦ إلى ثلاث فترات متتالية : الأولى تسبق الثورة وتمثل سياسة فرنسا الإستعمارية فى المنطقة ، والثانية تمثل الثورة نفسها ، مع ما حققته من انتصارات والثالثة تمثل تاثير هذه المحققات الثورية على السياسية الفرنسية فى الشام .

(١) الفرنسيون والسوريون :

كان كثير من العرب قد أتموا تعليمهم فى أوربا بشكل عام وفى فرنسا بشكل خاص . وكانت اللغة الفرنسية هى اللغة الأوربية الأولى المتفوقة فى الأقاليم السورية . وكانت النظم الدستورية الفرنسية تعتبر مثلا أمام رجالات سوريا بمبادئها الأساسية من فصل للسلطات إلى قيام حكم برلمانى يتمثل فى مجلسين ، إلى مسئولية الوزراء أمام البرلمان . وجاء الإعتقاد فى مبادىء الحرية والإخاء والمساواة لكى يدعم هذه الصلة بين السوريين والفكر السياسى الفرنسى الحديث . وكان هذا الاتجاه يسود منطقة السواحل السورية أى منطقة لبنان الحالية ، ويقل تدريجيا كلما إتجهنا من هذه المنطقة صوب الداخل متوغلين فى بقية سوريا

وكانت هناك عوامل أخرى تقرب بين بعض السوريين والفرنسيين . أولها هو نظام الامتيازات الاجنبية الذى تمتعت به فرنسا لحماية الاقليات الكاثوليكية الموجودة فى الدولة العثمانية ، والتى كانت مركزة أشد تركيز فى الأقاليم السورية . لقد أعطت هذه الامتيازات لفرنسا صفة الدولة الحامية لمن يحاول التخلص من تعنت الحكم التركى ، وحماية نفسه من النظام الإستبدادي العثمانى . وكان اكثر المستفيدين من هذه الامتيازات طوائف المسيحيين الكاثوليكيين بشكل عام والمارونيين بشكل خاص . ولا يمكن لأحد أن يجادل فى هذه الصلة الوثيقة المدعمة التى توطدت بين العناصر المارونية وسلطات فرنسا القنصلية فى المناطق السورية منذ النصف الثانى للقرن التاسع عشر ، والتى ظهرت بشكل واضح متبلور ، وبأدلة قاطعة بعد إعلان الحرب العالمية الأولى . فكانت هذه الطائفة إذاً تعتبر نفسها حليفة لفرنسا ، بل مرتبطة

بالفرنسيين فى الفكر وفى الدين . فى الوقت الذي قلت فيه عوامل ارتباطها ببقية المواطنين فى داخل الإقليم .

كان هـذا الترابط السياسى والفكرى ، والترابط الدينى ، أساسا لنشأة مصالح مشتركة ، أخذت لونا إقتصاديا إجتماعيا كان من الصعب القضاء عليه خاصة وأن الثورة العربية قد التقت بالسوريين ، فى محاولتهم التخلص من الحكم العثمانى ، فى أحضان الحلفاء الغربيين.

ولكننا نلاحظ إتجاهاً آخر وتكوينا مخالفا فى المنطقة الداخلية من سوريا أثر على طبيعة القوى الموجودة فى الإقليم . لقد كانت الأغلبية الساحقة فى الإقليم الداخلى من المسلمين ، مع أنهم كانوا من المتحررين . لقد أعجبوا كذلك بمبادىء الحرية والإخاء والمساواة ، وعلى أساس أن الدين لله والوطن للجميع، وحاولوا أن يدعموا بذلك بناءهم الاقليمى فى وجه الاتراك العثمانيين ، ولكن على أساس وحدة البلاد واستقلالها . لقد كافحوا من أجل التحرر من الحـكم العثمانى ولكن لكى لا يقعوا تحت قبضة انتداب فرنسى . لقد كافحوا من أجل حريتهم والمساواة فيما بينهم ، ولكن على أساس عـدم احتلال الإقليم ، ولو بجنود الدولة التى تعلموا فيها مبادىء الحرية والمساواة . وكانت الوحدة العربية هدفا لهم ، وكانت مقرونة بمطالب استقلالهم، فأي تغيير أو تبديل فى هذه المطالب كان يتعارض مع أمانيهم القومية المشروعة ، وكانوا الأغلبية .

وإذا كانت القوات الفرنسية قد نزلت إلى بيروت فى أثناء الحرب ، فان قوات الثورة العربية كانت قد زحفت شمالا من العقبة إلى معان فعمان فدمشق مؤيدة فى ذلك بالقوات البريطانية ، والتى كانت تنافس النفوذ الفرنسى

وترغب فى تضييق الخناق عليه ، خاصة وأنها كانت تعلم بأن فرنسا لم تقم بدور رئيسى فى هذه المنطقة فى أثناء الحرب . وكانت هـذه القوات العربية بقيادة فيصل وحفنة من الضباط العراقيين الذين عملوا فى توافق مع عدد من الضباط والخبراء البريطانيين وكانت أسلحتهم بريطانية ، ورواتبهم تأتى من بريطانيا . ووصلوا إلى دمشق فى تعاون تام مـع البريطانيين . وإن دراسة العلاقات العربية الفرنسية فى الفترة الواقعة بين سنة ١٩١٨ ، سنة ١٩٢٠ لتدل على أن البريطانيين قد وقفوا إلى جانب القيادة الفيصلية الهاشمية فى الوقت الذى اصطدمت فيه السياسة الفرنسية بهذه القيادة الموجودة فى داخل سوريا . ومع زحف قوات الجنرال غورو واستيلائه على دمشق بعد موقعة ميسلون تبلورت اتجاهات الإقليم ، وان كانت النتيجة لصالح الفرنسيين .

لقد كانت هناك إذا « أزمة ثقة » بين السلطات الفرنسية فى شرق البحر المتوسط وبين عرب سوريا ، وخاصة فى الداخل . وإذا كان هناك من العرب المثقفين من يؤمن بالأفكار والنظم الفرنسية المتحررة فى بلادها ، فقد كان هناك من العرب من ينظرون إلى سياسة فرنسا فى شمال افريقية بنوع عام ، وفى الجزائر بنوع خاص على أنها سياسة إستعمارية خطيرة على العرب والمسلمين . وكان بقاء أسرة الأمير عبد القادر الجزائري فى دمشق مثلا حياً أمام السوريين لقيادة عربية كافحت وناضلت وطردها الفرنسيون من بلادها أما بالنسبة لفرنسا فانها كانت ترى فى إنشاء المملكة السورية بقيادة فيصل بن الحسين على أنها إمتداد للنفوذ البريطانى ، ورغبة فى حرمانها من المكاسب السياسية التى حصلت عليها فى اتفاقية سايكس — بيكو ، وفى معاهدة فرساي وفى قرارات مؤتمر سان ريمو . ولم تكن فرنسا قد نست حرب التحرير التى قادها الأمير عبد القادر الجزائرى الهاشمى ، أمامها فى الجزائر ،

ولمدة سبعة عشر عاماً . وجاءت إلى سوريا لكى تجد قيادة هاشمية جديدة جاءت من الحجاز ووصلت حتى دمشق . لقد نظر الفرنسيون إلى هذه القيادة على أنها قيادة اقطاعية ، تعتز بحسبها ونسبها ودمائها ، وتناصبها العداء ، فى الوقت الذى اعتزت فيه فرنسا بانهائها لحكم الاقطاع فى بلادها ، واستندت الى وثيقة الانتداب لكى تدعى العمل على الوصول بالاقليم السوري إلى الحرية والاستقلال .

وعلينا أن نضيف بعد ذلك شعور الفرنسيين بتفوقهم على غيرهم ، واعتزازهم بنفسهم ، وشعورهم بضرورة قيامهم بعملية « الاشعاع » فى كل مناطق العالم كانوا لا يثقون الا فى ثقافتهم وفى طريقة تفكيرهم وتحليلهم الخاصة بهم ، ويعتقدون أن من الواجب استخدام الموظفين الفرنسيين والادارات الفرنسية لتطوير الحياة فى المناطق الخاضعة لنفوذهم . وكانت هذه العملية الخاصة بالتوسع الديموجرافى الفرنسى فى سوريا ، واعتبار هذا الاقليم متسعاً للفرنسيين تتعارض تمام المعارضة مع رغبة السوريين فى الحصول على الاستقلال إذ أنها كانت تقيد من نمو المجتمع السوري وتوسعه فى وظائف الدولة الجديدة وتضيق أمامهم النطاق وتحصر مدى صعودة على السلم الاجتماعى ، بطبقة جديدة من الفرنسيين المستوردين الذين يعتقدون أنهم جاءوا للأمر والنهى ولاجبار السوريين على إطاعة أوامرهم . كانت « أزمة الثقة » هذه سببا أساسيا فى وقوف معظم السوريين فى جانب ، والفرنسيين فى الجانب الآخر ، دون قيام أي تعاون بينهم . ولا شك أن دوافع الفرنسيين التى أوصلتهم إلى هذا الموقف الجامد من العرب السوريين كانت دوافعاً إقتصادية وسياسية واعطت ألوانا نفسية ومعنوية فيما بعد .

وكان العرب يعلمون مدى التوافق بين الفرنسيين والمارونيين السوريين ،

ويرون فى هذا التضامن الطائفى إذكاءاً للنعرة الدينية والطائفية ، ومن فرنسا العلمانية ، وفى وقت يطالب العرب أنفسهم فيه بضرورة تطبيق سياسة الدين لله والوطن للجميع . وإذا كان أحـــرار سوريا قد رفضوا التضامن مع العثمانيين وعلى أساس رباط الدين ، فمن الأولى أن يعارضوا إرتماء المارونيين فى أحضان الفرنسيين ، وأن يروا فى هـذه العملية تفتيتا للقوى الوطنية وتدعيما لسياسة الأقليات . وتحطيما لمبادىء الثورة العربية .

وجاء خوف فرنسا من الثورة العربية ومحاولة حصرها داخل الجزيرة العربية ومنع إمتدادها إلى سواحل البحر المتوسط عاملا جديداً فرق بين رجال الثورة العربية وبين فرنسا . وكانت فرنسا تخشى فى حقيقة الأمر من تدعيم فكرة القومية العربية خاصة وأن هذه الفكرة كانت تمثل خطـراً هـاما على حكمها لأقطار شمال أفريقية . وكان معنى نجاح الثورة العربية فى الوصول إلى الاستقلال والوحدة ، وعلى أساس ثورى يهدد بانتشار أفكارها واتجاهاتها حلقة بعد حلقة فيما حولها ، ويهدد بوصولها إلى تونس والجزائر والمغرب الأقصى ، وهم عرب ومستعدون للسير مع العرب . ولذلك فان موقف فرنسا المعادى للثورة العربية جاء متمما لمجموعة من المتناقضات السياسية التى بنت عليها خططها الاستعمارية دون نظر إلى المستقبل البعيد . ولكن هذه المتناقضـــات نفسها ، وهى من طبيعة الطبقة البورجوازية الحاكمة فى فرنسا أبعدت هذه الدولة عن الحركات الشعبية فى سوريا ، فى نفس الوقت الذى اصطدمت فيه فرنسا بالقيادات الاقطاعية الموجودة فى المنطقة . فأصبح مجال التعاون الفرنسى السورى ضيقا ومحصوراً فى طبقة واحدة هى الطبقة البورجوازية أو الوسطى السورية ، وفى نطاق عناصر هذه الطبقة الذين يفضلون مصلحتهم الشخصية على المبادىء الثورية ، أو تدفعهم نزعاتهم الطائفية وشعورهم بكونهم أقلية ،

أو خضوعهم لروح طائفية ، بعيدا عن مجموع القوي الوطنية فى ذلك الحين .

وكان شعور فرنسا بضعفها بعد الحرب العالمية الأولى ، ذلك الضعف الذى أجبرها على تحويل سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع وراء خط ماجينو ، وشعورها بامكانية قيام حركات تحررية فى مستعمراتها وشعورها بصغر ذلك القطاع الذي يمكنها أن تتعاون معه فى شرق البحر المتوسط ، كان كل ذلك يدفع فرنسا إلى التحول من الخضوع لمركب النقص إلى الشعور بمركب العظمة ، وإلى استخدام القوات الساخرة لتغطية ضعفها المادى والمعنوي . ولذلك فان سنوات طويلة قد انقضت فى محاولة الفرنسيين فرض أنفسهم على السوريين . وكم من رجال سقطت ، وأموال أنفقت ، وسياسات وضعت ثم أبدلت ، لكى تجد فرنسا نفسها دائما فى نقطة البداية ، نقطة الصفر وأمام شعب أجبرته على أن يكون معاديا لها ولسياستها ، بعد أن كان مثقفية قد تعلموا مبادىء ثورتهم منها وفيها :

(٢) التفرقة والعنصرية :—

نظرت فرنسا إلى المملكة السورية ، قبل هجومها على دمشق ، على أنه وثيقة الصلة ببريطانيا والبريطانيين ، فاتهمت بعض الضبـــاط السياسيين البريطانيين الموجودين فى هذه المدينة بمناوأتها والعمل على تقويض النفوذ الفرنسى فى منطقة شرق البحر المتوسط . ونظرت فرنسا إلى فيصل على أنه العوبة فى أيدي البريطانيين . وتمادت فى عمليتها واعتقدت أن الثورة العربية ليست إلا قناعا يعمل على إخضاع منطقة الشرق الأدنى بأكمله للنفوذ البريطانى . ومع تصميم فرنسا على مد حكمها إلى داخل سوريا بعد مؤتمر سان ريمو ، وضعت هذه الدولة أسس سياستها فى سوريا وعلى أساس معاداتها للثورة

العربية ومبادىء القومية الجديدة الناشئة . واستخدمت تكتيكا يتمثل فى تفتيت المنطقة إلى وحدات سياسية وعنصرية وطائفية ، يمكنها أن توازن بينها وتضع كل منها فى مواجهة الأخرى ، وبشكل يسمح لها بالبقاء فى المنطقة لأطول فترة ممكنة .

وكانت فرنسا قد طلبت فى مؤتمر سان ريمو إعطاءها الإنتداب على سوريا ولبنان ، أى أنها قسمت الاقليم السورى ، الذى يخضع لها ، بعد ترك فلسطين لبريطانيا ، إلى اقليمين متميزين . وجاءت قرارات هذا المؤتمر لكى تجعل لكل من هذين القطرين كيانا واضحا منفصلا عن كيان الآخر وكانت هذه أول ضربة أصابت مبادىء الثورة العربية ، التى كانت تصرخ عاليا منادية بالوحدة .

لم يكن هناك فرق بين سورى ولبنانى من حيث العروبة ، وإن كانت هناك اختلافات مذهبية ودينية ، عمد العرب إلى تركها جانبا حتى يصلوا إلى وحدتهم القومية . ومعنى تفريق مؤتمر سان ريمو لسوريا عن لبنان هو العودة إلى سياسة طائفية عنصرية ، ومعنى سير فرنسا على هـذا المنهج هو تقسيم الإقليم ووضع كل من أقسامه فى مواجهة الآخر .

لقد كان لبنان منذ عصور طويلة يتميز بوجود أغلبية مسيحيه تنقسم فى داخلها إلى طائفة المارونيين وهم أصدقاء فرنسا القدماء ، وإلى طوائف أخرى تدين بالولاء للبابا وتعتبر فرنسا حاميتها التقليدية . وكان النظام الأساسى الذى أصدرته الدولة العثمانية سنة ١٨٦١ قد أرضى هذه الطوائف باشتراكها فى حكم اقليمها وحسب عاداتها وتقاليدها ونظمها المالية ، فعمدت فرنسا إلى الرجوع إلى هـذا النظام العثمانى القديم لكى تستند إلى عناصر المسيحية وتحتضنها وتتخذها سلاحا فى مواجهة الأغلبية المسلمة الموجودة إلى الداخل . وناقضت

فرنسا نفسها بهذه السياسة التى لم تكن قادرة على تطبيقها فى بلادها نفسها .

ولقد عمدت فرنسا إلى توسيع نطاق لبنان حتى تجعل منه قاعدة يمكنها أن توازن بقية الأقاليم السورية فأصدرت مرسوما فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٢٠ يقضى بانشاء دولة لبنان الكبير التى امتدت حدودها فيما وراء حدود سنجق لبنان السابق شمالا وشرقا وجنوبا وبشكل يضم إلى هذه الدولة مدن طرابلس وبيروت وصيدا وصور مع بعلبك وسهل البقاع . وأصبحت مساحة هذه الدولة الجديدة ضعفى مساحة سنجق لبنان السابق ، وضمت عدداً كبيراً من المواطنين أو الرعايا المسلمين داخل حدودها .

وكان هذا خطأ جسيما ارتكبته فرنسا ، إذ أنه حول الغالبية العظمى المسيحية فى هذا الإقليم أو هذه الدولة الجديدة الى أغلبية بسيطة ، مما ينذر بامكانية قيام صراع جديد داخل دولة لبنان نفسها بين العناصر المسيحية والعناصر المسلمة . وكان ضم موانى بيروت وطرابلس إلى هذه الدولة الجديدة يعتبر حرمانا لسوريا من مخارجها الطبيعية البحرية . وكان أخطر شىء فى هذه العملية هو إذكاء الروح الطائفية داخل حدود هذه الدولة الجديدة ، وخاصة بعد أن شعر المسيحيون بقلة نسبة أغلبيتهم ، وشعر المسلمون أنهم قد فصلوا عن اقاليم مرتبطين بها ، ويكونون الأغلبية فيها ، لكى يصبحوا أقلية فى دولة جديدة . وعلى أى حال فلا يمكننا أن ندين فرنسا بقصر النظر عند اتخاذها لهذا القرار إذ أن هذه السياسة كانت تهدف فعلا الوصول إلى مرحلة صراع وكفاح داخلى بين العرب والعرب وعلى أساس طائفى ، وفى قطاعات صغيرة من المشكلة التى تفتتت ، بدلا من النزول الى معركة واحدة كبيرة ولها أهداف واضحة ومتبلورة وأمام الجميع .

وكانت الخطوة التالية أمام الفرنسيين هى تحطيم الوحدة الاقليمية لبقية الإقليم السوري بعد أن كان متحداً تحت المملكة العربية ، فأنشأت فرنسا ثلاث دول منفصلة عن بعضها . ولها أربع حكومات ، وكل ذلك فى اقليم لم يزد عدد سكانه على مليونى نسمة بكثير ، أنشأت فرنسا حكومة اللاذقية فى الاقليم الساحلى الواقع بين حدود لبنان الكبير وحدود سنجق أو لواء الاسكندرونة ، كما أنشأت دولة جبل الدروز ، وعاصمتها السويداء ، وفى المنطقة الواقعة بين دمشق وحدود إمارة شرقى الأردن ، وأنشأت دولة سوريا ، وعاصمتها دمشق وتشتمل على بقية الأراضى الخاضعة للانتداب الفرنسى ، كما أنشأت سنجق الاسكندرونة الذي كان ضمنا داخل الدولة السورية من الناحية الإسمية ، وإن كانت فرنسا قد أنشأت له حكومة خاصة به .

واستندت فرنسا فى سياسة التقسيم والتفرقة هذه إلى حجج وإدعاءات لم تحجم عن إعلانها ، فادعت أنها قد استجابت لرغبات الشعوب التى يعنيها الأمر وهم الدروز والعلويون أو الناصريون فى منطقة اللاذقية ، والاتراك فى لواء الاسكندرونة ، وتمشت مع اختلاف المذاهب والعناصر ودرجة النضج السياسى من منطقة إلى منطقة لكى تفصل بين الواحدة والأخرى ، وفى صالح الأهالى أنفسهم . والواقع أن فرنسا كانت تخشى استمرار نضوج فكرة القومية العربية وعملت على تحطيمها وهى لا تزال فى المهد . ويتضح ذلك جليا من عمل فرنسا على تغذية النزعات الانفصالية فى سوريا ، كما يتضح فى عملية حصرها لدولة سوريا فى داخل الإقاليم وإنشائها لثلاث دول جديدة تسد أمامها الطريق والمنافذ وهى دول لبنان الكبير واللاذقية والاسكندرونة .

وأخذت فرنسا فى ادارة كل وحدة من هذه الواحدات السياسية الجديدة

بحكومة قائمة بذاتها ، تخضع لحاكم فرنسى له سلطات مطلقة . ثم عمدت فرنسا الى وضع كل دولة من هذه الدول فى مواجهة الدول الأخرى، ووضع الأهالى فيها أمام الأهالى فى الاقليم المجاور ، حتى تصل عن طريق التفرقة إلى السيادة، وحتى تحصر أى حركات ثورية ، أو كفاح وطنى ينشأ فى داخل المنطقة المعينة التى رسمتها وحددتها له .

لقد كانت القومية العربية هدفاً لمهاجمة رجال الادارة الفرنسيين ، ولم تحجم فرنسا عن اضطهاد العناصر الوطنية ، وعن وضع القوميين العرب تحت رقابة الأمن ، وفى ظل احكام عسكرية ، وبشكل جعل كثيراً من العرب يندمون على انقضاء عهد الطغيان الحميدي . ولقد كمت فرنسا أفواه الصحافة العربية الوطنية ، فى الوقت الذي شجعت فيه الصحافة الطائفية والمأجورة أو المتعاونة مع الاستعمار . واحتفظت فرنسا بالوظائف العالية وعضوية المجالس المحلية لتلك العناصر التى كانت مستعدة لاثبات مروتها وسياستها وكياستها ، وامكانية تفاهمها ، وتقديرها للموقف ، دون جذب ودفع. واعتمدت فرنسا على هذه العناصر ، مثل اعتمادها على العناصر المسيحية لكى تفرق بين العربى والعربى، وتحطم فكرة القومية الناشئة ، وتصل بالاقليم الى مرحلة من التضارب والتناقض والتنافس والتناحر تسمح لها بالبقاء ولأطول وقت ممكن، وبالتالى بالقيام بعملية الاستغلال الاقتصادى الذي هو هدف الاستعمار الأساسى، سواء وضح أو خفى .

ولقد كان من السهل على فرنسا أن تسيطر إقتصاديا على الأقاليم السورية نتيجة للتحولات المالية التى صحبت خروج العثمانيين ومجىء إدارات جديدة للاقليم ، لها عملة جديدة . ذلك أن فرنسا قد أصدرت عملة جديدة سورية —

لبنانية مرتبطة بالفرنك الفرنسى ، ويقوم باصدارها بنك فرنسى وبشروط تراعى مصالح المساهمين الفرنسيين على حساب الأزدهار المالى والاقتصادى لسوريا ولبنان . ورغم أن الفرنك الفرنسى كان قد تدهور فى أوربا وفى كل العالم . الا أن فرنسا قد فرضت هذه العملة الجديدة وبسعر معين فى شرق البحر المتوسط . وفى غير صالح المحولين . وكان على الجميع أن يبدلوا نقودهم بهذه العملة الجديدة حتى يتمكنوا من العمل والتعامل . ولقد أدت هـــذه السياسية إلى تدهور الاقتصاد السورى واللبنانى أمام عملة المحتلين القادمين الجدد ، وأثارت ضجة كبيرة فى فرنسا نفسها ، ولكن دون جدوى ، ما دام الحكم للقوة. وواصلت فرنسا عمليتها وتحيزت فى منح الامتيازات والاحتكارات سواء للفرنسين أو العناصر المسايرة لها ، حتى وإن كان ذلك لتوريد ما يلزم الإدارة الجديدة من مهات وأدوات . ولقد القت العناصر الوطنية السورية بكل هذه الأخطاء ، وبغيرها على كاهل الادارة الفرنسية فى الشام ، وتناست بذلك دورها أو دور عوامل أخري خارجية ودولية ، وخاصة بعد الثورة وتغير نظم الحكم فى المنطقة وتأثير ذلك على الأوضاع الاقتصادية والعالمية والاقليمية . وإن كانت كل المسئولية لا تعود بطريق مباشر على فرنسا ، فما لا شك فيه هـــو أن غالبيتها يدين الحكم الفرنسى ، خاصة وأنه قد تطوع للحصول على الانتداب على هذه المنطقة ، والخروج إلى مرحلة النمو والاستقلال والحضارة والازدهار .

ومع خوف الحكم الفرنسى من خطر القومية العربية الناشئه عمدت حكومة الانتداب الى مناهضة تعليم اللغة العربية وانتشارها . وظهرت نظريات جديدة فى العشرينات تنادى بفقر اللغة العربية وجمودها وعـدم تمكنها من مسايرة النهضة العلمية فى العالم ، وخاصة فى المصطلحات والمشتقات . وكانت الثورة

العربية قد عملت على احلال اللغة العربية محل اللغة التركية فى المدارس والمحاكم والادارات ، واستخدمتها دعامة قوية وأساسية لوحدة شعوب المنطقة ووحدة تاريخها وتراثها ووحدة مستقبلها ، فوجد القوميون العرب أنفسهم فى مواجهة عدد من التشريعات تعمل على تحطيم حركتهم ، وتشكيك النشىء فى امكانياتهم وفى مواجهة قرارات حكومية بتعديل نظم الدراسة وبفتح مدارس اجنبية جديدة وبمحاولة ربط الثقافة فى الشرق الادنى بالفكر الفرنسى . فنشأت المنازعات من جديد ، وشعر العرب بخطورة هذه الحركة عليهم ، بعد أن كانوا قد اقتبسوا من الفرنسيين ليتخلصوا من عوامل الكبت المواجهة لهم وإنماء لغتهم فى إقليمهم . ومع ازدياء النفوذ الثقافى الفرنسى فى سوريا ولبنان ومحاولة إنشاء جيل جديد متفرنس فى الاقليم ، زاد تبلور المصالح بين القوي الوطنية والاجنبية وساعد ذلك على وضع القوميين العرب فى جانب والمستعمرين وأنصارهم فى جانب آخر . وإذا كانت هـذه الحركة شديدة على القوميين العرب فانها عملت فى نفس الوقت على عجم عودهم وعلى تعمقهم فى مبادئهم ، وعلى خروج الشوائب من بينهم ، وبشكل جعل منهم قـوة عربية خالصة ومخلصة ، وأشد قوة من غيرها فى اقاليم عربية كثيرة ، أى أن هذه الحركة قد ساعدت على نمو القومية العربية بفكرتها ودعائمها ووسائل كـفاحها فى الاقليم السورى ، اكثر من نموها فى الأقاليم العربية الأخرى .

لقد أهملت فرنسا المدارس العربية وأهملت تكوين المدرسين والمعلمين العرب فى الوقت الذى نشرت فيه لغتها ومدارسها فى طول البلاد وعرضها . وكانت اللغة خطوة أولى تلتها خطوة تعيين عدد كبير من الفرنسيين فى الوظائف والادارات . وكم من فرنسى عجز عن فهم السورى نتيجة لجهله باللغة العربية . وكم من خطأ أرتكب ، ونظم أسيىء تطبيقها لهذا السبب .

والمهم هى أن الادارة الفرنسية قد تحملت ما ارتكبت من أخطاء وظهرت أمام الرأي العام العربي عاجزة متعجرفة ، فى الوقت الذى كانت فيه متوسعة ومستغلة . ولم يكن هذا فى صالح إدارة الانتداب الفرنسى فى شيء .

وكان كثير من رجال الادارة الفرنسية الجديدة قد عهدوا العمل فى أقاليم شمال افريقية وأقطارها . ولم تكن كفاءتهم قد وصلت المستوى الذى يسمح لهم بحكم بلاد مثل سوريا ، وكانوا قد جاءوا بأفكار ثابتة عن العرب وحياتهم وأخلاقهم : فهى شعوب كسولة لا ينجح معها اللين ، ولاتحترم إلا القوة ، شعوب تساق ، وتعجز فى غالبيتها عن أن تكون قابلة للتحضير والتمدن ووصلوا إلى سوريا بهذه الآراء لكى يجدوها معتزة بنفسها وبقوميتها العربية، ومعتزة بأن العرب هم الذين رفعوا مشعل الحضارة والمدنية ، وهم الذين أضاءوا بها أوربا . تقابلت هاتان العقليتان فى الشام ، وبدلا من أن تجد فرنسا الطريق معبد أمامها للتعاون مع العرب سارت مع سياسة المتناقضات فى طريق ملىء بالاصطدامات وفى كل ركن من أركانه . وسواء أكانت فرنسا قد عمدت بتفتيت القضية السورية ، وبانتهاج سياسة التفرقة العنصرية ، إلى التمويه على الأهالى ، وإلى جر المشكلة من كلياتها وادخالها بعد تفتيتها إلى نطاق الجزئيات ، فما لا شك فيه أن هذه السياسة قد أدت إلى تبلور الرأى العام العربى ، وساعدت على سرعة نضج فكرة القومية العربية فى هذا الاقليم قبل غيره ، ووضعت فرنسا أمام سلسلة طويلة من الثورات والكفاح الوطنى الذى أقلق بالها طول مدة وجودها مسئولة عن هذا الانتداب . وإذا كانت فرنسا قد اعتمدت على قوات السنغال وجندى الجزائر ورجال الفرقة الاجنبية ، واعتمدت على الحديد والنار فى حكم سوريا ، فانها وصلت بعد عدد من السنين إلى مواجهة حركات ثورية لا قبل لها بها ، وخاصة وأن

الموقف الدولى كان قد تغير فى حوض البحر المتوسط فى العشرينات بعد استيلاء الفاشستيين وموسولينى على الحكم فى روما ، وتغير ميزان القوى بين الدول الاستعماريه من جانب ، والقوى الوطنية ، مع بعضها ومع الدول الاستعمارية من جانب آخر .

(٣) الثورة السورية :

كانت المرحلة الأولى للعلاقات السورية الفرنسية والتى تمتد من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٢٦ تمتاز بتولى ثلاث من الرجال العسكرين لمهام الإنتداب الفرنسى على سوريا . وكانت سلطاتهم مطلقة وعسكرية ، وكانوا من أكبر القادة العسكريين الفرنسيين فى ذلك الوقت . كان أولهم هو الجنرال غورو الذي تمرن مع رجاله فى شمال إفريقية ، أما الثانى فكان الجنرال فيجاند الذي امتاز بحدة ذكائه واهتمامه بدقائق الأمور العسكرية ، أما الثالث فكان الجنرال سراي . ولم تكن السلطات الممنوحة لهؤلاء القواد ، وهى مطلقة ، علاوة على القوات الخاضعة لتصرفهم ، تسمح للعرب بالحركة ، وتم فى عهدهم تقسيم سوريا الى دول أو دويلات ، كما تم وضع أسس الإدارة الجديدة بكل ما حملت لسوريا من محاسن ومساويء . ولكن وقف العمل فى سنة ١٩٢٥ بالقانون العسكري فتح المجال أمام السوريين للحركة والمطالبة ، رغم أن السلطات بقيت كما هى فى أيدى المندوبين الساميين .

ولقد تجمعت أسباب عدم الرضا السورى فى شهر يوليو سنة ١٩٢٥ فى منطقة جبل الدروز بنوع خاص ، وفى وقت حكم جنرال سراى ، وجاءت نتيجة لتعسفه واستبداد السلطات المحلية بالمنطقة ، وكانت منطقة الدروز قد وضعت بإنشاء حكومة خاصة بها ، وكأنها تناست بذلك مبادىء الوحدة

والاستقلال . وإذا كان الهدوء الذى ساد المنطقة يمكن أن ينسب إلى كثرة القوة العسكرية ، وضغط الفرنسيين على الأهـــالى ، فانه ينسب كذلك إلى استعانة الفرنسيين بعدد من القيادات الوطنية ، وفى مناطق مختلفة ، لتنفيذ السياسية الجديدة ، وموافقة هذه القيادات على هذه السياسة التى تمشت مع نموها الإجتماعى والاقتصادي . وتغيرت الأحوال حينما عملت السلطات الفرنسية على كبت هذه القيادات أو الحد من نموها . فحدث صدام تبلور فيه المعسكر الإقليمى فى جانب ، بمــا فيه من قياداته وقوى شعبية ، وقوات الاحتلال الأجنبى فى جانب آخر . وإذا كتب للثورة التى نشبت فى منطقة جبل الدوز أن تظل محصورة فيه لبقيت ثورة إقليمية متصلة بالقيادة الوطنية المحلية دون كبير صلة بالمشكلة السورية أو المشكلة العربية . وإن امتداد هـذه الثورة خارج حـدود منطقة جبل الدروز وتعاون عناصر الأمة السورية فيها هو الذي أعطاها لونها الوطنى كحركة كفاح ضد الإستعمار .

أساء بعض الضباط الفرنسيين معاملة شيوخ الجبل ، ورفض المفوض السامى الفرنسى تغيير هؤلاء الضباط وإرضاء الوطنين . وتدهورت العلاقات بين الجانبين وخاصة بعد أن صمم الضباط الفرنسيين على مواصلة تعجرفهم ضد القيارات الوطنية . فبدأت الثورة فى السويداء فى شكل حركة عـــدم رضاء تطورت سريعاً إلى حركة مسلحة . لقد طالب السوريون بضرورة إحترام القانون واحترام الحرية الشخصية فلا يسجن أحد أو يعاقب أو ينفى إلا بحكم القانون . كما طالبوا بالحرية السياسية وحرية التحدث والاجتماع . وأخذ سلطان باشا الأطرش فى جمع بعض رجالات الجبل من القرى وتسليحهم والإستعداد للمعارك . وحينما حاول الفرنسيون الدخول إلى السويداء هاجمهم

الوطنيون السوريون من ناحيتين وانتصروا عليهم وقضوا على أغلبهم ، إلا عدداً بسيطا حمل أخبار الهزيمة الى الفرنسيين . كان لإنتصار السوريين على هذه الكتيبة الفرنسية أكبر أثر فى إذكاءاً لروح الوطنيين فى جميع أنحاء سوريا ، وفى شعور السوريين بأن فى امكانهم هزيمة قوات الإحتلال . وسرعان ما انتشرت الأخبار بأن رجال الجبل قد هاجموا قلعة السويداء واستولوا عليها من القوات الفرنسية ، فأضافت هذه الأخبار الى ماسبق من ارتفاع الروح المعنوية وتحمس السوريين فى كل مكان للبذل والتضحية والكفاح من أجل بلادهم .

ولقد صممت فرنسا على عدم التقهقر وأرسلت قوة أكبر ، بلغ عددها بضعة آلاف . وقصدت من ورائها تهدئة الجبل ، أو كسر شوكة رجاله . ولكن هذه القوة الجديدة لقيت هزيمة منكرة فى أوائل شهر أغسطس ، بل واجهت كارثة بعد أن فقدت معظم اسلحتها ومدافعها وذخائرها وأصبح الباب مفتوحاً أمام الثوار الى دمشق .

كان الموقف عصيبا أمام الفرنسيين فى سوريا ، وكان عصيبا أمامهم فى شمال افريقية مع عمليات الأمير عبد الكريم الخطابى الذي كان قد بدأ فى الهجوم من الريف على المنطقة المغربية الخاضعة للحماية الفرنسية . ولم يكن من السهل على فرنسا أن تتراجع فى أى من الميدانين حتى لا يظهر ضعفها وينتهى حكمها، ولذلك فانها قررت على الصمود ، بل زيادة المجهود الحربى للوصول الى تهدئة الموقف ، أى الى كبت السوريين . ولكن طلائع الثوار وصلت أمام دمشق ، وظلت مسيطرة على الضواحى ، رغم عدم تمكنها من دخول عاصمة الأمويين . ومن الصعب كتابة تاريخ تفصيلى لهذه الثورة حتى الآن. نظرا لقلة المصادر ، وتأجج المشاعر الخاصة بها من جانب أو آخر . ولكنها

امتلأت بالعمليات الناجح منها والفاشل ، كما توالت الأخبار عن نجاح الثوار أو نجاح قوات الإحتلال . فمرة تأتى الأخبار فى نهاية شهر سبتمبر بدخول الفرنسيين الى السويداء ، ولكن سرعان ماتجيء الأخبار معلنة سرعة انسحابهم منها . ثم تنتشر الاشاعات بأن بريطانيا كانت تقوم بمد زعماء الجبل بالاسلحة والذخائر من فلسطين المجاورة حتى يناوءوا الفرنسيين ويقلقوا مضاجعهم ، وبعد تأكيد قسم من الصحافة الفرنسية لهذا الإتجاه تأتى الأخبار بقضاء الثوار على وحدات فرنسية واستيلائهم على اسلحتها وذخائرها . ولكن الثابت هو أن نجاح الثورة قد عمل على انتشار مداها فى جميع انحاء البلاد ، وبشكل جعل كثير من الزعماء الوطنيين يتطوعون فى صفوفها ، مما أعطاها لون انتفاضة وطنية واضحة . ولقد امتدت الثورة الى ما وراء دمشق فى أقاليم حمص وحماة وطرابلس ، وهدد الثوار بيروت نفسها ، ووضح أن الثورة قد تطورت وتبلورت وأخذت طابعا وطنياً عربياً يهدف الوحدة والاستقلال .

وكلما اشتدت الثورة وزاد انضمام الأهالى اليها، زادت فرنسا من مجهوداتها لقمعها وبمنتهى القسوة . ولقد قامت القوات الفرنسية بضرب القرى بالقنابل وبدون سابق انذار ، كما استباحت عدداً آخر من القرى ، بكل ما تشتمل عليه هـــذه الكلمة من معانى ، وجندت فرنسا عدداً من الأرمن والجراكسة وسمحت لهم باستخدام العنف وباستغلال الثورة للسلب والسبى والنهب . ولكن هذه السياسة زادت من تصميم العرب السوريين على مواصلة الكفاح المسلح . وتمكنوا من الدخول الى دمشق مرتين ، وباعداد كبيرة . فما كان من الفرنسيين الا أن ضربوا بعض أحياء دمشق الشعبية بالقنابل ، من الطائرات ، ومن المدفعية المركزة فى قلعة قرب وسط المدينة ، ولقد كانت هذه العملية الأخيرة سببا فى هياج الرأى العام العربى ، والرأى العام العالمى ،

بل وحق الرأي العام الفرنسى ، وبشكل أضطر فرنسا الى استدعاء الجنرال سراى ، وهو المسئول عن هذه العملية بطريق مباشر أو غير مباشر . وعينت فرنسا مندوبا مفوضا ساميا جديدا هو دى جوفينيل ، وكأن هذا التغيير يعنى الاعتذار عن تلك الآلاف من القتلى والجرحى من المدنيين ، وعن التخريب والخسائر فى العقارات والمتاجر .

وظلت الثورة السورية مشتعلة طوال سنة ١٩٢٦. ولكن فرنسا اعتمدت على قوات كبيرة لتدعيم وتثبيت سلطانها على البلاد . فتحولت الثورة الى حرب عصابات متقطعة ، هنا وهناك ، وواصلت عملها فى الشهور الأولى من سنة ١٩٢٧ . ورغم استخدام فرنسا للشدة أمام هذه الثورة ، وتحول هذه الثورة الى معارك مفككة ، الا أن الثورة قد نجحت سياسيا فى الوصول الى مرحله من مراحل الكفاح الوطني لم تشهدها سوريا من قبل. كما أنها نجحت فى اجبار فرنسا على التصريح باستعدادها لتغيير سياستها فى المشرق العربى . وأعلن دى جوفينيل أن لبنان قد أصبح جمهوريا ، وصرح بأن الحكومة الفرنسية تنوى عقد معاهدة تحالف مع سوريا ، تحل محل نظام الانتداب وتشبه المعاهدة البريطانية العراقية . واذا كان هذا التحول السياسى لا يعنى تغييراً أساسيا أو جذريا فى طبيعة الاوضاع القائمه ، الا أنه كان يمثل ، سياسيا ، مرحله من مراحل علاقة الحاكم بالمحكوم ، والدولة المنتـــدبة بالأهالى الوطنيين الذين هم تحت انتدابها. وإذا كان من الصعب تقدير الخسائر الناتجة عن هذه الثورة ، سواء فى الأنفس أو الأموال والممتلكات ، فمـــا لا شك فيه أن هذه الخسائر كانت أكثر من خسائر ثورة العراق سنة ١٩٢ وإن كانت الخسائر هنا موزعة بين الوطنيين والمحتلين . وبعد هذه الثورة

دخل تاريخ سوريا مرحلة جديدة هي مرحلة المفاوضات مع الفرنسيين للحصول على الاستقلال

(٤) المفاوضات : —

بقى دى جو فينيل بضعة أشهر فى سوريا ، ثم غيرته فرنسا وعينت بدله بونسو مندوباً سامياً . وكان من حظ هذا الحاكم الجديد بقائه فى الحكم مدة سبع سنوات متتالية سمحت له بالعمل لمحاولة إيجاد حل للمشكلة السورية وكان بونسو حاكما مدنيا ، وحاول أن يتفاهم مع الزعماء السوريين ويقضى على بعض النظم البيروقراطية وعيوب الادارة . وأظهر حياداً فى الإنتخابات السورية ، مما جعل الأهالى يثقون فيه . ولكنه عجز عن الوصول الى حل مع الزعماء السوريين فى المشكلات الأساسية التى كانت عصب القضية . وكانت تتلخص فى كلمتى الوحدة والاستقلال . لقد أظهر بونسو رغبة صادقة للوصول الى حل مع السوريين ، ولكن الرغبة كانت تصطدم بالمصالح الفرنسية حول هذين المبدأين . ورغم المفاوضات الطويلة التى قامت بينه وبين الزعماء السوريين فانه قد ترك القضية فى نفس النقطة التى كان قد استلمها فيهـا عند مجيئه إلى البلاد .

لقد وافقت الحكومة الفرنسية على انشاء حكم جمهوري فى سوريا ، ولكنها عجزت عن الإتفاق مع الوطنيين السوريين حول بعض نقط الدستور الهامة . ووافق بونسو على نشر هـذا الدستور كما هو ، وبالطريقة التى أقرها به الوطنيون ، ولكنه أكمله بمادة جديدة تعطل العمل بالنقط الست التى لم يتفق عليها مع الوطنيين ، مستندا الى ضرورة الوصول الى معاهدة قبل البت فى هذه النقط الأساسية .

وبدأت الانتخابات فى سوريا وفى ظل الدستور الجديد ، تمهيدا للبدأ فى مفاوضات تقوم بها هيئة وطنية تمثل الشعب ولها صلاحية التفاوض باسمه . ولكن بونسو استغل بعض الشخصيات السورية وأقنعها بضرورة اتخاذ سياسة التعاون مع فرنسا ، بدلا من الاستمرار فى السير على سياسة الجذب والدفع . وتكونت حكومةدستورية فى سوريا فىيونيو سنة ١٩٣٢، ولكن رئيسها كان العوبة فى أيدي الفرنسيين ، كما كان رئيس الجمهورية العوبة ثانية وكان مجلس النواب يمثل سوريا بالاسم لا فى الحقيقة ، خاصة وأن بونسو كان قد تدخل فى الإنتخابات هذه المرة .

ولقد عرض بونسو على الحكومة السورية مشروع معاهدة تقل فى كثير عن المعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٣٠ رغم أنه كان قد صرح مراراً وتكراراً بأن هدفه هو الوصول بالعلاقات الفرنسية السورية الى نفس مستوى العلاقات البريطانية العراقية . ورغم أن كثيرا من مواد هذا المشروع بالمعاهدة كانت تشبه وتطابق مواد أخرى فى المعاهدة البريطانية العراقية ، إلا أن إختلافا واضحا تعمد الفرنسيون وضعه فيما يتعلق بالسيادة والوحدة ونظم الحكم المقبلة فى سوريا. ولقد أدت عملية التمويه هذه على فضح النيات الفرنسية وبشكل أجبر أنصار التعاون مع فرنسا على الاستقالة من الحكومة الجديدة خاصة وأنهم كانوا يشعرون أن تعاونهم مع فرنسا كان يبعدهم عن أبناء بلدهم ويجعلهم فى موقف لا يحسدون عليه . فخسرت فرنسا بدلا من أن تكسب ، وتبلور الموقف وبشكل جعل الوطنيين يصرون على مطالبهم رغم أن المشكلة بقيت كما هى .

ومرة جديدة حاولت فرنسا استخدام الشدة فعينت دي مارتيل خليفة

لبونسو . وكان معروفا بالشدة أكثر من الحزم ، وظهر أن فرنسا قــد صممت على عدم التراجع بعد أن مضت ٦ سنوات على نهاية الثورة السورية ، أضاعتها عليها فى المفاوضات ، والجلسات ، والمحاولات الفاشلة للوصول لأي حلول . وبدأ دي مارتيل عمله فى أكتوبر سنة ١٩٠٢ باستدعاء رئيس الوزراء السوري وأمره بقبول مشروع المعاهدة . ولما كان هذا الرئيس السوري قليل العمق ، ومن مرشحى الفرنسيين . فانه قبل المشروع . ولكن الأغلبية العظمى فى مجلس النواب السوري عارضت هـذا المشروع ونقدته ورفضته . فما كان من دي مارتيل إلا أن أمر بتعطيل مجلس النواب الى أجل غير مسمى وجعل من الحكومة السورية هيئة تنفيذية، لتنفيذ ما يقوم هو بسنه وتخطيطه وأعلن أن الأحوال الإقتصادية فى سوريا تحتاج الى كل اهتمام، ولذلك فانه سيترك المشكلات السياسية جانبا حتى يتمكن من التفرغ لغيرها من المشكلات.
وكان ذلك بالفعل ، واستمر دى مارتيل يسير شئون البلاد ولمدة سنتين ، الى أن استجمعت الأمة قواها ، وأيقظته بثورة جديدة عارمة ، خاصة وأنه كان قد أخذ من الاجراءات السياسية أو المانعة للسياسة فى سوريا . ما يدفع بالسوريين الى هذه الثورة . لقد استخدمت الشرطة سلطتها لمهاجمـة مكاتب الحزب الوطنى وفى وقت كانت فيه النفوس هائجة ، فى أوائل سنة ١٩٣٦ ، والوطنيون يستعدون للاحتفال بذكري أحـد رجالاتهم . ولم تجد الشرطة ما يدين الحزب الوطنى ، ولكن السلطات أمرت باغلاق مكاتب هذا الحزب وألقت القبض على عدد كبير من الزعماء وأبعدتهم دون محاكمة ، وكما كان عليه الحال فى أول سنوات الانتداب . وكانت النفوس قد بلغت تلك المرحلة من التحمل التى لا يمكنها أن تتحمل بعدها ، فكان الإنفجار . وجاء رد الفعل وسريعا وبدأ باغلاق جميع الحوانيت والمحلات التجارية ، ثم الاضراب عن

العمل فى جميع أنحاء البلاد ، وتلى ذلك عمليات الاضطراب فى كل مكان . وكلما حاولت الحكومة استخدام الشدة للسيطرة على الموقف ، ازداد تشبث الوطنيين بموقفهم وبمطالبهم . ونشأت حركة للمقاومة السلبية عامة وشاملة ودام الاضراب مـــدة ستة أسابيع كاملة ، فاضطرت السلطات الفرنسية إلى التراجع .

لقد أجبر الموقف المفوض السامى الفرنسى على التصريح فى ٢٥ فبراير بأن فرنسا مستعدة للدخول فى مفاوضات مباشرة لعقد معاهدة مع سوريا ، وأنه على استعداد لإصدار عفو عام عن الجميع ،وعن المعتقلين السياسيين،وأنه يطلب من زعماء الحزب الوطنى التقدم للتشاور معه فى الأمر . وكان هذا التراجع نصراً كبيراً للوطنيين ، واتفق زعماؤهم مع دي مارتيل على ارسال وفدسورى الى باريس للدخول فى مفاوضات سريعة مع وزارة الخارجية الفرنسية وفى أقرب فرصة ممكنة .

وسرعان ما اتضح أمام الوطنيين أن الفرنسيين قد حاولوا تغيير وسائلهم، لا تغيير أسس سياستهم فى المنطقة . وشعر السوريون بمجرد بدأ مفاوضاتهم فى باريس في شهر مارس بأن الإختلاف لا يزال كبيرا بـــين فهم كل من الفرنسيين والوطنيين لمعنى المعاهدة . ورأي المفاوضون السوريون أن مشروع المعاهدة الذى تقدمت به وزارة الخارجية الفرنسية يختلف عن المعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٣٠ فى نصوص كثيرة وأساسية . كما رأوا أن هذه المعاهده لا تنص على الوحدة السورية ، ثم تأكدوا من أن فرنسا كانت غير مستعدة لارضائهم فى هذه النقطة الأخيرة ، ولكن الظروف تطورت فى فرنسا نفسها فى صالح الوطنيين السوريين ، حين تغيرت الوزارة وجاءت الجبهة الوطنية وعلى

رأسها بلوم للحكم . وكان بلوم يختلف عن دلادييه فى الشخصية والتكوين والاتجاهات ، كما كانت وزارته تختلف عن وزارة سلفه. وبدأت المفاوضات السورية الفرنسية من جديد ، وفى أفق أوسع .وفى جو أكثر تحرراً. وانتهت هذه المفاوضات بعقد معاهدة تحالف سورية فرنسية فى ٩ سبتمبر ، تلتها مفاوضات ثانية فى بيروت إنتهت بعقد معـــاهدة تحالف لبنانية فرنسية فى ١٣ نوفمبر .

ولقد كان وجه التشابه كبيراً بين هاتين المعاهدتين ، والمعاهدة البريطانية العراقية سنة ١٩٣٠ . ولقد نصت كل منها على أنها يبدأ العمل بها بعد ثلاث سنوات ، وبعد دخول كل من سوريا ولبنان عضوا فى عصبة الأمم. ونصت كل من المعاهدتين على أنها تحل محل نظام الإنتداب ويظل العمل ساريا بها لمدة ٢٥ سنة قابلة للتجديد وبموافقة الطرفين . إنها معاهدات بين دول مستقلة وتامة السيادة ، أى أنها تعترف بوحده سوريا وتمام سيادتها . وكانت كل من هاتين المعاهدتين تمنح فرنسا فى هـذا الاقليم العربى أو ذلك ، ما منحته معاهدة سنة ١٩٣٠ لبريطانيا فى العراق . ولكن اختلافا بسيطا ظهر بينهما ، وأظهر رغبة فرنسا فى الاحتفاظ بقواعد عسكرية لها فى لبنان أكثر منها فى سوريا ، وكان ذلك أمراً طبيعيا ، خاصـــة وأن لبنان كانت هى المنطقـــة الأولى اللازمة لفرنسا للوصول الى داخل البلاد . ولذلك فان المعاهدة مع سوريا قد أعطت للفرنسيين الحق فى الاحتفاظ بحامية فى منطقـــة جبل الدروز ، وبحامية أخرى فى منطقة اللاذقية ، أى الاقليم المجاور لحـــدود فلسطين ، والاقليم الذي يفصل سوريا عن لواء الاسكندرونة ، وهما الاقليمان الذى يتميز الأهالى فيها بمميزات إقليمية خاصة.

وأعطت هذا الحق لفرنسا لمدة خمس سنوات إبتداءا من ميعاد العمل بالمعاهدة كما أعطت لها الحق فى استخدام قاعدتين من القواعد الجوية فى سوريا، وطوال مدة العمل بالمعاهدة . أما فى لبنان فان المعاهدة اللبنانية قد سمحت لفرنسا بوضع أى عدد من قواتها العسكرية ، وفى أى منطقة ترغب، ومن أى سلاح من الأسلحة دون أى تحديد . وأخيرا فان فرنسا قد تعهدت بتعزيز وتأييد أمر دخول الدولتين العربيتين فى عصبة الأمم.

حقيقة أن هاتين المعاهدتين قد أقتسمتا سوريا إلى قسمين ، هما سوريا ولبنان، وكانتا بذلك ضد مبدأ الوحدة العربية . كما أنهما لم يحددا الحدود بين هاتين الدولتين الناشئتين وتركا بذلك الباب مفتوحا لمناقشات جديدة . ولكن طبيعة الأوضاع وطبيعة القوى الموجودة فى الميدان دفعت بالقوى الوطنية إلى عدم مناقشة هذه المسائل ، تدعيما للمعسكر الوطنى العربى ، فى رباط من التآخى ، بدلا من إثارة بعض العناصر والأقليات وبشكل قد يدفعها من جديد صوب الخارج وصوب الأجانب .

ولقد وافق كل من المجلس السورى واللبنانى على المعاهدة قبل نهاية سنة ١٩٣٦ ـ ولكن اضطرابات نشأت فى لبنان نتيجة لمطالبة بعض اللبنانيين بعوده أقاليمهم إلى الوضعية السابقة لسنة ١٩٢٠ ، أى فصلهم عن لبنان وإلحاقهم بسوريا . وانتشرت المظاهرات والاضطرابات فى طرابلس وبيروت ونزلت الجنود الفرنسية الى الشارع للمحافظة على النظام مما سهل على الحكومة اللبنانية تطبيق المعاهدة رغم المعارضة الموجودة فى المجلس وفى الشارع .

ولقد ظلت هاتان المعاهدتان أساساً للعلاقات الفرنسية السورية والفرنسية اللبنانية حتى الحرب العالمية الثانية ، وما حدث فيها من مشكلات ، وخاصة بعد تسليم فرنسا وقيام حكومة فى فيشى وحكومة فرنسا الحرة . ووصل العرب السوريون عن طريقها إلى حل مؤقت ، كما حدث فى العراق ، ولم يأتى الحل النهائى والأساسى إلا مع الحرب العالمية الثانية .

خاتمة الباب

يمكننا أن نقول بأن منطقة الهلال الخصيب كانت محطا لأطماع الدول الإستعمارية ، وخاصة بريطانيا وفرنسا . ولقد تبلورت هذه الأطماع حول العوامل الإقتصادية ، والعوامل الإستراتيجية .

ولقد أفادت الدول الاستعمارية بشكل عام ، وبريطانيا بنوع خاص من حركة نمو الوعى القومى العربى فى هذه المنطقة للعمل على فصلها عن غيرها والتفرس فيها . وكانت ظروف الحرب العالمية الأولى ، بما فيها من دبلوماسية واستراتيجية . وظروف العرب فى هذه الفترة من تاريخهم . عوامل تساعد بريطانيا على تحقيق أطماعها ، وإرضاء حليفتها فرنسا فى الشام .

وكانت فرنسا تشعر بقلقلة مركزها ، وضعف نفوذها ، فاستخدمت القوة وعملت على تقسيم منطقة نفوذها ، أو المنطقة الخاضعة لإنتدابها . أما إنجلترا فانها حاولت أن تنشىء لنفسها منطقة نفوذ بريطانية تمتد من وادي النيل عبر فلسطين والأردن إلى العراق والخليج العربى ، ومياه الهند .

وكان كفاح العرب فى منطقة الهلال الخصيب يتميز بتكتيك معين ، ويعتمد على المفاوضات والمعاهدات ، نتيجة لتكوين القيادة الوطنية فى هذا الإقليم ، وطبقيتهم ومصالحهم . وانتهى الأمر بهم فى الفترة

السابقة للحرب العالمية الثانية الى قبول العمل داخل الحدود الذى فرضها المستعمر عليهم ، مقطعاً بها جسد الأمة العربية ، وتناسى مبدأ الوحدة . ووصلوا الى عقد معاهدات تحالف ، مع الدول المنتدبة ، أو المستعمرة ، واضطروا الى ربط أنفسهم بعجلة هذه الدول لفترة جديدة . رغم حصولهم على السيادة والإسقلال .

الباب الثالث

فلسطين

لقد تنمر لفلسطين أكثر من مستعمر ، وتكالب اثنان من بينهم على هذا الإقليم سوياً . ورغم تفوقهما المادي والعسكرى ، فقـــد قام عرب فلسطين بالكفاح من أجل بلادهم وديارهم وأراضيهم . واستمرت المأساة حلقة بعـد حلقة ، ومرحلة بعد مرحلة ، والقوى متفاوتة ، حتى أنشب السرطان أنيابه فى المنطقة . وأخذ يهدد كل العرب .

الفصل التاسع

الاطماع الاستعمارية فى فلسطين

فلسطين جزء لا يتجزأ من الوطن العربى ، وأهلها أبناء للأمة العربية . وترجع عروبتها وعروبة أهلها إلى يوم ظهور العرب فى التاريخ ، واستمرت صلاتها ببقية أنحاء العالم العربى على مر العصور . وجاء الإسلام مدعماً لعروبة المنطقة وأهلها . وكانت فلسطين من أولى المناطق التى إتحدت فى الدولة العربية الأولى ، واعتزت بأسلامها مثل إعتزازها بحماية المسيحيين فيها .

هى منطقة من مناطق سوريا ، وأرضها متممة لشبه جزيرة سيناء . موانيها مخارج بحرية لأرض الهلال الخصيب العربى ، وبداية الطريق التجاري البرى القديم عبر الحجاز واليمن إلى المحيط الهندي .

عاشت خلال قرون طويلة متحدة مع بقية المناطق العربية المجاورة ولم تظهر على الخريطة فى شكلها الواضح المتميز الخطير إلا مع تسويات الحرب العالمية الأولى . ونتيجة لانتصار دول « الوفاق » أو « الحلفاء » على دول الوسط ، ونتيجة لأطماع الاستعماريين .

١ - اهمية فلسطين :

إن فلسطين تهم العرب أجمعين ، ولأسباب كثيرة . فهى أرض عربية منذ آلاف السنين ، وتلزم لمعيشة أهلها العرب قبل أن يستخدمها الاستعمار

لأبواء المشردين . وأراضيها وبساتينها ومنازلها ملك للعرب ، ومن الحق أن تعود لأصحابها ، وإن كره الظالمون ، كما أنها المعبر الطبيعي لوصل البلاد العربية بعضها ببعض ، والدعامة الماديه الاقليمية اللازمة لتوحيد دولة العرب فسواحلها تتمم سواحل مصر وسواحل الشام ، وأراضيها تسمح بوصل الحدود المصرية بالحدود السورية والأردنية ، بل تسمح بوصل كل من العراق وشبه الجزيرة العربية بالبحر المتوسط .

ولقد شعر الغرب الاستعماري بخطورة هذا الاقليم من قبل إعلان الحرب العالمية الأولى ، وعرف أن إنتزاعها من أيدى أصحابها الشرعيين يسمح له بالسيطرة على كل المنطقة العربية المحيطة ، والتحكم فى أهلها وأرزاق أبنائها .

وليست عملية إنتزاع فلسطين من أيدي العرب إلا عملية من عمليات الاستعمار التى ارتكبت باسم الانسانية المعذبة ، وأخفت وراءها عوامل الاقتصاد والاستراتيجية التى تستند إليها الحركة الاستعمارية فى كل ميدان .

أما من الناحية الاستراتيجية فنعلم أن بريطانيا قد عملت منذ نهاية القرن الثامن عشر على والاحتفاظ بنفوذ متفوق فى مناطق الشرق الادنى العربى ، والاحتفاظ بهذه البقعة فى حالة من الضعف تسمح لها بالمرور عبرها إلى مستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى ، وتعاونت قواتها البحرية ، فى البحر المتوسط ، وقواتها الاستعمارية فى الهند فى الهجوم على المنطقة من الشمال ومن الجنوب من البحر المتوسط ، ومن الخليج العربى ، والبحر الأحمر — للقضاء على كل قوة إقليمية تحاول اعادة بناء المنطقة أو تهدف الى إنشاء دولة قوية قد تتحكم فى يوم من الأيام فى خطوط المواصلات البريطانية . وكان هذا هو موقف بريطانيا من الحملة الفرنسية بقيادة بونابرت

وكان هذا موقفها من الأمبراطورية الأفريقية ـ الأسيوية التى أنشأها محمد على محاولا بها توحيد العرب من أعالى النيل إلى أعالى الفرات وأقامها سداً منيعاً أمام الاستعمار . لقد وقفت بريطانيا موقف العداء من هذه المحاولات ، خاصة وان مصر قد أنهجت لنفسها فى هذا العصر سياسة اقتصادية اشتراكية وركزت الصناعة وملكيـة الأراضى فى أيدى الدولة ورفضت الاعتراف بمبدأ حرية التجارة التى توصلت بريطانيا عن طريقه الى بناء أمبراطوريتها التى لا تغيب عنها الشمس . فألبت بريطانيا الدول على مصر وأعدت أسطولها فى البحر المتوسط ، وهجمت بقواتها الاستعمارية فى الهند على جنوب الجزيرة العربية واحتلت عدن ، كما أرسلت قواتها لمنع المصريين من الخروج الى الخليج العربى ومياه الهند . ثم عقدت معاهدة « بلطة ليمان » مع الباب العالى وحصلت منه فيها على الاعتراف بتطبيق مبدأ حرية التجارة فى جميع أنحاء الأمبراطورية العثمانية ، وأردفت ذلك بالهجوم على تلك الدولة الأفريقية ـ الآسيوية وأجبرت المصريين على العودة الى وادى النيل ، والسوريين على البقاء تحت الحكم العثمانى المباشر .

يمكننا أن نقول اذن ان الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة قد تعاونت مع العامل الاقتصادى ودفعت بريطانيا منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر الى التحالف مع القوى الرجعية فى المنطقة ، وظلت بريطانيا تطبق هذه السياسة ، حتى يومنا هذا سعيا وراء الاحتفاظ بالاقليم فى حالة من الضعف تسمح لها بالاحتفاظ بامتيازاتها وبمصالحها الاستراتيجية الاستعمارية .

وقفزت بريطانيا قفزة جديدة ، وأخذت وثبة عدائية أخرى بعد شق

قناة السويس للملاحة الدولية ، فبعد معارضتها للمشروع قامت فى سنة ١٨٧٥ بشراء نصيب مصر فى أسهم الشركة الدولية . واتخذت عملية تصدير رؤوس الأموال هذه سببا تستند اليه للتدخل فى المالية المصرية وتمهيداً واعداداً لاحتلال مصر ، الأمر الذى نجحت فى اتمامه فى عام ١٨٨٢ـ متحالفة مرة جديدة مع القوى الرجعية ، ضد الحركة الوطنية التى جاهرت بالثورة وعملت على تخليص مصائر البلاد من خراب محقق .

أمنت بريطانيا على خطوط مواصلاتها الاستعمارية باستيلائها على مصر وقناة السويس ، ولكنها شعرت بأن من يملك فلسطين يمكنه أن يهدد منطقة القناة ــ ووصل هذا الشعور الى مرحلة الخوف حينما بدأت المشروعات الألمانية تظهر واضحة جلية فى المناطق العربية من الأمبراطورية العثمانية . وتبلور هذا الخوف فى شكل عقدة واضحة حينما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمت الدولة العثمانية الى دواتى الوسط ، ضد دول الوفاق ، وقامت حركة وطنيــة لتخليص مصر من الاحتلال الأجنبى .

رأت بريطانيا أهمية فلسطين للدفاع عن مراكزها فى مصر عامة وفى قناة السويس بشكل خاص ، وشعرت بخطورة إتخاذ هذا الأقليم قاعدة للهجوم على مراكزها الاستعمارية فى مصر . وكان الحزب الوطنى فى مصر قد حاول التمهيد لنشوب ثورة وطنية فى الوقت الذي تصل فيه القوات العثمانية الى مصر من سوريا ، وفى الوقت الذي قامت فيه قوات عربيــة اخرى بالهجوم على البريطانيين من حدود مصر العربية . فعمدت بريطانيا الى الاستيلاء على فلسطين لوقف أى هجوم من الشرق ، وللدفاع عن قواعدها الاستعمارية على طول قناة السويس، وذلك في «الأراضي الصعبة» الفلسطينية

التى يمكن تحصينها والبقاء فيها أكثر من البقاء فى الأراضى السهلة المكشوفة فى سيناء . فكانت فلسطين فى هذه العمليه هى الخطوط العسكرية الأمامية للدفاع عن قناة السويس ولوقف كل هجوم يقع عليها .

وكان الإستيلاء على فلسطين يعنى إقامة قواعد برية جديدة تستند إلى الأسطول البريطانى فى البحر المتوسط وتواصل سيرها شرقا مع نظام من المخالفات صوب الخليج العربى ؛ أى أنها كانت رأس الطريق البري الموصل إلى مياه الهند . ومع هذا الطريق يمكن للأمبراطورية البريطانيـة أن تعيش أياما جديدة فى حالة توقف الملاحة فى القناة لسبب أو لآخر .

وخشيت بريطانيا من أطماع زميلتهـــا الإستعمارية فرنسا فى الاقاليم السورية ، وخافت من إمتداد النفوذ الفرنسى جنوبا صوب قناة السويس ، التى لا يزال الفرنسيون يبكون حتى اليوم أنهم عملوا على تنفيذها ، وجاءت بريطانيا لكى تحتلها . وكان الاستيلاء على الجزء الجنوبى من الشام ، أي فلسطين ، يعتبر تأمينا للمصالح الاستراتيجية الاستعمارية لبريطانيا ، أمام زميلتها وحليفتها الأوربية .

ولكن امتداد الآراء التحررية العربية كان يهدد بانتقال زعامة وقيـادة هـــذه الحركة من أيدى أنصار بريطانيا إلى أيدى قادة جدد قد يظهرون فى سوريا أو العراق أو وسط الجزيرة ، وقد ينجحون فى تخليص بلادهم من المستعمر من الأجانب ، ومن أعوان الإستعمار . ولذلك فان أنشاء وحدة إدارية خاصة فى فلسطين كان يعنى قطع طريق وصول العرب إلى سواحل البحر المتوسط ، خاصة إذا وضعت بريطانيا هذا الاقليم تحت

أدارتها المباشرة . ونجحت فى انشاء حكم محلى موال لها فى الداخل ، فى شرق الأردن ، وفى العراق . إن هذه الخطة تسمح بوقف السعوديين ومنعهم من الوصول إلى البحر المتوسط ، ومن الاتصال بمصر ، وتسمح لكل من السلطات العراقية فى بغداد والأردنية فى عمان ، والبريطانية فى فلسطين ، بمراقبة الواحدة الأخرى . وتمكن بريطانيا بما لها من نفوذ فى هذه الأقاليم من مكتب كل حركة تحررية تنشأ فى أى منها ، مستندة فى ذلك إلى قاعدتين فاذا قامت حركة وطنية عربية فى فلسطين قامت قوات شرقى الأردن باعادة « النظام » إلى نصابه ، وإذا قامت حركة فى الأردن تقوم القوات البريطانية فى فلسطين والقوات الهاشمية فى العراق بكبتها . واذا قامت حركة فى العراق قامت بريطانيا بكبتها من الأردن ، ومن الخليج العربى .

تلك هى المزايا الاستراتيجية التى يمكن لبريطانيا أن تحصل عليها من إستيلائها على فلسطين مهما كان اللون الذي حاولت بريطانيا أن تعطيه لهذا الإستيلاء ؛ وتلك هى الإمكانيات التى تسمح لبريطانيا بالسيطرة على الشرق الأدنى العربى ، مادامت أقدامها ثابتة فى فلسطين العربية . وساعدت هذه العوامل على انشاء فلسطين بالشكل المعروف على الخريطة بعد الحرب العالمية الأولى بحدودها المتاخمة لكل من لبنان وسوريا ، وبسواحلها المطلة على البحر المتوسط ، وبامتداد حدودها جنوبا مجاورة لشبه جزيرة سيناء لفصل مصر عن عن شرق الأردن وعن بقية البلاد العربية . أما فى الشرق فأن حدودها محمية تماما بشرقى الأردن أمام رجال الصحراء العرب . ولم تكن هذه الحدود الشرقية تعوق بريطانيا فى شىء اذا أنها تفصل منطقة حكم بريطانى مباشرة : (فلسطين) ، عن منطقة حكم غير مباشر : (شرقى الأردن) ، وتسمح لبريطانيا

الوصول الى مياه الخليج العربى ، ومياه الهند ، عن طريق أعوان لهـــا فى الداخل .

أما من الناحية الإقتصادية فان سواحل فلسطين تعتبر المخارج الطبيعية لمنتجات اقليم الهلال الخصيب ، الذى يشتمل على كل من سوريا والعراق . ولسنا نقصد هنـا مجرد الموالح والفواكه ، وتمر العراق ، ولـكننا نقصد البترول الذى اكتشف فى منطقة ما بين النهرين قبل الحرب العالمية الأولى ، والذى رسمت بريطانيا أمر الاستيلاء عليه وتسخر العرب فى استخراجــه لخدمتها وخدمة صناعاتها . وقررت بريطانيا أمر وصول البترول العربى ، الى سواحل البحر المتوسط عند حيفا ميناء فلسطين العربى ، تمهيداً لشحنه ، على الناقلات الى أوربا . وكان هذا المشروع الاستغلالى يتطلب الاحتفـاظ بفلسطين تحت الحكم البريطانى . وعدم تسليمها الا لأعوان تثق بريطانيا فيهم مثل وثوقها فى نفسها .

٢ – مخلب القط

بدأ الاحتكاك الحضارى بين الشرق العربى والعالم العربى فى أثناء القرن التاسع عشر . ونتج عنه اعتزاز العرب بشخصيتهم ، ومعرفتهم سوء أحوالهم ، ومحاولتهم العمل على الاصلاح والانتاج .

نشأت حركة عامة لليقظة فى الشرق الأدنى ، ولكنها إنقسمت إلى اتجاهين نتيجة لتكوين القائمين عليها والموجهين لها .

الاتجاه الأول هو اتجاه القوميين العرب الذين استقوا العلم فى المعاهد الأجنبية أو فى البلاد الأوربية وشعروا بفضل وطأة الحكم العثمانى عليهم وحاولوا الوصول الى التمتع بالحكم الذاتى ، والاعتراف بلغتهم العربية لغة رسمية ،

وقصر الخدمة العسكرية على أقاليمهم والاشتراك فى حكم الامبراطورية العثمانية . كانوا يدينون بمبدأ « الدين لله والوطن للجميع » ، ومبدأ المساواة بين الأجناس والديانات التى تسكن الامبراطورية على أساس مدنى لا دينى ، واحترام كل منطقة لأهالى ولقومية المناطق الأخرى . وكان نشوء هـــذه القومية فى العصر الحديث أو عودة ظهورها مرة جديدة أمراً طبيعياً وخاصة فى الوقت الذى بدأت فيه القوميات فى الظهور متبلورة فى وسط أوروبا ثم فى منطقة البلقان . وساعدت الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإستراتيجية على ظهور هذه الحركة بشكل له قيمته ومقوماته فى السنوات الأولى من القرن العشرين .

أما الإتجاه الثانى فهو اتجاه رجال الاصلاح من المسلمين الذين تمتعوا بثقافة شرقية متعددة النواحى وبدراسات إسلامية تعتمد على المنطق وترفض الخضوع للجمهور . رأى هؤلاء الزعماء من أتباع السيد جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده أن الاسلام يصلح لكل زمان ومكان وأنه من المرونة والعدالة بحيث يتمشى مع كل مقتضيات الحياة وشعروا بتكالب الدول الاستعمارية على العالم وقاسوا من رؤية إقتطاع أجزاء من جسد الأمة الأسلامية لكى ترسف فى اغلال الاستعمار الغربى ،أخذت روسيا القيصرية فى التوسع فى المناطق الاسلامية فى وسط آسيا ، أما فرنسا فأنها قد احتلت الجزائر ثم أعلنت حمايتها على تونس ، وأخذت فى الاستعداد للسيطرة على المغرب الأقصى ، وأما انجلترا فانها قد خلقت الذرائع للتدخل فى شئون مصر ثم احتلالها والتوسع منها صوب الجنوب للسيطرة على السودان وأعالى النيل ، وأما ايطاليا فانها قد أرسلت قواتها سنة ١٩١١ واستولت على ولايتى برقة

وطرابلس . وكذلك فعلت اسبانيا فى العام التالى لاحتلال المنطقة الشمالية من المغرب ، منطقة الريف .

كان من الطبيعى أن يسير ذوو الاتجاه العربى فى خط كفاح ضد الحكم العثمانى المباشر ، وكان من الطبيعى أيضا أن يحاول أنصار الاتجاه الثانى تكتيل العالم الاسلامى حول دار الخلافة العثمانية لوقف اعتداء الدول الاستعمارية ولتكوين كتلة قوية تدافع عن نفسها .

وظهرت طلائع الحرب العالمية الأولى والشرق الأدنى منقسم على نفسه إلى دائرتين : احداهما داخل الأخرى . كانت الدائرة الصغيرة تضم البلاد العربية التى تحاول الحصول على استقلالها أى أنها تسير فى حركة انفصالية عن جسد الدولة ، أما الدائرة الخارجية فكانت تضم البلاد الاسلامية وتحاول تجميعها حول الإمبراطورية العثمانية . حركة إنفصالية فى المركز تتجه صوب الخارج ، وحركة تكتلية حول المحيطات وتتجه صوب الداخل .

وجاءت الحرب وتحالفت فيها كل من انجلترا وفرنسا والروسيا فى أحد المعسكرات ، وانضمت إليهم ايطاليا فيما بعد . فكان من الطبيعى أن تنضم الدولة العثمانية إلى المعسكر المضاد : معسكر دول الوسط .

وأدي إعلان الحرب إلى إجبار أبناء الشرق الأدنى على تقرير موقفهم فظهر الإنقسام واضحا بين الدائرتين ، وأفادت منه الدول الاستعمارية الغربية بشكل عام وبريطانيا بشكل خاص .

وكان النفوذ الألمانى قد إزداد فى الشرق الأدنى فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وفى أوائل القرن العشرين . وأصبح فى وسع

النفوذ الألمانى أن يصل عن طريق سكة حديد بغداد عبر الأناضول والعراق إلى الخليج العربى ، أى أن يصل إلى مياه الهند ، وجاء مشروع سكة حديد الحجاز لكى يسهل وصول العثمانيين والألمان إلى جنوب الجزيرة العربية وعدن وزاد الموقف خطورة بعد وضع مشروع لربط هذه السكة الحديدية بالبحر المتوسط فى شمال سوريا .

لقد أصبح من السهل على العثمانيين التقدم جنوبا حتى فلسطين ومهاجمة مصر منها . وأصبح من السهل عليهم كذلك الوصول عبر الحجاز إلى اليمن ومهاجمة عدن . وكانت حركة الجهاد الإسلامى التى قادها السيد «محمد بن عبد الله حسن » لا تزال مستعرة فى الصومال، وكان فى استطاعتها التعاون مع العثمانيين فى اليمن للقضاء على مراكز البريطانيين فى عدن وفى بربرة ، وكان فى مقدورها من ناحية أخري أن تتعاون مع الألمان فى تنجانيقا لكى تحصر البريطانيين فى كينيا بين نارين . وزاد الأمر خطورة أن إنضم السيد « أحمد الشريف السنوسى » فى ليبيا إلى الدولة العثمانية وأصبح نائب الخليفة في كل شمالى إفريقية كما إنضم السلطان « على دينار » ، سلطان دارفور إلى حركة الجهاد وهدد بالسير شرقاً لتحرير الخرطوم من البريطانيين أما الحبشة نفسها فقد استعد ملكها « ليج يسوع » للانضمام الى معسكر دول الوسط ، بعد أن أعلن إسلامه واستعداده لمحاربة الحلفاء .

وجدت بريطانيا صعوبة فى الاحتفاظ بمراكزهـــا فى الشرق الأدنى وخشيت على مراكزها الاستعمارية فى مصر وفى السودان وفى عدن وفى الصومال وفى كينيا . وكانت السياسة العثمانية الاسلامية تهددها بخلق مشاكل عويصة فى الهند . فدرست بريطانيا الموقف وقدرت ضرورة العمل

على قطع خطوط المواصلات الاستراتيجية للعثمانيين فى الشرق الأدنى .

كانت المنطقة التى تهم بريطانيا أكثر من غيرها هى تلك المنطقة التى سيهجم منها الأتراك على مراكز البريطانيين فى مصر وعلى قواعدهم بجوار قناة السويس ، كانت هى فلسطين . فتلكن اذن ميدان المعركة ، ولتحتفظ بها بريطانيا لتأمين مراكزها وقواعدها الاستعمارية فى مصر ، ولإنشاء رأس جسر لطريق برى يصلها بالهند عبر البلاد العربية .

وفضلت بريطانيا أن تكسب العرب إلى جانبها مادام هناك خلاف فى الرأي بين أنصار العروبة وأنصار الإسلام فى المنطقة ، وذلك لكى تضمن عدم اعتداء العرب على قواتها المحاربة فى فلسطين ، أو تضمن على الأقل عدم مساعدتهم للاتراك . وكان على بريطانيا فى نظير ذلك ألا توافق على المطالب والأمانى التى ينادى بها العرب .

واذا ما توصلت بريطانيا الى تحالف مع أحد رؤساء العرب ، فان مركزها سيزداد قوة ، وقد يساعدها من الناحية العسكرية فى العمليات الحربية فى جنوب سوريا ويوفر عليها عدداً من القتلى والجرحى . وبحثت بريطانيا فى المنطقة فوجدت أن الشريف حسين بن على هو أحسن من يقوم بهذه العملية خاصة وأنه من الأشراف وكان يحتل مكانة محترمة فى البلاد العربية ، ويمكنها أن تساعده بالأموال والأسلحة من بور سودان عبر البحر الأحمر لإعداد قوات من المتطوعين يزحفون شمالا ويشتركون فى عمليات فلسطين . وكان فى استطاعته أن يقضى على كل مشروع عثمانى يهدف الوصول الى اليمن وعدن . وكان اعلان الثورة من شريف ، وفى الحجاز ، ومن مكة المكرمة ، وعلى دولة الخلافة الإسلامية يمثل ضربة قوية للسياسة العثمانية القائمة على

تكتيل العالم الاسلامى للجهاد ضد الدول المستعمرة الغربية .

وقع إختيار البريطانيين إذن على الشريف حسين للقيام بدور مخلب القط وكان فى استطاعة البريطانيين أن يسيطروا على تحركاته ماداموا هم مزوديه بالأموال والأسلحة والذخائر والخبراء العسكريين . وأفادت بريطانيا من الانقسام الإقليمى فى منطقة الشرق الأدنى ، بين أنصار العروبة وأنصار الاسلام لتأمين مراكزها الاستعمارية ،ولزيادة نفوذها فى المنطقة ، ولاقتطاع فلسطين العربية .

٣ ـ تعهد الحلفاء :

كان الشريف حسين يمتاز بالطموح ، وظهرت أطماعه فى الاستقلال بادارة الحجاز وحكمه واضحة من قبل إعلان الحرب العالمية الأولى ، وكان أبناؤه يمتازون بالطموح مثله .

ولقد تطوع الأمير عبد الله بن الحسين بزيارة كتشنر ، المندوب السامى البريطانى فى مصر ، وذلك فى شهر فبراير سنة ١٩١٤ فى القاهرة وهو فى طريقة إلى حضور مجلس « المبعوثان » فى القسطنطينية. وفاتحه فى ضرورة قيام العرب بثورة ضد الأتراك ، وحاول معرفة موقف انجلترا تجاه مثل هذه الحركة . ثم تبسط أكثر من ذلك مع أحد أعوان كتشنر فى دار القنصلية البريطانية العامة ، وفاتحة فى ضروره تزويد بريطانيا لهم بالأسلحة وبخاصة المدافع الرشاشة . وكان هذا أكبر مشجع لبريطانيا على تنفيذ مشروعاتها مادامت قد وجدت فى المنطقة من يحمل السلاح بدلا عنها ، ويقاتل بدلا عن جنودها ، ويفتح الطريق أمام قواتها المتقدمة دون صعوبة .

لم تعط بريطانيا أى رد إيجابى على مفاتحات عبد الله ، ولكنها وثقت من إمكانية محاربة العرب للأتراك ، ومن إمكانية ضرب القوى الاقليمية الواحدة بالأخرى . ومن إمكانية الافادة من هذا الموقف . وأيد كتشنر فكرة التحالف مع العرب أو استغلالهم فى محاربة الأتراك . وحينما شغل كتشنر منصب وزير الحربية البريطانية اتصل بالشريف حسين وعمل على إغرائه للبدء فى حركته . فعمل حسين على كسب الوقت حتى يتصل بزعماء الحركة العربية فى شبه الجزيرة وفى سوريا وفى العراق . وذكر أنه سيقوم بالثورة فى حالة تشبث الأتراك ضده ، وعلى شرط أن تعده بريطانيا بمساعدة فعالة . فوعد كتشنر الحسين فى آخر أكتوبر سنة ١٩١٤ بأن بريطانيا تضمن بقاءه فى منصب شريف مكة ، وتضمن له كل حقوقه وامتيازاته ، وتتعهد بالدفاع عنه ضد كل إعتداء فى حالة دخوله الحرب إلى جانب انجلترا وضد تركيا . كما أنه وعد بتأييد العرب فى محاولتهم الحصول على حريتهم ، ولكن بشرط اعلانهم تحالفهم مع بريطانيا . وأكد للشريف امكانية اعتراف بريطانيا به اذا ما أعلن نفسه خليفة للمسلمين

فتحت بريطانيا اذن المجال أمام الشريف حسين للتفكير فى بقية العالم العربى وفى امكانية وصوله لعرش الخلافة الاسلامية . وكانت تفكر فى مصالحها وفى امكانية استغلاله واستغلال رجاله فى الوصول الى أهدافها . فوافق حسين على فكرة التحالف وأخذ فى تنظيم رجاله واعداد الخطة .

وأعلنت الدولة العثمانية الجهاد ، وحثت المسلمين على الالتفاف حول الخلافة والدفاع عن البلاد الاسلامية والعمل على تطهيرها من المستعمرين الدخلاء . ونشط الرجال لتكتيل الشعور الاسلامى والعمل على فضح نيات

الأجانب والأعداء . وأرسلت الحكومة العثمانية تطلب من حسين اعلان الجهاد . ولكنه عمل على كسب الوقت مدعياً بأن الأساطيل البريطانية قد تقوم بمهاجمة موانى الحجاز . واتصل فى نفس الوقت سراً بونجت ، السردار البريطانى للجيش المصرى ، والحاكم العام للسودان ، وعرف أن بريطانيا ستزوده بالأموال والأسلحة ثم اتصل بزعماء الحركة العربية فى سوريا والعراق لمعرفة امكانية قيامهم بثورة ضد الدولة العثمانية أو عقدهم لتحالف مع الدول الغربية . فاشترطوا ضرورة اعتراف بريطانيا باستقلال البلاد العربية فى كل من الشام والعراق حتى الخليج العربى والمحيط الهندى ثم البحر الأحمر ، وحتى سواحل البحر المتوسط من جديد ، كما اشترطوا الغاء نظام الامتيازات الأجنبية ، ووافقوا على عقد تحالف دفاعى مع بريطانيا فى حالة إعترافها بهذه الدولة العربية المستقلة . كما أعربوا عن موافقتهم على تفضيل بريطانيا على غيرها فى مشروعات الاستغلال الاقتصادي . وفوضوا الى حسين أمر التفاهم مع بريطانيا على هذه الأسس .

كان معنى تفضيل بريطانيا فى مشروعات الاستغلال الاقتصادي فتح الباب أمامها لاستغلال البترول العربى . أى أن قيادة الحركة العربية قرروا الحصول على حرية بلادهم السياسية من الدولة العثمانية وقبلوا ترك الموارد الاقتصادية فى أيدى مستغلين أجانب . كان البترول العربى يتطلب الحصول على مخرج له على البحر المتوسط وقد تدفع بأن الشبان الوطنيين العرب لم يفكروا فى ذلك الوقت فى أن بريطانيا ستعمل على وضع « مخارج » أنابيب البترول والمنطقة التى تصل إليها تحت سيطرتها المباشرة ، ولكن هذا الدفع تعني تبريراً لأخطاء ارتكبت ، أو تستر على جهل ، وكان على قادة الحركة

العربية أن يحسبوا للعوامل الاقتصادية والاستراتيجية كل حساب، خاصة وأن تعجلهم فى إختيار الشريف حسين كممثل لهم ومتحدث باسمهم — رغم أن ظروف تكوينه ومصالحه قد اختلفت عن ظروف تكوينهم ومصالحهم — كان يدل من ناحية أخرى على قصور فى عمق التفكير السياسى، ويدل على سيرهم وراء العواطف أكثر من تقديرهم لعناصر الموضوع بحكمة وروية.

ظهر الإنقسام واضحا فى الشرق الأدنى بين الدائرتين التى يتكون منهما الاقليم: الدائرة العربية والدائرة الاسلامية. ولقد مثلت مصر نفسها هذا الانقسام فى أجلى معانيه فى ذلك الوقت بين رجالها السياسيين، بل وبين رجال قواتها المسلحة. ويظهر ذلك من انضمام بعض رجال خفر السواحل المصريين إلى قوات الجيش الرابع الزاحف بقيادة جمال باشا، وانضمام غيرهم إلى قوات السنوسيين فى هجومهم على القوات البريطانية من الغرب، وذلك فى الوقت الذى وضعت فيه حكومة القاهرة، تحت نظام الحماية، كل امكانيات مصر فى خدمة السلطات العسكرية البريطانية. ويمكننا أن نضيف موقف حكومة القاهرة فى ذلك الوقت إلى حركة الشريف حسين لكى نلمس بوضوح بعض العوامل الهامة التى سهلت على بريطانيا احتلال فلسطين.

وأخذ الشريف حسين فى مراسلة السلطات البريطانية فى مصر بشأن مطالب العرب وتحقيق أمانيهم القومية ويعرف التاريخ المعاصر تلك الخطابات التى تبادلها مع السير هنري مكماهون، والتى عرض فيها مطالب العرب فى وقت تأزم فيه الموقف أمام البريطانيين فى مصر وفى شرق إفريقية بل وفى أوربا نفسها. واعتقد البريطانيون أن حسيناً لا يتحدث باسم الحجاز، وأنه

يواصل أطماعه وأمانيه للاستقلال بهذا الاقليم ، ولإعلان نفسه خليفة على المسلمين . ولكن حسيناً ثار لهذا الموقف وشرح أنه المتحدث الرسمى باسم الحركة العربية ، ونادى بضرورة إعتراف بريطانيا باستقلال الدولة العربية وبحدودها الطبيعية من البحر المتوسط إلى المحيط الهندى ، ومن حدود فارس إلى سواحل البحر الأحمر . وشعر البريطانيون أنه يستند إلى قادة الحركة العربية وإلى زعمائها ، ورد عليه السيد هنري مكماهون بخطاب هام فى ٢٤ من أكتوبر سنة ١٩١٥ أبلغه فيه تعهد بريطانيا بالاعتراف باستقلال العرب، وبتأييدها لهذا الاستقلال داخل المنطقة التى حددها الشريف ، ولكن باستثناء بعض مناطق آسيا الصغرى وسوريا . وأظهرت بريطانيا تحفظها بشأن بعض الأجزاء التى ترتبط معها بمعاهدات سياسية . ويعتبر هذا الخطاب مذكرة رسمية لها صفة دولية ، وترتب على ذلك دخول العرب إلى جانب الحلفاء . وازدادت أهميته بعد نهاية الحرب وفى الوقت الذى حاول فيه الانجليز الرجوع فيما وعدوا به ، وحينما عمدوا إلى تفسيره بشكل يتفق ومصالحهم ، ويجعلهم يتحكمون فى العرب وفى منطقة الشرق الادنى بأكلها .

وإن ما يهمنا هنا هو أن البريطانيين قد رفضوا الإعتراف بادخال هذه الأجزاء الشامية الواقعة إلى الغرب من مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب داخل حدود الدولة العربية . ولكن الشريف حسيناً رفض هذا الموقف ونادي فى مذكرته التالية فى ٥ من نوفمبر بضرورة الإعتراف بها كأجزاء من هذه الدولة المقبلة . فأصر الانجليز على موقفهم ، وذكروا أن هذه المنطقة تهم المصالح الفرنسية . ومع هذا الاصرار من جانب البريطانيين نجد أن الشريف حسيناً يعرض تأجيل هذه المسألة إلى ما بعد الحرب ، بدعوي خوفه

من أن تفلت من يده فرصة إحتياج البريطانيين لمعاونته لهم في الحرب حقيقة أن هذه المنطقة كانت تخص سوريا ولبنان ، ولا تتعلق بفلسطين ، ولكن تركها بشكل معلق وعدم تقريرها بشكل واضح قد أعطى لبريطانيا فرصا لخلق تعقيدات ولتبرير موقفها ولخدمة أطماعها . وفي فلسطين .

ولقد استمر النقاش حول موضوع حدود هذه الدولة ، وخاصة بالنسبة لفلسطين ، لمدة سنوات طويلة بعد وقوع المأساة ، وأكد العرب أن بريطانيا قد اعترفت بدخول ذلك الاقليم داخل حدود الدولة العربية ، بينما تنصل الانجليز بأنهم لم يعترفوا بذلك .

والحقيقة هي أن مكماهون قد قبل حدود الدولة العربية في مجموعها كما عرضها الشريف حسين ، ثم أظهر تحفظه تجاه بعض أجزاء ومناطق منها . وهذا يدعو الى تأييد وجهة النظر العربية ، وهو الاعتراف الرسمي بعروبة هذ الاقليم ودخوله في نطاق الدولة العربية التي تعهدت بريطانيا بالاعتراف بها وبتأييدها لاستقلالها . مادامت مراسلات مكماهون لم تنص عليه أو حتى تلمح اليه في تحفظاتها الخاصة . ذلك أن هذه المراسلات لم تشتمل على كلمة فلسطين أو حتى سنجق بيت المقدس حسب التسميه الادارية العثمانية في ذلك الوقت ، رغما عن تحديدها لمناطق أخري معينة حاولت إخضاعها لشروط ولتحفظات . وإن صمت مكماهون عن الاشارة لهذا الاقليم لدليل على إعتراف بريطانيا به داخلا في نطاق الدولة العربية التي تعهدت بضمان استقلالها .

ولقد ظهرت هذه الحجج فيما بعد ، وعند مناقشة الوعود البريطانية ، وعند مطالبة العرب لبريطانيا تنفيذها . ولم نذكرها هنا إلا لأنها ثغرات عمد المستعمر « الحليف » الى أن ينفذ منها الى قلب البلاد العربية ، ويستغل

عن طريقها مجهودات العرب .

وعلى أي حال فان الشريف حسينا قد هيأ نفسه للقيام بدور خطير في منطقة الشرق الأدنى : دور الثورة والثقة العمياء بالمستعمرين الغربيـــين ، والبريطانيين منهم بنوع خاص ، وكان من قصر النظر الى درجة عجزه عن رؤية معنى قيامه بهذا الدور ، دور مخلب القط في أيدى المستعمرين ، والمعركة تتركز في فلسطين . أما قيمة العهد فكانت تتوقف على شرف من يقطعه على نفسه . وكانت بريطانيا قد تعودت قطع العهود دون أن تفكر في تنفيذها .

الفصل العاشر

بريطانيا والانتداب

عرفت بريطانيا كيف تستغل القوي الموجودة فى العالم العربى وفى فترة الحرب العالمية الأولى أحسن استغلال . وأفادت من الفرقة الموجودة فى الإقليم لكى تعمل على ضرب كل وحدة بالوحدة الأخري ، وتسخيرها لخدمة مصالحها الامبراطورية . وتعاونت بريطانيا مع القيادة العربية فى الحجاز ، وتمكنت عن طريقها من تغيير التوازن فى البلاد العربية . ولكن بريطانيا أخفت عن أعوانها اتفاقاتها مع الدول الأوربيه الأخرى ، ووعودها لليهود، وكان هذا نفاقا لم يظهر إلا فيما بعد الحرب وفى وقت فرض نظام الانتداب على فلسطين .

(١) التعاون : ــ

لقد واصل الشريف حسين سياسة كسب الوقت لكى يتم استعداده الحربى ولكنه استند إلى تذمر السوريين من الحكم التركى لكى يعلن الثورة . وبعد استيلاء قواته على الحجاز ، سارت شمالا بقيادة ابنه فيصل صوب فلسطين . وكانت ثقة الشريف حسين فى حلفائه ثقة عمياء ، رغم أنهم كانوا قد ردوا على اعلانه نفسه ملكا على البلاد العربية ، بالاعتراف به ملكا على الحجاز فقط. وكان من واجبه أن يفتح أعينه للمناطق الجديدة التى سينتقل اليهـــا ميدان العمليات ، خاصة وأن حلفاءه لا يعترفون بدخولها فى نطاق دولته .

ويعتبر استيلاء قوات الشريف حسين على العقبة بداية دخولهم الحرب ،

وتعاونهم مع الحلفاء . واعتمد العرب فى هجومهم على هذه المدينة على المفاجئة، ورغم نقص تموينهم وانهاكهم الجسدي فقد تمكنوا من الانتصار على الكتيبة التركية المعسكرة هناك والتى أصبحت قوتها موزعة بين القتلى والجرحى والأسرى . وانتقل مسرح الحوادث إذا من الحجاز الى الشام، وأصبح جيش فيصل يكون ميمنة القوات البريطانية التى تقدمت من مصر لاحتلال فلسطين ثم كان عليه أن يشغل القوات العثمانية فى الشمال حتى يسهل تقدم قوات اللورد اللنبى من الجنوب . وكان على فيصل أن يعمل بطبيعة الحال فى توافق مع خطط هذا الجنرال البريطانى .

وكانت القوات البريطانية فى مصر قد قابلت صعوبات كبيرة فى العـــام السابق حينما حاول السير « أرشيبالد موري » التقدم وراء الأتراك فى سينا ثم تمكنت فى أوائل سنة ١٩١٧ من الوصول إلى حـدود فلسطين ولكنها فشلت فى الهجوم الذى شنته فى شهرى مارس وأبريل على غزة . فسحبت بريطانيا هذا القائد وعينت « اللنبى » مكانه . ووصل هذا القائد الجديد إلى القاهرة فى أواخر شهر يونيو وما أن استلم قيادته حتى بلغته أنباء استيلاء العرب على العقبة . فاستغل « اللنبى » هذا الانتصار العربى لتأمـين ميمنته . وتحولت العقبة إلى قاعدة للحلفاء ، وخاصة بعدأن أنشأ البريطانيون المطارات إلى جوارها ، ونصبوا فيها أجهزة اللاسلكى ، وأقاموا على الساحل مقالات لتفريغ المهمات والتموين من السفن . وأصبحت القوات العربيــة فى العقبة هى تلك القوات التى أتم الخبراء الأجانب تدريبها فى منطقة « الوجه » ، وأضاف البريطانيون إليها بعض قوات من البدو كانوا قد جندوها من سيناء وجنوبى فلسطين لكى تصبح نواة الفيلق العربى فيما بعد . ولم يتباطئوا فى ارســال الضباط والخبراء لقيادة تشكيلات المصفحات والطـيران ووحدات الهجانة

التى كانت قد أثبتت جدارتها فى السودان وعلى الحدود المصرية .

وأصبحت المسافة بين فيصل وخطوط البريطانيين فى فلسطين لا تزيد على مائة وخمسين ميلا ، واتصلت قيادته بقيادتهم بالطيران واللاسلكى . وكان عليه أن يشغل القوة العثمانية الموجودة أمامه فى معان حتى يوفر على البريطانيين عناء نزالها أو حتى تعب لقائها . وظهرت قواته وكأنها احتياطى للقوات البريطانية التى تهدف فلسطين .

وقامت السلطات البريطانية فى مصر بحملة دعائية قوية ، واتصلت بشيوخ العرب ورؤساء العشائر فى جنوب فلسطين ، ودعتهم إلى عدم التعاون مع الأتراك وانتظار مجىء الحلفاء ، وأخذت الطائرات البريطانية فى القاء المنشورات على معسكرات العثمانيين داعية الجنود والضباط العرب فيها إلى الهرب والانضمام إلى قوات الشريف . وواصل فيصل هذه السياسة ودعا رؤساء العشائر فى سوريا إلى عدم التعاون مع العثمانيين . وقد أعطت هذه السياسة نتائجها . فنجد أن فرسان العرب الذين يحاربون مع الاتراك فى « بير سبع » يبتعدون عن أرض المعركة ثم يعودون إلى الظهور فى ميمنة القوات البريطانية أمام غزة مما اضطر الأتراك إلى الانسحاب فى أكثر من موقعة . وواصل الجنود العرب فرارهم طوال فترة تقدم اللنبى صوب القدس ، وانضم بعضهم إلى البريطانيين وانضم الآخرون إلى معسكرات فيصل فى العقبة . فأصبح العثمانيون وكأنهم يحاربون فى أرض غريبة معادية فى أثناء محاولتهم صد التقدم البريطانى فى فلسطين . أما البريطانيون فقد اعترفوا بأن حملتهم كانت تسير بين شعوب موالية .

وتمكنت قوات اللنبى من الاستيلاء على غزة والخليل ويافا وبيت لحم فى

يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩١٧ ، وعند نهاية هذا العام كانت كل فلسطين قد خضعت للاحتلال البريطاني .

وكانت بريطانيا قد اعتمدت على موارد مصر البشرية والاقتصادية في مواصلة عملياتها في فلسطين ، وجندت لذلك فيلق العمال واستولت على الأغذية بمصادرتها من الأسواق ومن الملاك . وكان انشاء خط السكة الحديدية أكبر مساعد لها على القيام بعملياتها وهى مستندة إلى قواعدها العسكرية الاستعمارية في مصر .

وكان ترحيب الأهالى بمجيء الانجليز إلى فلسطين عاملا آخر يساعدهم على التوغل . ولقد تطوع بعض الأعراب بتزويد البريطانيين بالمعلومات عن أماكن القوات العثمانية وقوتها وتحركاتها . وأنشأت القيادة البريطانية ادارة للتطوع في قوات الأمير فيصل العربية من بين أهالى فلسطين ، ولعب الحاج أمين الحسيني دوراً كبيراً في تجميع هذه القوة العربية الجديدة وتنظيمها .

وواصلت قوات فيصل محاصرتها لمعان ، وأحكمت حصارها خوفا من وصول امدادات جديدة لها . كما قامت قوات أخيه باحكام الحصار حول المدينة التي كانت الحامية العثمانية لا تزال تدافع عنها . ولقد فشلت الحاميات العثمانية في كل من هاتين المدينتين في الخروج منها ومجابهة البريطانيين .

وعمد فيصل إلى مهاجمة خط السكة الحديدية بين عمان ومعان . وإلى الجنوب من معان كما عمد إلى تحطيم الاستحكامات المنشأة حول هذه المدينة . وبهذا تكون القوات العربية قد شغلت نصف القوات العثمانية الموجودة في الأقاليم العربية ، وحمت ميمنة البريطانيين من أى هجوم عليها ، وسدت الطريق أمام القوات العثمانية ومنعتها من القيام بأي حركة التفاف أو هجوم على

البريطانيين من الخلف ، وقطع خطوط رجعتهم إلى مصر . وأما الأتراك فقد رأوا قواتهم منقسمة واضطروا إلى بذل نصف مجهودهم فى الحرب ضد العرب بدلا من الاحتفاظ بكل قوتهم لمواجهة البريطانيين .

وانتظر اللنبى مجىء إمدادات من الهند ومن جنوب العراق، وأخذ يستعد للهجوم . وبلغت قواته ضعف القوات العثمانيـة أمامه ، واستند إلى القوات العربية للقيام بعمليات مشتركة . فعمل على قطع مواصلة سكة حديد الحجاز الذاهبة لحيفا ، وعلى إجبار القيادة العثمانية على إرسال قوات لإصلاحها بشكل يفسح الطريق أمام قواته نحو الشمال . وكان على العرب أن يتموا عملية قطع هذه المواصلة والوقوف أمام أى هجوم يقوم به العثمانيون فى هـذه النقطة . ونفذ فيصل الجزء الذى عهد البريطانيون اليه تنفيذه من الخطة. وجاءت قوات عثمانية كبيرة لاصلاح مواصلة السكة الحديدية ، وأصبح المجال خاليا أمام البريطانيين فى هجومهم صوب الشمال . ثم استخدم اللنبى الخديعة فأوهم الأتراك بأنه سيهجم فى وسط الجبهة ولكنه ركز هجومه على السهل الساحلى، وتمكن من التغلب على مقاومة الأتراك فى هذا القطاع . واستمر فى تقدمه شمالا فى الوقت الذي عجز فيه الأتراك عن التحرك نتيجة لوجود القوات العربية فى جناحهم المضاد وأخيرا فان عرب فلسطين قد أعلنوا الثورة ضد العثمانيين .

اضطر الاتراك إلى سحب قواتهم من عمان ومن معان . ودخلت قوات فيصل معـان فى ٢٣ من سبتمبر سنة ١٩١٨ ، كما دخلت القوات البريطانية عمان فى يوم ٢٥ منه ، وانسحبت القوات العثمانية متقهقرة سيرا على الأقدام بعد نسف السكة الحديدية . وحاولوا الاحتفاظ بسوريا ولكنهم اضطروا

الى تركيا كذلك وقبلوا الهدنة فى نهاية أكتوبر من العام نفسه .

فرح العرب لخروج العثمانيين من الشام ، وأمنوا للانجليز وتعاونوا معهم ولكنهم لم يعرفوا معنى وجود القوات البريطانية معهم وخاصة فى فلسطين وستظهر الأيام خبث نية من أعطوا أنفسهم اسم الحلفاء ، وهم الأعداء .

(٢) النفاق : —

ظهر نفاق حلفاء العرب بشكل عام ، ونفاق بريطانيا من بينهم بشكل خاص فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وفى الوقت الذى أخلص فيه العرب لتعهداتهم وواصلوا مجهوداتهم لتحرير بلادهم من حكم الأتراك . ووضح هذا النفاق من تضارب العهود التى قطعتها بريطانيا على نفسها تجاه العرب من ناحيه أخرى . ثم تجاه حلفائها الغربيين من ناحية أخرى . وتحدد هـذا النفاق فى الاتفاقية المعروفة باسم « سايكس ــ بيكو » ثم فى تصريح بلفور .

أما اتفاقيه « سايكس ــ بيكو » فقد عقدها الحلفاء فيما بينهم فى أوائل عام ١٩١٦ ، وبعد اتمام محادثاتهم مع الشريف حسين . وجاءت هذه الاتفاقية نتيجة لمصالح الدول الأوربية الاستعمارية فى الشرق الأدنى واتفاقهم فيما بينهم على تقسيمه الى مناطق نفوذ تابعة لكل منهم ، ووضعوا بذلك نهاية واضحة لسياستهم السابقة القائمة على مبدأ سلامة أراضى الدولة العثمانية . وكانت الروسيا ترغب فى الحصول على المضايق ، وفى التوسع فى منطقة ، القوقاز وأما فرنسا فكانت تسعى الى الاستيلاء على سوريا بأكملها ، وأما انجلترا فأنها كانت ترغب فى الاستيلاء على منطقة العراق والبادية مع الاحتفاظ بمخارجها على البحر المتوسط عند حيفا وعكا وأما إيطاليا فأنها كانت تمنى نفسها بالحصول على أية منطقة من تركيا حتى ولو كانت فى الأناضول نفسها

... فبدأت المفاوضات والمحادثات بين هذه الدول وانتهت بسلسلة من الاتفاقات التى تضاربت مع تعهدات بريطانيا للعرب بشأن كل من الوحدة العربية وبشأن فلسطين .

ويهمنا هنا أن نذكر أن هذه الدول الاستعمارية قد وافقت على أن يبقى الجزء الجنوبى من الشام ، وهو فلسطين ، فى منطقة النفوذ البريطانى التى تمتد من سواحل البحر المتوسط حتى العراق والخليج العربى ، كما أنها اتفقت على الاحتفاظ بالقدس كنطقة دولية ، نظراً لوجود الأماكن المقدسة فيها... ومنعا لقيام تنافس فرنسى ـ روسى على حمايتها ، أو بمعنى أدق اتفقت على استغلالها كمركز رعاية دينية فى الشرق العربى للحصول على امتيازات سياسية وإقتصادية .

وكانت فرنسا قد أصرت على فرض نفوذها على الشام كلها بما فيها القدس ، فعارضت بريطانيا هذا المشروع، إذ أنها كانت تسعى إلى الاحتفاظ بحيفا وعكا كمخرج لمنطقتها على البحر المتوسط ، وكانت تخشى من اقتراب النفوذ الفرنسى كثيرا من قناة السويس ، كما كانت تشعر بضرورة السيطرة على طريق برى للشرق الأقصى فى نفس الوقت الذى تسيطر فيه على قناة السويس . واهتمت انجلترا بمشروع نقل المهمات من حيفا إلى خليج العقبه فى حالة تعطيل الملاحه فى القناة ، وبمشروع آخر للنقل البرى من البحر المتوسط إلى الخليج العربى فى حالة تهديد الملاحة فى البحر الأحمر . ولذلك فأن بريطانيا قد أصرت على إنشاء وضع خاص لفلسطين . فوافقت فرنسا على إنشاء هذا الوضع الخاص فى مناطق القدس ونابلس والخليج وطالبت

بضم بقية فلسطين الى منطقة نفوذها ، وبقيت المسألة معلقة إلى أن انضمت الروسيا إلى المحادثات وطالبت بفرض حمايتها على الأماكن المقدسة. فاضطرت فرنسا إلى قبول الفكرة البريطانية الخاصة بانشاء إدارة دوليه فى فلسطين .

وزاد من نفاق الحلفاء أنهم لم يبلغوا نص هذه الاتفاقية للحسين أو لرجاله العرب . وظل محتفظا بثقة عمياء فيهم ، حتى بعد أن فاتحوه فى مايو سنة ١٩١٧ فى شأن اقامة ادارة فرنسية فى الجزء الغربى والشمالى من الشام .

ويذكر التاريخ أن الأتراك قد أبلغوا الحسين فى ديسمبر سنة ١٩١٧ أمر هذه الاتفاقية التى تهدف الى تقسيم البلاد العربية ، وعرضوا عليه الصلح والحصول على الاستقلال تحت سيادة السلطان ، وأرسلوا اليه نص هذه الوثائق بعد أن قامت الثورة الشيوعية بنشرها . ولكن حسينا رفض تعديل موقفه وسحب ثقته من حلفائه المنافقين المغرضين رغم أن هؤلاء الحلفاء لم يؤيدوا ولم ينفوا قيامهم بعقد هذه الاتفاقيات . وكانت الفرصة سانحة ، واحتاج الحلفاء الى مجهودات العرب لاخراج الأتراك من الشام . ولكن الحكمة السياسية أعوزت القائمين على رأس الحركة ، وأفلتت الفرصة وتمكنت الدول الاستعمارية من المنطقة .

وأما النقطة الثانية التى تثبت نفاق البريطانيين تجاه العرب فهو تصريح بلفور الذى عملوا به على شراء اليهود تمهيدا لاستخدامهم فى ضرب العرب . وكان الثمن هو فلسطين .

وكانت الحركة الصهيونية التى قامت منذ أواخر القرن التاسع عشر تعمل على اغراء تركيا منذ بضع سنوات قبل الحرب العالمية الأولى على السماح

بهجرة اليهود الى فلسطين ، ولكن السلطان عبد الحميد عارض هذه السياسة . فلما تولت جمعية الاتحاد والترقى الحكم وضح فيها النفوذ اليهودى ، ولكنها اضطرت الى الاحتراس بعد أن أقدم النواب العرب على فضح نوايا الصهيونيين للاستيلاء على أراضى العرب وتشريد أبناء فلسطين . فلما نشبت الحرب انتقل مركز نشاط الصهيونية الى برلين ، ولكنهم حاولوا خطب ود دول الوفاق فى نفس الوقت حتى يضمنوا أى كفة تكسب الحرب .

ولقد لقى الصهيونيون الانجليز صعوبات أمامهم فى انجلترا نفسها ، خاصة وأن عدداً كبيرا من اليهود الانجليز لم يكن واثقا من امكانية تحقيق هـــذه الفكرة الصهيونية . ولكنهم توصلوا الى تأييد بعض رجال الصحافة ، ثم بعض رجال السياسة نتيجـــة لنشاط حايم وايزمان ، وهربرت صامويل . وبدأت المفاوضات الرسمية بين الحكومة البريطانية واليهود بعد تأليف وزارة لويد جورج التى تولى بلفور فيها منصب وزير الخارجية .

ولم يكن من حق انجلترا تقرير مصير فلسطين ، خاصة وأنها كانت قد تعهدت بالاعتراف باستقلال الدولة العربية التى تدخل فلسطين فى نطاقها منذ سنة ١٩١٥ وبتأييد هذا الاستقلال ، كما أن اتفاقية سايكس ـ بيكو كانت قد رسمت أمر انشاء ادارة دولية فى فلسطين من ناحيـة أخرى ، وكـان من حق هذه الدول التى وقعت على اتفاقية سايكس ـ بيكو ، مثلها فى ذلك مثل الملك حسين ـ أن يناقشوا هذا الأمر قبل ابرامه . وأخيرا فقد كان للعرب فى هذا الاقليم أن يقولوا كلمتهم مادام العالم قد اعترف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها .

ولقد عهد لويد جورج الى سايكس بمهمة مفاوضة الصهيونيين . وربمـا

كان ذلك لاغراء الصهيونيين على الضغط على أمريكا وادخالها الحرب إلى جانب دول الوفاق ، أو لإغرائهم على تمويل ديون الحرب البريطانية ، أو لمكافأة الدكتور وايزمان على اختراع نوع جديد من المفرقعات . ولقد شعرت بريطانيا بنشاط الصهيونيين فى ألمانيا والنمسا وخشيت من نجاحهم فى الوصول إلى وعد من تركيا بارضاء بعض رغباتهم فى فلسطين ، وأرادت فى نفس الوقت أن تكسب ود يهود الروسيا وكانوا قد قاموا بدور معروف فى الثورة الشيوعية ، فأرادت اغراءهم على مواصلة الحرب إلى جانبها . أما من الناحية الاستراتيجية فان فلسطين كانت ضرورية للدفاع عن مراكز القوات البريطانية فى مصر ، وعن الطريق البرى الموصل إلى الشرق . وكانت هذه الأسباب الاقتصادية والاستراتيجية والسياسية التى ارتكز اليها تصريح [بلفو]ر رغم كل الألوان الدينية والانسانية الذليلة التى حاولوا طلاءه بها . ذلك [أن] أهمية فلسطين بالنسبة للامبراطورية البريطانية قد زادت فى فترة الحرب وظهرت بشكل واضح . لم يكن هناك فاصل بين فلسطين ومصر سوى صحراء سيناء ، ولقد أثبتت التجربة أن الصحراوات قد فقدت قيمتها كحدود عازلة وخاصة بعد أن حاول الأتراك غزو مصر وبعد أن عبر الانجليز صحراء سينا وتقدموا شمالا فى فلسطين . أصبحت قناة السويس إذن أقل أمنا فى ذلك الوقت عما كانت عليه فى الماضى ، ولما كانت الأطماع الفرنسية واضحة فى الشام ، بما فى ذلك فلسطين ، فقد كان من الطبيعى أن تعمد انجلترا إلى فصل المنطقة الفرنسية عن قناة السويس بانشاء وحدة سياسية أشد قوة من المنطقة الدولية التى أشارت اليها اتفاقية سايكس ـ بيكو . [ت]كن هذه الوحدة تحت النفوذ البريطانى . ولم يكن وعد بلفور إلا تمهيدا لوضع فلسطين تحت ادارتها حتى تعمل على تنفيذ هذا الوعد .

عملت بريطانيا إذن على الحصول على تأييد الصهيونيين لوضع فلسطين تحت إدارتها واستثناء فرنسا من هذه الإدارة . فوافق الصهيونيون على هذه البداية وأعلنوا معارضتهم لتدويل فلسطين أو لوضعها تحت إدارة « إنجليزية ـ فرنسية » مشتركة ، وذلك فى اجتماعهم فى شـــهر فبراير سنة ١٩١٧ . ثم أعلنوا أنهم سيعملون على وضع فلسطين تحت الحماية البريطانية ما دامت هذه الدولة تؤيدهم فى إرضاء « أمانيهم القومية » . وكان هذا هو الأساس الأول الذى قام عليه ونتج عنه تصريح بلفور بعد عدة شهور ، وفى وسط هالة من الإدعاءات الـكاذبة التى تشدقت باسـم الإنسانية وتحدثت عن اليهود المشردين .

ولقد وافقت الحكومة الفرنسية على فكرة إصدار هذا التصريح بعد تردد أما أمريكا فأنها خضعت لنفوذ اليهود فيها ، ولم تحاول أن تجادل فى الأمر ما دامت لا تدفع أي ثمن . ولقد حاول اليهود أن يحصلوا على وعد من انجلترا يحدد أن فلسطين هى وطنهم ، فعارضت حكومة لندن فى هذه الصيغة القاطعة ولكنها صرحت بأنها ترحب بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . وقبل اليهود هذا النص بعد أن تأكدوا من أنه أقصى ما يمكن الحصول عليه فى هذه المرحلة .

صدر تصريح بلفور فى يوم ٢ من نوفمبر سنة ١٩١٧ ، أي بعد عامين من الوعد الذى قطعته بريطانيا على نفسها للعرب ، وكانت الثورة العربية قد بذلت كل جهدها فى سبيل هزيمة الدولة العثمانية ونصرة الحلفاء البريطانيين . وجاء هذا التصريح جديدا على نفاق الأنجليز وعلى قيمة الوعود التى يعطونها والأمانة التى يطبقونها بها .

وعلى أي حال فان وصول أخبار هـــذا التصريح أهاجت الرأى العام العربى ، فأسرعت بريطانيـا بارسال المستشرق هوجارت لكى يؤكد لحسين شفهياً أن حكومة لندن لن تسمح باقامة اليهود فى فلسطين إلا فى الحدود التى لا تتعارض مع الحرية السياسية والاقتصادية لغير اليهود . وكانت بريطانيا تحاول فى ذلك الوقت استغلال العرب فى تحرير الشام حتى تضعهم أمام الأمر الواقع . ولقد اكتفى الحسين بهذه التصريحات ما دامت تهدف الحصول على ملجـأ لليهود المشردين ، وقبل انشاء نظام خاص للأماكن المقـدسة ولكنه أصر على موقفه فى مسألة السيادة العربية وكل مظاهرها .

وحث الملك حسين زعماء العرب على مواصلة الحرب إلى جانب بريطانيا ، مؤكدا أن تصريح بلفور لن يمس الحقوق السياسية والاقتصـادية للعرب . وذكر لعرب فلسطين أن كتبهم المقـدسة تفرض عليهم الكرم والتسامح ، وحثهم على الترحيب باليهود والتعاون معهم فى الوصول إلى الخير العام .

وكان هذا هو موقف قيادة العرب من أعوان بريطانيا . وظهر هـــذا واضحا فى النشاط الذي قام به فارس نمر ، أحـد أصحاب جريدة المقطم فى ذلك الوقت ، من الترحيب بالبعثة الصهيونية التى زارت مصر فى شهر مارس سنة ١٩١٨ قبل ذهابها إلى فلسطين .

ولكن هذا الموقف من جانب بعض الشخصيات العربية لا يعفى بريطانيا من مسؤلياتها الكاملة فى المسألة ، خاصة وأنهـا أعلنت فى تصريحها الرسمى فى ١٦ من يونيو سنة ١٩١٨ بأن سياستها تجاه الأقاليم العربية التى عملت قوات الاحتلال على تحريرها من تركيا ـ وهى التى تشتمل على العراق من الخليج العربى حتى الشمال من بغداد ، وفلسطين من الحـدود المصرية إلى الشمال من

القدس ويافا ستكون « اقامة حكومات يرضى عنها هؤلاء الأهالى » ، رغم أنها أكدت أن هذه السياسة يجب أن تكون سياسة الحكومة البريطانية . كما أكد البلاغ الانجليزي ـ الفرنسى المشترك الصادر فى ٧ من نوفمبر من السنة نفسها أن سياسة هاتين الدولتين وأهدافها فى الحرب فى الشرق الأدنى هى التحرير الكامل للشعوب التى ترسخ تحت الظلم التركى ، « ومساعدة الأهالى على اقامة حكومات وطنيه تعبر عن رغباتهم » ، ووعد بمساعدتها والاعتراف بها بمجرد تكوينها .

(٣) الانتداب . ـ

إنتهت الحرب وانتقل مسرح الحوادث من الشرق الأدنى إلى أوربا ، إذ أصبح لمؤتمرات الصلح أن تقرر المسائل بعد أن كانت من إختصاص العسكريين ونلاحظ فى هذه الفترة تجمع قيادة الحركة العربية وزعامتها فى كل من دمشق وبغداد بشكل خاص. وأدى تطورالحوادث إلى ظهورانفصال وإنشقاق بين قيادة الأشراف الهاشميين ، وبين القاعدة الشعبية التى قادوهـا حتى تلك المرحلة ـ وكان ذلك نتيجة لاختلاف المصالح بين القيادة وبين الثورة نفسها .

وضع العرب سلاحهم جانبا بعد أن طردوا الأتراك وأخذوا فى مفاوضة « الحلفاء » الذين ساعدوهم فى معركتهم دون أن تكون نيتهم خالصة أو مخلصة ترك فيصل سيفه جانبا وسافر لحضور مؤتمر الصلح فى باريس ، ونادي بمبادىء الوحدة والاستقلال العربى ، وكان علية أن يواصل المعركة لبناء هذه المبادىء بالحديد والنار . ووجد صعوبات من جانب الحكومة الفرنسية التى وضحت أطماعها فى سوريا. فزاد ميله إلى جانب بريطانيا. وكان

هذا خطأ واضحا ، لا يختلف عن الاختيار بين لص وآخر . وشعرت فرنسا بأن بريطانيا لا ترغب فى تطبيق اتفاقية « سايكس ـ بيكو » فوافق كليمنصو فى ١٥ فبراير سنة ١٩١٩ على ترك كل العراق بما فيه الموصل لبريطانيا ـ وكذلك فلسطين ، نظير ترك سوريا للتوسع الفرنسى .

واستغلت بريطانيا ميل فيصل لها فضغطت عليه عن طريق لورنس لكى يوافق على الترتيبات الخاصة بفلسطين وإدخال اليهود فيها، رغم موقف العرب الصريح فى مسألتى الوحدة والاستقلال . وأراد أن يظهر ولاءه لبريطانيا معتقداً بضرورة صداقتها ولزومها له أمام الأطماع الفرنسية ، فاستمع إلى تأكيدات حايم وايزمان بأن الصهيونية لا تسعى إلى إقامة حكومة فى فلسطين، وأنها لا تسعى الا للعمل على تنمية الموارد الاقتصادية للاقليم دون أن يؤثر ذلك على مصالح العرب المشروعه . ووقع فيصل على الاتفاقية مع وايزمان رغم أنه شرطها بضرورة تنفيذ بريطانيا لتعهداتها باستقلال العرب . وكان هذا تفريطا منه فى حق العرب وتصرفا منه فى ما لا يملك. واستند الصهيونيون الى هذه الاتفاقية فيما بعد لكى يذكروا أن فيصل قد وافق على هجرتهم الى أرض الميعاد . وأحتج فيصل بأنه قد جعلها مشروطة بتنفيذ الأمانى القومية للعرب . ولكن الشرط كان على انجلترا تنفيذه ، وأصبح على العرب قبول اليهود المشردين :

والملاحظ هنا أن فيصل قد مثل العرب فى مؤتمر فرساي وتحدث باسمهم ونري أن هذا المجاهد العربى قد حاول لعب دور الدبلوماسى وذكر أن للعرب مطالب يرغبون فى تحقيقها . لقد اعتقد فيصل فى هذه المرحلة فى مبادىء الحرية وتقرير المصير واعتقد أن الغرب سيطبقها على البلاد العربية .

واستند فيصل إلى مبادىء الرئيس ويلسون ، وطلب التحقق من رغبات العرب ولكن كلا من فرنسا والصهيونيين قد عارض مشروع ارسال لجنة للتحقيق ولم تؤد مجهودات فيصل إلى نتيجة ايجابيـــة سوى ابتعاده عن الوسائل العسكرية والثورية التى سار عليهـا حتى الآن من ناحيـة ، وزيادة تقربه من بريطانيا من ناحية أخرى .

واجتمع رجالات العرب فى دمشق وقرروا مواصلة الكفاح من أجـل استقلالهم ووحدتهم . وعملوا على الاحتفاظ بفيصل ، ولكن على أساس أن يكون ملكا دستوريا وعلى كل سوريا بما فيها لبنان وفلسطين . وكان هـذا يعنى أن شخصية القيادة الثورية الشعبية قـد بدأت فى النمو وفى حالة تحديد سلطات فيصل ، وسلطاتها . كما كان يعنى أنهم صمموا على الاحتفـــاظ بفلسطين جزءاً لا يتجزأ من سوريا . ورفضوا ادخال اليهود المشردين فيهـا والاعتراف بأى قيمة لتصريح بلفور .

ولكن مؤتمر الصلح المنعقد فى فرساى تعامى عن مطالب العرب الشرعية، وأخذ يستعد لتقسيم الأسلاب على الدول الاستعمارية وعلى أعوان الاستعمار .

فعمدت بريطانيا إلى سحب قواتها من منطقة لبنـان وطلبت من فرنسا احتلال هذا الاقليم ذا كرة لها أن بقية سوريا ستظل فى أيدى القوات العربية، وأن فلسطين ستبقى خاضعة للاحتلال البريطانى طبقـا لاتفاقية سايكس ـ بيكو . واحتفظت بريطانيا لنفسها بحق انشاء خط للسكة الحـديدية وخط آخر لأنابيب البترول من العراق حتى حيفـا . ثم استدعت فيصل إلى أوربا للتفاهم معه فى الأمر . ولم تجد احتجاجات فيصل شيئاً ، ولم يكن من السـهل عليه فهم السياسة البريطانية وهو لا يجيد اللغة الانجليزية ويصعب عليه المناقشة

والتفاهم بها . وكان من الأجدى له أن يواصل بقاءه فى الميدان العسكرى مادام لا يجيد السياسة ، ولكنه سافر إلى باريس وعقد اتفاقية جديدة مع كليمنصو اعترف فيها بحق فرنسا فى احتلال الساحل السوري حتى الاسكندرونة شمالا ، وتعهد بأن يطلب العرب من فرنسا تقديم المعونات الفنية والمادية اللازمة لهم . ولا جدال فى الأمر أن فيصل قد قبل ـ وأن ضمنا ومؤقتا ـ قيام منطقة نفوذ فرنسى ومنطقة تحت الاحتلال البريطانى (فلسطين) فى الوقت الذي احتفظ لنفسه ببقية سوريا . وكان هذا الأمر يتعارض تمام المعارضة مع مبادىء الثورة العربية التى نادت عاليا بالوحدة والاستقلال .

ولكن الحوادث عملت على القاء قوي الشعب العربى فى الميدان لمحاولة الاحتفاظ بحقوقه المشروعة . فرفضوا المساومة والمفاوضة واجتمع المؤتمر الوطنى وأعلن استقلال سوريا بما فيها لبنان وفلسطين ، وعينوا فيصلا ملكا دستوريا عليها . واجتمع رجال العراق فى مؤتمر مشابه ، وقرروا نفس القرار بالنسبة لبلادهم على أن يتولى الأمير عبد الله الملكية الدستورية فى بغداد .

ورتب الاستعماريون صفوفهم وجمعوا مؤتمرا فى سان ريمو ، واتخذ قراراته فى ٢٥ من أبريل سنة ١٩٢٠ ، وقسم بها البلاد العربية بين فرنسا وبريطانيا . فأخذت الأولى سوريا ولبنان تحت انتدابها ، بينما حصلت الثانية على انتداب على العراق وانتداب آخر على فلسطين . وأضافوا اليه حاشية تذكر أن الانتداب البريطانى على فلسطين سينفذ مع تطبيق تصريح بلفور ، وتناسوا أن هذه القرارات تتعارض مع مصالح الشعب العربى وحقه فى تقرير المصير .

وثارت نفوس العرب وساءهم شعور باحتقار الغرب الاستعمارى ، وخاصة بعد أن قررت فرنسا احتلال سوريا . فأخذ الشعب فى تنظيم صفوفه ، وقرر الدفاع عن حريته واستقلاله . وكانت موقعـــه ميسلون ، وكانت ثورة العراق .

وكانت الخسائر التى تكبدتها بريطانيا فى العراق تدفعها إلى وضع أسس جديدة لاستعمارها فى البلاد العربية . فصمم ونستون تشرشل على عقدمؤتمر فى القـاهرة ، واتصل البريطانيون بفيصل للحصول على موافقته على اعتلاء عرش العراق على أن يعقد معاهدة تحالف مع بريطانيـا . ووافق فيصل على هذه الخطة ، ورأت الأيام التالية قيام حكومة عربية فى بغداد تخدم بريطانيا وتقلل عليها نفقات الاحتـلال ، وتعمل على تهدئة العرب بدلا من تركهم يتصادمون مع قوات الاستعمار . وإن هذه الحكومة هى التى ستضع بريطانيا فى عهدها أمر استغلال بـترول العراق وإرساله فى خط الأنابيب إلى حيفا ، فى فلسطين .

وبعد اجتماع كل من المندوب السامى البريطانى فى العراق وزميله فى فلسطين بونستون تشرشل فى القاهرة فى ١٢ من مارس سنة ١٩٢١ ، ذهب هذا الأخير إلى القدس فى يوم ٢٤ مارس وكان عليه أن يجدحلا سياسيا لكل من فلسطين والمنطقة الصحراوية التى تفصلها عن العراق .

كان فى استطاعة بريطانيـا أن تحتفظ بفلسطين ما دامت الهجرة اليهودية مستمرة إليهـا ، ولكن تشرشل خشى من الموقف فى شرق الأردن ، خاصة وأن عبد الله كان قد جمع قوة فى معان منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٢٠ وأعلن عزمه على غزو سوريا والانتقام لطرد أخيه من دمشق . فخشى البريطانيون من

هـذه القوة على مراكزهم فى فلسطين . فدعا تشرشل عبد الله إلى التباحث معه فى الأمر فى القدس ، وشارك لورنس فى هذه المفاوضات. ولكنه رفض مشروع عبد الله باقامة حكومة عربية واحده فى كل من فلسطين وشرق الأردن ، بدعوى أنها تتعارض مع وعد بريطانيا اليهود . وقبل عبد الله هذا المنطق وحصل من انجلترا على تصريح بتجنيد قوة من العرب والدفاع عن شرق الأردن وفلسطين ضد أى هجمات قد تأتى من الصحراء ، وعلى وعد باعطائه مساعدة مالية للقيام بهذا العمل. أى أن بريطانيا قد اشترته للدفاع عن الحدود ، بدلا من تركه خطراً يهدد بقاءها فى فلسطين . وانضمت شرق الأردن الى منطقة الانتداب البريطانى وأما فلسطين فان بريطانيا قداحتفظت بها تحت نظام الإدارة المباشرة ، تمهيداً لتثبيت أقدام الصيهونيين فيها .

وأخذت بريطانيا فى ضرب كل من أعوانها بالآخر حتى يستقيم لها الأمر وتعهدت الصهيونية فى فلسطين حتى تخلق قوة جديدة تعمل على المحافظة على التوازن مع العرب لصالح الأجنبى ، وتقسم بين البلاد العربية وتزيد النفوذ البريطانى فى المنطقة التى تمر منها قناة السويس ويصل اليها البترول .

الفصل الحادي عشر

العرب والوطن القومي لليهود

ظهر واضحا منذ أوائل دخول البريطانيين فى فلسطين أنهم قد عقدوا العزم على انشاء وطن قومى يهودى فى فلسطين . وهى السياسة التى سماها العرب بسياسة « التهويد » .

وظهر ذلك واضحا قبـــل صدور وثيقة الانتداب ومنذ الوقت الذي حضرت فيه اللجنة اليهودية الدولية لزيارة فلسطين . فتركها البريطانيون تتجول بكل حرية ، بل عملوا على اشراكها فى الحكم وادارة البلاد ، رغم أن نسبة اليهود فى سكان فلسطين لم تبلغ إلا ٦ ٪ فى ذلك الوقت . وسمحوا لها فوق ذلك بتكوين قوة شبه عسكرية وتدريبهـــا . كما تركوها تقيم نظاماً قضائيا مستقلا لليهود . ووضح أمام الجميع أن البريطانيين قد صمموا على انشاء وحدة قومية جديدة لها سلطات دولة داخل الدولة فى ذلك الجزء من العالم العربى .

(١) سياسة التهويد :

لقد واصلت بريطانيا سياستها لانشاء الوطن القومى لليهود فى فلسطين عن طريق تعيين حكام من أنصـــار اليهود ، وعن طريق منح التسهيلات الاقتصادية لليهود ، وتيسير أمر هجـرة الصهيونيين واقامتهم . وتذرعت بريطانيا فى ذلك بأنها تنفذ وعدها لليهود ، ذلك الوعـد الذي تفوه به بلفور

وأنها تطبق نص وثيقة الانتداب التى كلفت بريطانيا بالعمل على انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . وادعت بريطانيا أن تطبيق هـذه السياسة لا يضر بالمصالح المدنية والإقتصادية لغير العرب .

يمكننا أن نقول اذن أن بريطانيا قد رسمت ونفذت سياستها التى قامت على التعاون التام مع الصهيونية ، وأنها راعت وعملت على محـــاباة اليهود ، ولكنها اتخذت موقفا صارما محدداً تجـاه العرب ، ولم تتنازل عن أى قرار اتخذته فى صالح اليهود أو ضد مصلحة العرب أى أن كلا من البريطانيين واليهود كونوا جبهة واحدة متحدة قوية وجابهوا بها سكان فلسطين .

أما عن العرب فان موقفهم قـــد سهل على المستعمرين وأذنابهم تثبيت أقدامهم فى هذا الاقليم الشقيق ، ولو بطريق غير مباشر .

حقيقة أن قيادة الحركة العربية عامـة كانت تتركز فى ذلك الوقت فى دمشق والقاهرة وبغداد، وأن فلسطين بقيت إلى درجة كبيرة دون قيـادة ثورية . كما أن وجود قوات احتلال بأسلحتها وعتادها لم يكن مما يسهل على العرب منازلته فى معركة منظمة أو حتى فى حرب عصابات فى ذلك الوقت . ولكننا لا نقدر على تجاهل الاتجاهات السياسية التى اتخذها الفلسطينيون فى تلك المرحـلة ، والتى دلت على سوء تقديرهم للموقف وعـدم فهمهم لطبيعة الأعداء والأشياء .

فى الوقت الذى كون فيه الإستعمار وأذنابه اللقطاء جبهة واحدة متراصة ضد العرب وحقوقهم المشروعة ، نجد أن العرب يعلنون عداءهم لليهود فقط ، ويحاولون اتخاذ سياسة معتدلة قائمة على المفاوضات مع البريطانيين .

وفى الوقت الذى استخـــدم فيه كل من البريطانيين والصهيونيين قوة الاحتلال العسكرى لانتزاع فلسطين من أهلها الشرعيين ، نجد أن قادة الحركات الوطنية العرب يتخذون موقف الكفاح السلبى من ناحية ، أو الكفاح « المشروع » من ناحية أخري . أى أنهم لا يتعاونون مع البريطانيين فى تنفيذ سياستهم الإستعمارية . أو يقومون بدور المحـامى الذى يفند أقوال الخصم بطريقة منطقية ، رغم أن الوضع لم يكن يحتاج إلى هذا الشرح المنطق بل مجابهة القوى الإستعمارية بقوى ثورية ، ومواجهة الاستغلال والسيطرة الاقتصادية على أسس اقتصادية .

ولا يمكننا أن ندعى بأن الحركة العربية لم تكن قد بلغت فى ذلك الوقت مرحلة النضوج السياسى الذى يسمح لها بالثورة ضد المحتل المستغل الأجنبى ذلك أن العرب كانوا قد أتموا ثورتهم ضد الأتراك للحصول على استقلالهم السياسى ، وبحد السيف . فما الذى منعهم الآن من مواصلة الكفاح الثورى وقد أصبح كل من كيانهم السياسى وكيانهم الاقتصادى بل والبشرى مهددا بالزوال ؟

إن السبب هو ضعف القيادة العربية من ناحية ، وميلهـا إلى الثقة فى « الصداقة » و « العدالة » البريطانية من ناحية أخرى . وكانت هـذه هى مخلفات الحركة العربية الموالية لبريطانيا فى أثناء الحرب العالمية الأولى . ولم تصل القضية الفلسطينية إلى عمل ايجــابى له قيمته إلا بعد اشتراك الطبقة الوسطى فى القيادات الشعبية فى الثلاثينات ، وازدادت القضية الفلسطينية قوة بعد استنادها إلى قواعد شعبية فى الأربعينات .

ولقد اعتز العرب منذ أول الإحتلال البريطاني بقوميتهم العربية لا فرق

فى ذلك بين مسلم ومسيحى ، وقامت « الجمعيات الإسلامية المسيحية » تكافح من أجل عروبة فلسطين . رافضة التصريح بانشاء الوطن القومى لليهود . فوقعت الحوادث فى شهر أبريل سنة ١٩٢٠ وراح ضحيتها عدد كبير من العرب ومن اليهود . وتدخلت القوات البريطانية بكل عنف . وظهر من التحقيق أن العرب يخشون ازدياد النفوذ الصهيونى ، واتساع سلطات اليهود ، ومحاباة البريطانيين لمن يدعون التشرد . ولكن بريطانيا رأت أن العرب يصطدمون مع اليهود لا مع قواتها هى فازدادت قسوة فى معاملتها للعرب ، وزادت من حمايتها لليهود . وجاء تعيين السير هربرت صمويل ، مندوبا ساميا يؤكد أنه لا يهتم إلا بوضع فلسطين فى حالة سياسية واقتصادية وادارية تسهل أمر انشاء الوطن القومى لليهود . فاستخدم أعوانه من غلاة الصهيونية وأعطى امتياز توليد الكهرباء من الأردن لدوتنبرج لمدة سبعين سنة .

وقامت اضطرابات جديدة فى يافا بين العرب واليهود، فوقف البريطانيون مرة أخرى إلى جانب اليهود . ولكى تتنصل بريطانيا من مسؤليتها أمام الرأى العام الدولى والانسانى ، ولكى تكسب الوقت اللازم لتنفيذ سياستها وتظهر بمظهر المحايد ، أرسلت لجنة برئاسة السير توماس هايكرافت للتحقيق. ولقد اعترف تقرير هذه اللجنة بأن أسباب الاضطرابات هى شعور القلق والتذمر والكره لليهود ، والإستياء من محاباة الحكومة لهم ، وخوف العرب على مصيرهم ، وسخطهم من حرمانهم استقلالهم . كما أن حكومة فلسطين قد مكنت الجمعية الصهيونية من أن تكون حكومة داخل حكومة . ولكن بطبيعة الحال لم يؤد هذا التقرير إلى أى تغيير فى سياسة الحكومة البريطانية التى عملت على إهدار حقوق العرب فى صالح الصهيونيين .

كانت بريطانيا فى تلك المرحلة هى الدولة المستعمرة وكان الصهيونيون أذنابها . ولكن العرب لم يهاجموا الرأس ، بل هاجموا الذنب ، رغم ضرورة قطع الرأس لإبطال كل قيمة للذنب .

وكان العرب فى خلال العصور ، ومن يومهم ، من أكثر شعوب العالم تسامحا بل وحماية لليهود . ولكن بريطانيا نجحت فى شغلهم بهذا الذنب ، بدلا من تركهم يهاجمونها ، فى صراحة وقوة . وظهر وكأن العرب من أنصار « اللاسامية » وهم ساميون .

وشكل العرب وفدا فلسطينيا لشرح القضية فى لندن والمطالبة بالحقوق العربية المشروعة ، وعرض عليها وزير المستعمرات البريطانية مشروعا أعده للدستور ، فطالبت بضرورة النص فيه على حقوق الشعب المدنية والسياسية والاقتصادية . ورأت بريطانيا أن العرب لا يزالون يرغبون فى ترك الباب مفتوحا معها فاستغل ونستون تشرشل هذه الفرصة لكى يدعم بناء الوطن القومى اليهودي على حساب العرب ونشر كتابه الأبيض فى أول يوليو سنة ١٩٢٢ يصر فيه على الزام بريطانيا بتحقيق الوعد الذى أعطاه بلفور وتنفيذ وثيقة الانتداب التى كلفت حكومة لندن بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

وأصدرت الحكومة البريطانية دستوراً لفلسطين فى ١٠ من أغسطس من نفس السنة ، شرحت فيه أمر قيام مجلس تشريعى يرأسه المندوب السامى ، وتكون أغلبيته لليهود والبريطانيين ، ونصت على أنه لا يجوز لهذا المجلس أن يناقش أى مسألة تتعلق بسياسة الحكومة الأساسية وبخاصة فيما يتعلق بتسهيل انشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين.

فقرر العرب مقاطعة الانتخابات للمجلس التشريعى ، كما قرروا مواصلة

«المساعي المشروعة» لتحقيق الاستقلال والاتحاد العربي، ورفضوا سياسة الوطن اليهودى والهجرة الصهيونية .

حقيقة أن العرب قد ساروا فى سياسة الكفاح السلبي، ورفضوا التعاون مع السلطات البريطانية فى كل ما يتعلق بالانتداب أو التهويد. كما أن مندوبى العرب قد استقالوا من المجلس الاستشارى الذى عينهم البريطانيون فيه، ورفضوا العرض البريطانى فى أكتوبر سنة ١٩٢٣ بالسماح لهم بانشاء وكالة عربية يكون لها فيما يختص بالشعب العربى نفس السلطات الممنوحة للوكالة اليهودية، بموجب وثيقة الانتداب، فيما يخص اليهود. ولكن هذه «المساعى المشروعة» لم تكن كافية فى ذلك الوقت للدفاع عن الحقوق الشرعية لأبناء فلسطين، وفى وقت انتهكت فيه أرزاقه وأصبحت حياته مهددة .

لقد أضربت فلسطين كلها يوم جاء بلفور لافتتاح الجامعة العبرية التي أنشئت على أرض عربية فى جبل الزيتون . واضطر بلفور إلى مغادرة البلاد بسرعة . ولكن العرب لم ينشئوا جامعة أخرى عربية، فى المسجد الأقصى مثلا ... ودلت هذه السلبية على تفاوت فى النمو أو فى القوة والوسائل، بين القوى الموجودة فى هذه المنطقة الحساسة من العالم . لقد تسارع رؤساء العرب في هذه الفترة إلى ارسال أبنائهم إلى الكليات الأجنبية، أمريكية أو جزويتية، وتباهى عدد منهم باتقان الانجليزية والفرنسية فى الوقت الذي قام فيه اليهود البريطانيون والفرنسيون والألمان الروس والأمريكيون بدراسة اللغة العبرية والعمل على خطوط ثابتة لتحقيق خطط موضوعة ومدروسة .

وتمادت بريطانيا فى سياسة تهويد فلسطين، فسهلت لليهود شراء أراضى العرب، وزادت من سوء الحالة الإقتصادية التى يعانيها الأهالى . كما أنها

فتحت أبواب الهجرة وتعامت عن الهجرة غير المشروعة . ونشطت الحركة الصهيونية فى انشاء المعسكرات اللازمة لإعداد الشبان اليهود قبل ارسالهم إلى فلسطين . وقامت حكومة الانتداب بحماية الوضع الاقتصادي لليهود بسن اللوائح والنظم التى تساعد على ازدهار تجارتهم وصناعتهم .

ومنحت اليهود امتياز استخراج البوتاس من البحر الميت ، فأصبح لليهود فى فلسطين احتكار القوة الكهربائية والصناعات الكيمائية فى نفس الوقت .

وشعر العرب بخطورة الحالة وقاموا مرة جديدة للكفاح. ولكن خطوط كفاحهم كانت لا تفى أيضا هذه المرة بمستلزمات الحاله ، ولا تتفق مع طبيعة المعركه . ذلك أن كفاحهم أخذ شكلا دينيا اسلاميا ، وامتنع عن الصدام مع بريطانيا

ولا يمكننا أن نأخذ على الزعامة الدينية الإسلامية نزولها إلى المعركه ، ولكنا نأخذ على الحركه الوطنية ، فى فلسطين إستتارها وراء الدين حتى لا تصطدم ببريطانيا .

فشل اليهود فى عام ١٩٢٨ فى الاحتفاظ بما رسموا أمر الاستيلاء عليه من حائط المبكى ، وهو الذى يحد الحرم الشريف من الغرب ، والذى يدعون أنه من بقايا هيكل سليمان . ذلك أن المسلمين كونوا جمعية حراسة المسجد الأقصى واستندوا إلى المادة الثالثة عشرة من وثيقة الإنتداب على فلسطين التى نصت على الاحتفاظ بالوضع الراهن فى الأماكن المقدسة . ولكن اليهود عادوا إلى التحرش بالمسلمين فى أغسطس من العام التالى حيث رفعوا علمهم الصهيونى على الحائط ، وأخذوا فى إنشاء الأناشيد الدينية . وكان هذا هو عيد المولد النبوى عند المسلمين . فوقع صدام بين الطرفين امتد من القدس الى الخليل ثم

إلى بيسان وحيفا ويافا ، وراح ضحيته عـدد من القتلى من الطرفين وكانت معظـم اصابات العرب بأيدي القوات العسكرية والبوليس . وقرر العرب مقاطعة اليهود ، ولكن السلطات الاستعمارية نكلت بكل من حرص على المقاطعة أو أشرف على تنفيذها .

وأرسلت بريطانيا لجنة جديدة للتحقيق فى الأمر ولدراسة الحالة وإعطاء التوصيات . وإختارت القاضى « شو » رئيسا لها. وردت اللجنة هذه الحوادث الى قلة قوات الأمن والنظام من ناحية ، وإلى شعور العرب بغموض السياسة البريطانية واعتقادهم بمحاباتها لليهود . فأوصت بضرورة عمل تصريح جديد يحدد اختصاصات الوكالة اليهودية ، ويؤكد للعرب أنها لا تشترك فى حـكم البلاد . كما أوصت بتنظيم الهجرة على أساس القـدرة الاقتصادية لفلسطين على استيعابهم . وبالعمل على منع الهجره غـير المشروعة . وشرحت اللجنة سوء حالة العرب الاقتصادية ، وزيادة سكان الريف ، وعـدم وجود أراض للمهاجرين اليهود إلا باحلالهم محل العرب ، وما يترتب على ذلك من أخطار فنادت بضرورة وضع تقنين لحماية المزارعين العرب كوضع قيود على انتقـال الأراضى الى اليهود . أما من الناحية السياسية فانها قد أشارت الى أن درجة النضج السياسى متوفرة لدى العرب ، وأنهم قد شاركوا قبيل الحرب العالمية الأولى فى مجلس المبعوثان التركى ، وأنهـــم مستاءون لحرمانهم من الحكم الذاتى .

واعتقد العرب فى ذلك الوقت أن الجو يسمح بالمفاوضات مع بريطانيا . فسافر وفد فلسطينى إلى لندن لمقـابلة المسؤولين فى شهر مارس سنة ١٩٣٠ وطالب بوقف الهجرة ، ومنـع انتقال أراضى العرب إلى اليهود ، وتأليف

حكومة وطنية مسؤلة أمام مجلس نيابى يشترك فيه الأهالى بنسبتهم العددية . ولكن الحكومة البريطانية رفضت طلباتهم استناداً إلى أنها تسعى إلى احداث تغييرات دستورية تتعارض مع ما التزمت به فى وثيقة الانتداب . فوضح أمام العرب أن بريطانيا قد صممت على اهدار حقوقهم ، وأنها لا تسعى إلا إلى كسب الوقت لتثبيت أركان الوطن القومى اليهودي فى فلسطين .

ولكن بريطانيا خشيت من تأييد العالم العربى والاسلامى لعرب فلسطين فأرسلت بلجنة جديدة برياسة السير جون سمبسون ، جيد الشئون العمرانية ، لبحث مسألة الهجرة والأراضى فى فلسطين . فظهر أن الأراضى الزراعية فى أيدى العرب أصبحت لا تكفى لضمان معيشة السكان ، وأن سياسة الحكومة قد اضطرت عدداً كبيرا من الفلاحين إلى فقد عملهم ، وأرغمتهم على ترك أراضيهم ، كما أن شروط الامتياز التى أعطتها بريطانيا لشركات الأراضى الصهيونية سمحت لهذه المنظمات بالاحتفاظ بالأراضى التى يحصلون عليها بشكل دائم ، وألا يستخدموا فيها سوى اليهود. وكان المزارع العربى محروما من المعونات والسلف التى يتمتع بها اليهودى ، وزاد عدده فى الوقت الذي تناقصت فيه مساحة الأرض التى يعيش عليها . ذكر تقرير سمبسون أن البلاد لا تتسع لإنسان جديد ، ومالم يغير العرب وسائل وأساليب زراعتهم فانه يعارض السماح فى استمرار الهجرة اليهودية . وأوصى الحكومة بألا تأذن بدخول عمال جدد فى الوقت الذى يتعطل فيه العمال العرب. كما أوصى بضرورة تشديد المراقبة على الحدود لمنع الهجرة غير المشروعة .

ولقد أثر هذا التقرير على الحكومة البريطانية ودفعها إلى نشر كتاب أبيض فى عام ١٩٣٠ اعترفت فيه بمشكلة البطالة وخطرها ، وتعهدت فيه

بالنظر بعين الاعتبار إلى قدرة فلسطين الاقتصادية وقدرتها على استيعاب مهاجرين جدد . فاذا كانت هجرة اليهود تسبب حرمان العرب من أعمالهم الضرورية ، أو كانت البطالة بين اليهود المهاجرين تؤثر على حالة العمل ، وجب على الحكومة أن تخفض عدد المهاجرين أو تمنع الهجرة حتى يتسنى للعاطلين الحصول على عمل . ووافق الكتاب الأبيض على ضرورة مراقبة الهجرة ومنع التهريب اليهودى . وصرح بأن الحكومة قد عقدت النية على تأليف مجلس تشريعى وفقا لمشروع تشرشر فى عام ١٩٢٢ .

فرأى العرب ، رغم عدم حصولهم على جديد فى الميدان الدستورى ، أنهم قد نجحوا فى الحصول على ما يعرقل نمو الوطن القومى لليهود. ولكن إغتباط العرب كان قصير المدى . ذلك أن الصهيونيةالعالمية قد جمعتقواها.وهاجمت الكتاب الأبيض وسخرت فى ذلك كل الصحافة الدولية . واستقال وايزمان من رئاسة الوكالة اليهودية، فاضطرت الحكومةالبريطانية إلى التراجعودرست الموقف من جديد مع مندوبى الصهيونية ، وتلت ذلك بكتاب أسود وجهه ماكدونالد الى وايزمان فى فبراير سنة ١٩٣١ أكد فيه أن حكومته لا تفكر فى وقف الهجرة الصهيونية الى فلسطين أو حتى فى خفض عددها ، وأنها لا تنوي منع اليهود من امتلاك أراض جديدة فى فلسطين ، وتعترف بحق الشركات اليهودية فى ألا تستخدم سوى العمال اليهود .

وكان هذا تراجعا على طول الخط.

فثبت للعرب أن بريطانيا ترعى ذلك اللقيط صهيونى ، وأنهما يكونان جبهة واحدة.

ووضح أمام العرب أن الموقف يستلزم منهم عملا إيجابيا يوجهونه ضد القوى الاستعمارية ، وضد أعوان الاستعمار فى نفس الوقت .

(٢) الثورة : —

إزداد عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين من ٩٫٥٠٠ فى عام ١٩٣٢ إلى ٣٣٫٠٠٠ فى عام ١٩٣٣ و ٤٣٫٠٠٠ فى عام ١٩٣٤ ثم الى ٦٢٫٠٠٠ فى عام ١٩٣٥ — هذا عدا الآلاف التى دخلت إلى فلسطين مهربة دون جواز سفر .

وساعد وجود واكهوب ، المندوب السامى البريطانى ، على رأس الإدارة الاستعمارية فى فلسطين ، على التمادى فى سياسة التهويد فانتقل مشروع تجفيف أراضى « الحولة » من أيدى العرب (غير الفلسطينيين) إلى أيدى اليهود ، وكذلك انتقل مشروع «ودى الحوادث» بعد أن طرد منه العرب . وأغمضت السلطات الاستعمارية أعينها عن تسليح اليهود ، وأخذت شحنات الأسلحة تصل اليهم مـــع البضائع الأوربية ، وقامت القوات البريطانية باعادة بعض الضباط وضباط الصف لتدريب اليهود على استخدامها .

وكانت هجرة اليهود فيما مضى شبه مقصوره على بلاد أوربا الشرقية . ولكن وصول النازيين للحكم فى المانيا ساعد اليهود على الادعاء بأنهم مضطهدون واستندوا إلى ذلك لزيادة نسبة هجرتهم إلى الشرق العربى .

وتأكد العرب أن بريطانيا قد استهانت بحقوقهم المشروعة ، وأخـــذ الوزراء فيهـا يتبجحون باظهار التفاؤل بنجاح الصهيونيين . وجاءت مسألة تسليح اليهود فقرر العرب ضرورة توجيه الحركة الوطنية ضد بريطانيا بصفتها المسؤولة الأساسية عن كارثة البلاد ، كما قرروا كذلك ضرورة التسليح للدفاع عن النفس ضد أطماع الصهيونيين .

وكانت اللجنة التنفيذية العربية قد بدأت النضال السياسي منذ شهر أغسطس سنة ١٩٣١ ، وذلك بتنظيم المظاهرات الوطنية رغم تهديد قوات الاستعمار لها وتحرشه واشتباكه معها . ثم استغل الوطنيون المناسبات الوطنية ، كذكرى حطين ، واحتلال القدس وذكري الشهداء ووعد بلفور ، لتنظيم المظاهرات في المدن . واتخذت اللجنة التنفيذية العربيه قرارا بالقيام بمظاهرة في القدس في يوم الجمعة ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٢٣ . ورغم محاولة السلطات منع التجمع إلا أن المظاهرة خرجت من الحرم واشترك فيهما النساء والرجال ومرت بكنيسة القيامة ، وصرخت عاليا بالحرية والعروبة في وجه الاستعمار . لقد سقط بعض أبطال العروبة شهداء وجرحى في هذه المظاهرات ، ولكنها واصلت تنظيمها وسيرها وهتافاتها وازداد كل يوم قوة ايمانها بقضيتها وبضرورة الكفاح والتضحية من أجلها .

وعلينا أن نذكر في هذه الفترة قيام المظاهرات السياسية المماثلة في كل من مصر وسوريا ، تلك المظاهرات التي أجبرت كلا من بريطانيا وفرنسا على عقد معاهدات ١٩٣٦ مع حكومتي القاهرة ودمشق . ولكن سلطات الاستعمار في فلسطين كانت عازمة على عدم التنازل عن تصلبها وانتهاكها للحقوق . فظهرت المنظمات السرية التي تجاهد بقوة السلاح لانتزاع الحق الوطني من غاصبيه . وقامت منظمة الشيخ عز الدين القسام بالهجوم على مراكز القوات البريطانية في حيفا . وجاهدت منظمات أخرى بين نابلس وطولكرم .

وأخذت اللجان القومية تدعو العرب إلى الإضراب العام . وانتشرت هذه اللجان القومية في طول البلاد وعرضها ، ونجح هذا الإضراب نجاحا كبيرا وتألفت اللجنة العربية العليا للاشراف على الحركة وقيادتها (في ٢٥

من أبريل سنة ١٩٣٦) واجتمعت فيها كلمة كل الأحزاب واللجان القومية برئاسة السيد محمد أمين الحسيني ، رئيس المجلس الاسلامى الأعلى ، وبعضوية ممثلى الأحزاب . وقررت استمرار الإضراب حتى تجاب مطالبها التى تشتمل على منع الهجرة اليهودية منعاً تاما ، ومنع انتقال الأراضى العربية إلى اليهود ، وانشاء حكومة وطنية مسئولة أمام مجلس نيابى .

امتلأت الشوارع بالمظاهرات ، وهاجمت المنظمات العربية مخافر قوات الاستعمار والمنشآت الصهيونية ، وواصلت عمليات تدمير السكك الحديدية ونسف الجسور وتخريب الطرقات . ولم يأبه العرب بلجان التحقيق البريطانية التى أرسلت اليهم ورفضوا الاتصال بها . ولم يثنهم عن عزمهم سياسة البريطانيين الاستعمارية للتنكيل بأحرار العرب وأبطالهم ، بل كانت الثورة فى أجلى معانيها ، رغم قوانين الطوارىء ومواجهتهم بالمدافع الرشاشة والمصفحات .

اشتملت هذه الثورة على جميع طبقات الأمة ، وكانت عنيفة ، وقررت الاستمرار والاستبسال . وأخذ المتطوعون يصلون إلى فلسطين من سوريا وشرق الأردن والعراق . وجاء القائد فوزي القاوقجي على رأس المتطوعين المجاهدين ، وانضم اليه رجال العرب ، وخاضوا المعارك المنظمة ضد قوات الاستعمار ، وأعوان الاستعمار . وأصبح مركز كل من البريطانيين واليهود مهدداً في فلسطين ، كما خشيت بريطانيا على بترولها حين بدأ المجاهدون العرب فى تدمير خط الأنابيب الآتى من العراق عبر شرق الإردن إلى فلسطين فأسرعت بريطانيا إلى ارسال الامدادات من منطقة القناة إلى فلسطين ، وجاءت بأمدادات أخري من الهند . ولكنها تأكدت من عجزها عن اخماد ثورة الأحرار ! لقد اختار العرب الموت فى سبيل الحرية على العيش فى ظل

اليهودية ، وتعاون العرب جميعا فى المعركه التى بدت وكأنها معركة القومية العربية ، وعجزت بريطانيا عن التفاهم مع هؤلاء الثوار إلا عن طريق رؤساء العرب ، وكان البعض من بينهم يمتاز بتعاونه الصريح مع حكومة لندن ، ويخشى على ملكه أو امارته من كل حركة ثورية شعبيـة ، وبخاصة إذا كان ملكه قائما على أساس قبلى أو اقطاعى . ونجحت بريطانيا فى اقناع ملوك العرب وأمرائهم بأن استمرار هذه الثورة يضر بمصالح العرب وأن من الانسانية التدخل لحقن الدماء . فأرسل كل من الملك عبد العزيز آل سعود ، من المملكة العربية السعودية ، وغازى من بغـداد ، والامام يحيى من تعز ، والأمير عبد الله من عمان ، ببرقيات متطابقة يظهرون فيها تألمهم من الحـالة السائدة فى فلسطين ، ويدعون العرب فيها إلى الاخـــلاد إلى السكينة حقنا للدماء . وأعلنوا فيها ثقتهم بحسن نيـــات صديقتهم الحكومة البريطانية ، وبرغبتها المعلنة لتحقيق العـدل ، وأكدوا لعرب فلسطين أنهم سيواصلون « المساعى » فى سبيل مساعدتهم .

والمساعى من جديد ... ومن الملوك هذه المرة .

وعلى أى حال فلقد ثبت أن قضية فلسطين قد أصبحت قضية العروبة كلها ، لا فرق فيها بين يمنى وعراقى ومغربى . ووافقت اللجنـة العربية على وساطة الملوك والأمراء ، وقررت انهاء الاضراب فى يوم ١٢ من أكتوبر بعد أن استمر ستة أشهر . وعاد كل إلى عمـله فى تضامن ظهرت فيه وحدة الصف العربى .

ولكن بريطانيا قررت أنه لا يوجد ما يستلزم وقف الهجرة أثناء تحقيق اللجنة الملكية المرسلة إلى فلسطين ، فقرر العرب مقاطعة هذه اللجنة

واستعدوا لمواصلة الكفاح ، بعد أن بلغ عدد شهدائهم ما يزيد على الألف ، وزجت السلطات الاستعمارية بما يزيد على ثلاثة آلاف وطني عربي في السجون والمعتقلات . ولكن الملوك والأمراء تدخلوا مرة جديدة وطلبوا من العرب الاتصال باللجنة وشرح قضيتهم أمامها. وستعطي هذه اللجنة مشروعا استعماريا جديدا يساعد على انشاء الوطن القومي لليهود ، وعلى حساب العرب .

(٣) مشروع التقسيم : —

إستمعت اللجنة الملكية إلى وجهات نظر رجال الإدارة الاستعمارية ثم إلى وجهات نظر الصهيونيين الذين طالبوا بشرق الأردن عــلاوة على مطالبتهم بفلسطين . أما اللجنة العربية فأنها قدمت مذكرة بوجهات نظرها طالبت فيها بضرورة وقف الهجرة ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود ، كما نادت بانهاء الانتداب ، وعرضت أمر عقد معاهدة مع بريطانيا تقوم بعدها حكومة دستورية في الاقليم . ورأت اللجنة الملكية بوضوح محاباة الإدارة الاستعمارية البريطانية لليهود على حساب العرب وانخفاض نسبة السكان العرب في فلسطين نتيجة لهذه المحاباة من ٩٣ ٪ إلى ٧٠ ٪ فقط. وثبت لديها أن العرب يعارضون في إنشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، وأن انتشار الروح الوطنية في الوطن العربي بأكمله قد أثر تأثيرا كبيرا على هــذه المنطقة ، كما أن ازدياد اليهودية بالطواد وسيطرة اليهود على الرأي العام البريطاني والأوربي وعجز بريطانيا عن الوقوف في وجه أطماع العرب دفع بأهالي فلسطين إلى عدم الثقة في تصرفات هذه الدولة وسياستها .

فأوصت اللجنة بضرورة وضع حد للهجرة اليهودية لا يزيد على اثني عشر الف مهاجر في السنوات الخمس التالية . وعلى أن يخضع ذلك لمقدرة البــلاد

الاقتصادية على استيعابهم .

ورأت اللجنة أن عرب فلسطين قد اتحدوا مسلمين ومسيحيين معاً وأنهم يصلحون لتولى أمورهم وحكم أنفسهم بنفسهم ، مثل عرب العراق ، وعرب سوريا . وأن اليهود كذلك يصلحون لأدارة شؤنهم . ولكن منح الحكم الذاتي لكليهما أمر غير عملى .

ولذلك فانها وجدت أن الأمل الوحيد للخروج من المأزق لا يأتى إلا عن طريق إجراء عملية جراحية وهى التقسيم ، ما دامت بريطانيا لا تستطيع البقاء إلا إذا عملت على قمع الوطنيات الناشئة مع ما يهـــدد ذلك من إنتشار للكراهية وتفاقم للأحوال . فأوصت بضرورة انهـــاء الانتداب وتقسيم فلسطين الى دولتين : احداهما عربية تضم الى شرق الأردن ، وثانيهما يهودية ، وانشاء نظام معاهدات معهما مشابهة للمعاهدات المعقودة مع العراق ومع سوريا وأن يلحق بهذه المعاهدات اتفاقيات عسكرية تخص اقامة القوات البرية والبحرية والجوية ، وتتعلق بالطرق والسكك الحديدية والموانى وأنابيب البترول . كما اقترحت انشاء منطقة ثالثة تشتمل على القدس وبيت لحم وتتصل بالبحر عن طريق ممر يصلها بيافا ماراً بمدينتى اللد والرملة . وأوصت بأن تظل هذه المنطقة الثالثة تحت الانتداب على ألا يطبق فيها وعـــد بلفور ، وأن تظل الانجليزية هى لغتها الرسمية ، ولقد تركت اللجنة لليهود كل المنطقة الشمالية مع المنطقة الساحلية ، وتركت للعرب المنطقة الداخلية . ولكنها أوصت بأن تقوم الدولة اليهودية بدفع اعانة مالية للدولة العربية بعد اقامتها ، وأن تدفع الحكومة البريطانية مبلغ مليونى جنيه سنويا اعانة للحكومة الأردنية . وقررت ضرورة تبادل السكان بين كل من المنطقتين العربية واليهودية . وأخيراً فأن

تطبيق هذا المشروع كان يتطلب فترة انتقالية قدرتها اللجنة بعشر سنوات لتصفية المسائل بين الدولتين الجديدتين .

ووافقت الحكومة البريطانية على هـذا التغيير الأساسى الذى يتعارض ، بتقسيمه للاقليم ، مع نص وثيقة الانتداب وروحها ، بعد أن كانت قد رفضت اجراء أى تعديل على سياستها فى فلسطين . واستندت بريطانيا الى أن تجارب سبعة عشر عاما من حكم فلسطين قد دفعت بها الى الاعتقاد باستحالة التوفيق بين أمانى كل من العرب واليهود . ولكن الحكومة البريطانية تناست أن العرب لا يقبلون قيام دولة يهودية فى أرضهم ، وأنهم سيقاومون هذا المشروع بكل قوة ولم يكن تقرير الملكية وبيان حكومة لندن الا تحويل الوطن القومى لليهود الى دولة يهوديه . بأكمل معانيها ، ارضاء لأطماع اليهود ، وحفظا للمصالح الاستعمارية البريطانية واهداراً لحقوق العرب .

ومن العجيب أن الاقليم الذى حددته اللجنة للدولة اليهودية كان يشتمل فى ذلك الوقت على ٢٢٥ ألفا من السكان العرب ، و ٣٠٠ ألف من اليهود ، أى أن أغلبية السكان فيه كانت ، حتى ذلك الوقت . ورغم الهجرة ، عربية . وأدخل هذا التقرير مناطق عـكا وحيفا وطبرية وصفد فى الدولة اليهوديه ، رغم أن سكانها يبلغون ثلاثة أضعـاف السكان اليهـود ، ويملكون من الارض الزراعية أضعاف ما يملكه اليهود . أما عن تبادل السكان فكان يعنى مبادلة ٣٢٥ الف عربى من المنطقة الشمالية الغربية مـع ١٫٢٥٠ يهودى فى المناطق الداخلية . وأخيرا وليس آخراً منطقة الانتداب الدائم كانت تشتمل على مطار اللد والرمله والمحطة الرئيسية للسكك الحديدية ، وعلى المواصلة التى تلتقى فيها خطوط مصر وحيفا والقدس ويافا ، ولقـد أضاف التقرير منطقة العقبة الى نصيب الحكومة البريطانية فوضح أن بريطانيا تسعى

للاحتفاظ بهذه المراكز الاستراتيجية الهامة، رغم ادعائها ضرورة بقاء انتدابها بدعوى حماية الأماكن المقدسة .

وما أن نشرت بريطانيا هذا المشروع حتى قابله العرب بالرفض والاحتجاج وأيدت بقية الدول العربية أبناء فلسطين فى سخطهم واحتجاجهم ورفضهم لهذا المشروع الجائر ، وظهر تصميم العرب على مواصلة الكفاح الى أن تجاب مطالبهم , وأما اليهود فإنهم رفضوا نصيبهم فى التقسيم ، ولكنهم قبلوا فكرة انشاء دولة يهودية صهيونية .

واجتمع مؤتمر عربى عام فى بلودان بعد أن دعت اليه لجنة الدفاع عن فلسطين فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٢٧ ، وقرر هذا المؤتمر أن فلسطين جزء لا ينفصل عن الوطن العربى ، وأعلن رفضه ومقاومته لمشروع التقسيم وانشاء ولة يهودية ، وطالب بانهاء الانتداب ووقف الهجرة واعلان استقلال فلسطين فحاولت الحكومة البريطانية كسب بعض الحكومات العربية إلى جانبها فى اجتماع عصبة الامم ، ولكنها فشلت فى ذلك كل الفشل ، إذ أنها لم تجد حتى بين أشد أصدقائها اخلاصا من يقبل مثل هـــذه السياسة أو يجرؤ على ربط اسمه بها .

ووقعت بعض حوادث الاغتيال فى فلسطين ، فأخذت السلطات الاستعمارية فى تطبيق سياسة البطش والتنكيل بالوطنيين العرب ، فاعتقلت زعماء الحركة الوطنية ، وحلت اللجنة العربية العليا ، وعزلت رئيس المجلس الإسلامى الأعلى من منصبه ، وأخذت فى نفى الأحرار . فثارت فلسطين وثار معها العرب فى حركة عارمة بدأت بالأضراب ، ثم أخـــذت شكل تدمير ونسف المواقع البريطانية وخطوط المواصلات وأنابيب البترول . وازداد تنكيل السلطات

الإستعمارية للعرب وتفننها فى تعذيبهم بوسائلها البوليسية ، فلم يزد العرب على اصرارهم إلا اصرارا وايمانا واقداما على البــذل والتضحية . وظهر أمام الإستعماريين أن الثوار العرب يعتمدون على اخوانهم الأحرار فى سوريا وفى شرقى الأردن والعراق ، فحاولت اقفال الحدود الشمالية مع سوريا ولبنان بالأسلاك الشائكة ، وكذلك أجزاء من الحدود الشرقية ، وعززت هذه الأسلاك بحقول الألغام. ولكن رجال الثورة هاجموا هذه الخطوط واخترقوها وواصلوا عملياتهم بكل شجاعة . وسيطرت الثورة على البلاد ، وزود الثوار أنفسهم بالأسلحة التى انتزعوها من مراكز البريطانيين ومواقعهم ، واحتل رجال الثورة مدينة القدس القديمة ، واضطروا الحكومة الإستعمارية إلى اقفال مكاتب البريد والمحاكم ونقط الشرطة فى كثير من النواحى ، لعجز قواتهم المسلحة عن حمايتها .

وأيدت البلاد العربية وحكوماتها عرب فلسطين فى معركتهم الثورية التحررية ، وجاء هذا التأييد صارخا من القاهرة ، ودمشق وعمان ، والرياض ومن اليمن ، والسودان ، والمغرب ، وقامت المظاهرات فى الهند لتأييد عرب فلسطين .

ولقد شعرت بريطانيا بحرج مركزها وخطورة موقف الصهيونيين ، فعملت على امدادهم بكميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، وأرسلت لجنة فنية لدراسة مسألة التقسيم من النواحى الإقتصادية والعسكرية والانسانية . وجاءت هذه اللجنة مهزلة جديدة لكسب الوقت فقاطعها العرب . وتقدمت اللجنة الفنية بمشروع يقضى بتقسيم فلسطين إلى ثلاثة أجزاء : شمالية ووسطى وجنوبية ، وأوصت ببقاء الانتداب على كل من الإقليمين الشمالى والجنوبى ،

وبتقسيم المنطقة الوسطى إلى ثلاث مناطق يهودية وعربية وبريطانية . وحاولت فى هذه التوصيات المحافظة على مصالح وأطماع بريطانيا الإقتصادية والاستراتيجية فى المنطقة من ناحية ، وارضاء الأطماع الصهيونية بانشاء دولة لمشرديهم من ناحية أخرى ـ وعلى حساب العرب . ولكنها اعترفت بأن تنفيذ هذه الخطة يتطلب استخدام القوة ، واعترفت بأن المناطق العربية ستكون من الفقر بدرجة لا تسمح لها بموازنة ايراداتها ومصروفاتها .

فتأكدت بريطانيا أن الثورة العربية قد نجحت ، وأن مشروع التقسيم قد فشل نهائيا . كما تأكدت من عجزها من السيطرة على الموقف فى فلسطين دون تدخل من بقية الدول العربية ، وبحث المسألة على المستوى العربى ، فعمدت الى عقد مؤتمر لندن للوصول الى تفاهم مع العرب ومع اليهود حول السياسة المقبلة فى فلسطين. وكان فشل مشروع التقسيم من ناحية، وبحث المسألة الفلسطينية على أساس عربى من ناحية أخرى أكبر دليل على نجاح الثورة الفلسطينية ووعى الأمة العربية . ووضح أن بريطانيا قد شعرت بأهمية العرب وخطورة الدور الذي قد يقومون به فى حرب عالمية ثانية ، خاصة وأن الجو قد بدأ فى التلبد بالغيوم ، وقامت ألمانيا بتهديد الامبراطورية البريطانية ومحاولة تغيير الوضع الدولى فى أكثر من مكان . فحاولت بريطانيا أن تكسب كلا من العرب واليهود واتخذت لنفسها منذ هذا اليوم مظهر الوصى الذى لا يسعى إلا لخير من أقام نفسه وصيا عليه .

ودعيت كل من حكومات بغداد والقاهرة وتعز وعمان للاشتراك فى

هذا المؤتمر ، وعمدت بريطانيا إلى استشارة فرنسا بصفتها ممثلة لكل من سوريا ولبنان ، وإلى الاتصال بحكومة واشنطون . وأصر العرب على ضرورة تمثيل اللجنة العربية العليا لفلسطين ، فوافقت بريطانيا على ذلك بعد أن كانت قد حلت هذه اللجنة ونفت زعماءها من البلاد . واجتمع الانجليز بالعرب فى الصباح ، وباليهود بعد الظهر ، خاصة وأن العرب قد رفضوا الجلوس على مائدة واحدة مع أذناب الاستعمار الصهيونيين .

وعرضت بريطانيا فى هذا المؤتمر تسوية تنص على قيام حكومة فلسطينية لا عربية ولا يهودية ، تعلن استقلالها وترتبط معها بمعاهدة تضمن للامبراطورية الاحتفاظ بمصالحها الإقتصادية والاستراتيجية . ولكنها عرضت فترة انتقالية لمدة عشر سنوات لإجراء تطورات دستورية عن طريق اشراك الفلسطينيين فى المجلس الاستشارى والتنفيذي ، ثم لتحويل هذا المجلس الأخير إلى مجلس ائتمانى ، وكذلك للوصول إلى تعاون بين العرب واليهود فى فلسطين . ولكن كان من حق العرب أن يتساءلوا عما يحدث لو لم يصل سكان فلسطين إلى مرحلة التعاون . فأجابت بريطانيا بأنها ستعاود حينئذ استشارة العرب واليهود والبلاد العربية وعصبة الأمم حتى تؤجل انشاء الدولة الفلسطينية فطالب مندوبوا الدول العربية بجعل هذا التأجيل مشروطا بموافقة الدول العربية عليه ، خاصة وأن نية بريطانيا كانت واضحة فى أنها تطلب الوصول إلى تعاون وترفض قطع وعد صريح على نفسها بتسليم فلسطين لأهلها بعد فترة معينة .

ونشرت الحكومة البريطانية كتابا أبيض فى نفس السنة شرحت فيه مراحل الحكم الذاتى وعالجت فيه مسائل الهجرة ومسألة الأراضى ، فقررت أن تحدد الهجرة فى الخمس سنوات التالية بعدد يرفع تعداد اليهود إلى مايقرب من ثلث سكان فلسطين ـ أي أن تدخل ٧٥ ألف مهاجر يهودي ، وتقفل بعد ذلك أبواب الهجرة نهائيا ما لم يسمح عرب فلسطين بمجىء مهاجرين آخرين ولكنها تركت للمندوب السامى سلطات واسعة لمنع وتنظيم انتقال الأراضى من أيدي العرب إلى أيدي اليهود .

وكان هذا الكتاب الأبيض نصراً مؤقتاً لبعض مطالب العرب إذ أن بريطانيا اعترفت فيه بحق فلسطين فى الاستقلال ، وتركت جانبا مشروع التقسيم ، وحددت الهجرة بشكل قاطع . ولكنها اشترطت قيام تعاون بين العرب واليهود للوصول الى الاستقلال ، وجعلت هذا الاستقلال مبهماً بعد مضى فترة العشر سنوات ، وواصلت بذلك اعطاء تصريحات مبهمة لخدمة أغراض وأطماع جديدة ، كما أنها احتفظت بحكومة الانتداب دون عمل على إقامة حكومة وطنيه نيابية ، أو إعطاء وعد بمنح دستور . وأخيرا فانها تركت مسألة الأراضى تحت رحمة المندوب السامى . ولذلك فان العرب قد رفضو هذا الكتاب ولولا ظروف الحرب العالمية الثانية لواصلوا الكفاح .

ونجد أن اليهود قد رفضوا المشروع كذلك ونادوا بضرورة إنشاء دولة يهودية وبدءوا فى الاعتداء على البريطانيين وإطلاق عصاباتهم المسلحة ضد رجال الإدارة .

وأما الحكومة البريطانية فأنها قد أعلنت أنها ستنفذ نصوص هذا الكتاب .

ولكن ظروف الحرب العالمية الثانية ستغير من القوى الموجودة فى الميدان ومن علاقة هذه القوى الواحدة بالأخرى ، خاصة وأن الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأت فى القيام بدور هام فيها .

خاتمة الباب

نرى مما سبق أن الأطماع الإستعمارية البريطانية قد تركزت على فلسطين أكثر من تركزها على أى إقليم عربى آخر ، وكان موقع فلسطين الاستراتيجى ، ومجاورتها لمصر ، وإمكانية وصلها بالعراق عن طريق إمارة شرق الأردن ، أسبابا تزيد من الأطماع البريطانية فى المنطقة . وكانت بريطانيا تحتاج اليها كمخرج لخط أنابيب البترول العراقى . وإذا كانت بريطانيا قد أفادت من الثورة العربية فى مد حكمها الى فلسطين ، إلا أنها قد قطعت وعوداً لفرنسا ولليهود تتعارض مع وعودها للعرب. وكانت بريطانيا قد ربطت نفسها ومصالحها باليهود المسيطرين على الاقتصاد العالمى. وعمدت بريطانيا الى ارضاء اليهود فى فلسطين حتى توازن بينهم وبين العرب. ولكنها كرست نفسها فى خدمة الصهيونيين وساعدت بذلك على تبلور الرأى العام الفلسطينى ضد وجودها فى الإقليم .

ورغم أن المعسكر العربى الفلسطينى كان يقاسى من ضعف قيادته وانقسام صفوفه وتعدد الاتجاهات فيه ، الا أنه تمكن من أن يجمع قواته وينزل بها الى معارك متتالية ، بدأت ضد اليهود ، ثم استمرت ضد اليهود والبريطانيين معاً .

واذا كانت بريطانيا قد تأكدت فى الثلاثينات من عدم امكان التوفيق بين أطماع اليهود المتزايدة ومصالح العرب المشروعة ، فان عملها على تقسيم فلسطين بين المعسكرين ، وفى الوقت الذى تحتفظ فيه بامتيازاتها لاقتصادية

والاستراتيجية ، كان يعنى خروج الموقف من بين يديها وفقدانها سيطرتها عليه وإذا كانت بريطانيا قد أدخلت اليهود الى فلسطين إلا أنها ساعدت بنفس العملية ، وبطريق غير مباشر على إخراج نفسها من فلسطين ومن كل العالم العربى الذى أجبرته هذه السياسة الاستعمارية على الاستيقاظ من سباته الطويل وعلى مواجهة الحقيقة ، حتى وإن كانت مرة ، وبوسائل عملية .

خرائط الكتاب

محتويات الكتاب

الباب الأول

شبه الجزيرة العربية

صفحه

الباب الثانى

الهلال الخصيب

صفحة

الباب الثالث

فلسطين